"هناكَ أحزانٌ أخرى في هذا العالَم.. إلى جانب لوعة الحُبِّ"

فريق متميزون
E-BOOK

أحزان هندية

عبد الله خان

ترجمة : ريم داوود

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أحزان هندية

هناك أحزان أخرى في هذا العالم..
الى جانب لوعة الحب..

رواية مترجمة..

الكاتب: عبد الله خان.
ترجمة: ريم داوود

الإهداء..

إهداء إلى جدتي لأبي، الراحلة أميرونيسا
وماما، الراحلة شهيدة خاتون
اللذين ورثت عنهما فن الحكاية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

“هناك أحزانٌ أخرى في هذا العالَم
إلى جانب لوعة الحُبِّ
هناك مُتَعٌ عديدة في العالَم
إلى جانب متعة الاقتران بالحبيب”

للشاعر: فايز أحمد فايز

حُـلْـم

1

ارتجف "عارف" مع هبوب الريح، وفكَّر: "كان عليَّ أن ألبس سترة". أوقف درَّاجته الهوائية أمام مبنى أصفر من طابقين. لقد وصل البيت، عائدًا من الكلية. أدخل الدرَّاجة، ووضعها أسفل السلَّم، ثم تناول دفتره من سلَّتها الأمامية، صاعدًا إلى الطابق الأول. الدرج مكسور في بعض المواضع. تتدلى بيوت عنكبوت من السقف.

عند وصوله الطابق الأول، دفع "عارف" الباب ودخل شرفة منزل أسرته. وضع الدفتر فوق مقعد خشبي برتقالي، مجاور لأريكةٍ رخيصةٍ من الجلد الاصطناعي الرمادي. انحنى "عارف" ليخلع حذاءه. أمسك الفردتين، وضربهما ببعضهما ليخلِّصهما من الطين العالق بنعليهما. وضعهما بجوار المدخل، ثم فرك أصابعه نافضًا عنها التراب. تناول دفتره، واتجه إلى حجرته.

كان مُتعبًا، وأراد أن يستريح قليلًا، لكنه توقف عند باب الحجرة، حين لمح غريبين داخلها. أحدهما شابٌّ عشريني قصير، ممتلئ، بشعرٍ قصيرٍ جدًا، ينام فوق سريره؛ والآخر رجل ملتحٍ في منتصف العُمر، له بطن مستدير، يجلس فوق الكرسي، مستغرقًا في قراءة العدد الأخير من مجلة "إنديا توداي" أو "الهند اليوم".

ذهب "عارف" إلى أمِّه، التي كانت تقطع الخضروات في المطبخ.

- مَن هؤلاء الناس يا أمِّي؟

أجابته وهي تضع قطع الخضروات في سلطانيةٍ كبيرة: - الرجل الكبير أحد أقارب والدك، جاء إلى "باتنا" ليعالج ابنه في "معهد إنديرا غاندي للعلوم الطبِّية". سيبقون معنا لأربعة أو خمسة أيَّام.

قال "عارف" بنفاد صبر، وهو يشدُّ شَعر رأسه:

- ضيوف! مرة أخرى؟ هل هذا بيت أم فندق؟ كل يوم ضيف جديد؟

أضاف بغيظ:

- البيت ثلاث غرف فقط، وهو ضيق علينا نحن الثمانية أصلًا!

قالت الأم بصوتٍ هامس:

- أخفض صوتك يا ولدي، سيسمعوننا.

تشاغلت بغسل قطع الباذنجان والبطاطس والفجل.

قال "عارف" وهو يغادر المطبخ:

- وماذا في ذلك؟

توجَّه إلى حجرة المخزن، في نهاية الممر. يضمُّ المخزن الضيِّق ثلاثة أجولة من القمح والأرز، بالإضافة إلى رفٍ صغيرٍ للكتب، وطاولة وكرسي.

كان "عارف" يستذكر فيه دروسه، عندما يضطر لذلك. تثير رائحة المبيدات الحشرية داخل المكان حساسية "عارف" وتدفعه للعطس المتواصل. ليس للمخزن نافذة، ولذلك يضطر إلى إبقاء الباب مفتوحًا بعض الشيء. لم يكن باستطاعته البقاء هنا لوقتٍ طويل، بسبب الروائح النفَّاذة.

الضيوف هم المشكلة الأزلية في بيته. كلما زار أحد الأقارب "باتنا"، أقام لديهم. لماذا يدفع آلاف الروبيات للإقامة في فندق، بينما بإمكانه البقاء هنا مجانًا؟ يأتي معظمهم بغرض العلاج، أو للالتحاق بالعمل كأمناء شُرطة، أو لحضور جلسات قضايا تخصهم في المحكمة العُليا لـ"باتنا". كان بعض أولئك الأهل من درجةٍ بعيدةٍ للغاية، حتى أن الأب والأم لم يسبق لهما لقاءهما. كانوا يأتون بتوصيةٍ من أقاربٍ آخرين، إمَّا بخطاباتٍ كتبها أحد الأعمام، وإما باتصالات تليفونية تحدثوا فيها للأب في مكان عمله.

الأب هو أكثرهم انزعاجًا من كثرة ضيوف الأسرة، ويردِّد دائمًا: - هل يظن هؤلاء الناس أن بيتي هو استراحة خيرية للمسافرين؟

لكنه كان يقول ذلك عقب مغادرتهم، أمَّا خلال وجودهم، فهو المضيف الودود، المثالي، وهو ما يشجِّعهم على القدوم ثانيةً.

أمَّا الأم، فهي مُجهَدة طوال الوقت، لكثرة الأعباء والواجبات. في بعض الأحيان، كانت تطهو وجبات لعشرين شخصًا على موقدٍ من الفحم. يحاول الأب منذ ثلاث سنوات إدخال وصلات غاز للمنزل، دون جدوى، إذ لم يحن دوره بعد. إن شراء أسطوانة غاز واحدة من السوق السوداء مسألة مُكلِّفة للغاية. في كل صباح، تغادر الأم فراشها في ساعةٍ مبكرة، كي تشعل موقد الفحم. بسبب الدخان الكثيف الناتج عنه، كانت تحمل الموقد المصنوع من الطوب والطين إلى الشرفة، وتملأه بالفحم، إلى أن تشتعل الجمرات جيدًا، ثم تعيده إلى المطبخ. لا توقظ أيًّا من أبنائها لمعاونتها، أبدًا. وحتى لو كانوا مستيقظين، فإنها تمنع بناتها من معاونتها في حمل الموقد: - حمل الأشياء الثقيلة يؤثِّر على الدورة الشهرية للفتيات الشابَّات.

لم يكن لديها حجَّة مقبولة تمنع بها ولديها من مساعدتها، ولذلك فإنه حين يستيقظ "عارف" و"ذاكر" مبكرًا، في بعض الأحيان، يُصرَّان على معاونتها. في السنة الماضية، اتخذ "عارف" قرارًا بينه ونفسه: "بدءًا من الغد، سأصحو مبكرًا لأساعد أمِّي في حمل وإشعال الموقد"، لكن الأم كانت تنتهي من أداء هذه المهمة قبل استيقاظه.

يتشارك "عارف" و"ذاكر" حجرة واحدة، أمَّا الحجرة الثانية فمخصصة للأبوين، وتضم سريرين صغيرين، تفصل بينهما مسافة كبيرة، وطاولة بلاستيكية وأربعة مقاعد. تُستخدَم نهارًا كغرفة استقبال للضيوف. الحجرة الثالثة، الأكثر اتساعًا، لها شرفة كبيرة. في هذه الحجرة مقعد خشبي بقوائم قصيرة، للجدَّة، وسرير كبير تنام عليه الشقيقات الثلاث "رابية" و"نَزنين" و"هوما"، متجاورات. عند مبيت ضيف من الرجال لديهم، تترك له الأم

سريرها، وتنام فوق حصير في الممر. يقول لها الولدان: - سينام أحدنا فوق الحصير، اذهبي أنتِ لحجرتنا.

لكنها لم توافق أبدًا. حين يزيد عدد الضيوف، يتخلَّى الولدان أيضًا عن حجرتهما. ينزعج "عارف" حين تضطر أمه للنوم على حصير من القَش المغزول، فوق الأرض، وتضع بعض قطع القماش تحت رأسها، عوضًا عن الوسادة. لكن أكثر ما يزعجه هو تأثر دراسته وقدرته على الاستذكار خلال وجود الضيوف.

عاد "عارف" إلى حجرته. كان الرجل يمسك كتابًا بالأُردية هذه المرة، وهو يمشط لحيته التي خالط البياض سوادها، بأصابعه، مستغرقًا في القراءة. لا يزال الشاب يغط في النوم. ألقى "عارف" التحية: - السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

مدَّ الرجل كلتا يديه، مُرَحِّبًا. صافحه "عارف" ببعض التردد. قال الرجل، بلطف: - هل أنت الابن الصغير للسيد "عبد الرشيد"؟

- كلا، أنا الأكبر.

- حقًا؟ لكن شقيقك "ذاكر" يبدو أكبر منك. ما شاء الله. لديه بُنية عِرق الـ"باتان" القوية وبشرتهم البيضاء. كم عمره؟

تحدَّث الرجل وهو يحكُّ لحيته. أجابه "عارف":

- إنه في العشرين.

يُعَدُّ "عارف" نفسه طويلًا، بالمقاييس الهندية، إذ يتجاوز المئة وسبعة وسبعين سنتيمترًا؛ لكن "ذاكر" أطول منه أيضًا. سأل الرجل من جديد: - وأنت؟

- أنا أكبر من "ذاكر".

سكت الرجل للحظة، ثم قال بلغةٍ أرديةٍ رفيعة، بالغة التهذيب: - اسم الشريف؟

طالبًا معرفة اسمه. أحسَّ "عارف" بالإرهاق من هذه الأسئلة المتوالية، المتكررة مع حضور كل ضيف، لكنه أجاب: - "عارف خان".

- اسمٌ جميل، وماذا تدرس؟ هل أنت في البكالوريوس؟

أجاب وهو يجول سطح مكتبه بعينيه:

- أدرس الكيمياء، في السنة الثالثة.

- في أية جامعة؟

- "آنوجراه نارايان".

- ماذا عن "ذاكر" وشقيقاتك؟

- "ذاكر" في السنة الثانية. الجامعة نفسها. "رابية" في كلية "جي دي" للبنات، والفتاتان الأخريان في المرحلة الثانوية من مدرسة الشرطة العسكرية.

هذه المرَّة، حرص الرجل على مخاطبته بصيغة احترام، مستخدمًا لقب "بابُو": - حسنًا "عارف بابو"، هل بإمكانك مرافقتنا؟ أعني إذا لم تكن مشغولًا. المدينة غير مألوفة بالنسبة لي، بتاتًا. لو أننا نزور مدينة "موتيهاري"، لكان الوضع مختلفًا.

- لا أستطيع، للأسف. امتحاناتي النهائية بعد أسبوعين فقط.

مشي بضع خطوات، وتناول سترة خفيفة معلَّقة على شمَّاعة معدنية مثبَّتة في الحائط المجاور لسريره.

قال الرجل بصوتٍ منكسر:

- لكننا لا نزوركم يوميًا.

أخذ "عارف" كتابًا صغيرًا، ومفكِّرة بغلاف أزرق، وقلمًا، من فوق الطاولة، وكرَّر اعتذاره: - آسف.

بعد عشر دقائق، كان يجلس على الرقعة المزروعة بالحشائش، داخل حديقة "نهرو بارك"، ومعه مفكرته الزرقاء وديوان للشاعر القديم "مؤمن". قال لنفسه مؤنبًا: - بدلًا من المذاكرة، أجلس هنا ومعي ديوان شِعر!

كانت الحديقة شبه خاوية، إلا من بضع أطفال يلعبون على الأراجيح في ركنٍ بعيد. يتوسط الحديقة تمثال نصفي من الرخام لـ"جواهر لال نهرو"، تحيطه أحواض من الورود والأقحوان.

هَبَّ الهواء، فاهتزَّت النباتات، وأحسَّ "عارف" ببعض البرد، فأحكم السترة حوله وأقفل السحَّاب. خلال قراءته لقصائد الديوان، تنبَّه لصوت خطوات تقترب منه.

رأى رجلًا مُسِنًّا، يضع حول كتفيه الهزيلتين شالًا أبيض، وإلى جواره امرأة طويلة، رشيقة، ترتدي ساري أسود، يسيران نحوه. كان شعرها الطويل أشعث بعض الشيء، وقد توَّرمت عيناها وساحَ الكحل منهما. كانت تبكي. لم يستطع "عارف" إبعاد نظراته عنها. تمتم في إعجاب: - سبحان الله!

حوَّل نظراته إلى كتابه، لكنه لمحها وهي تساعد الرجل على الجلوس فوق المقعد الخشبي الكبير، القريب منه. وجد نفسه يخطُّ أبياتًا عنها، بالأردية، في مفكرته: خصلاتها الحالكة

تماثل لون ردائها

الذي يلف جسدها الرخامي

لا مثيل لهذا الحُسن

ولا لهذا الوجه.. الأجمل من بدر التمام

سمع "عارف" صوتها وهي تخاطب الرجل المُسِن:

- كيف تشعر الآن يا أبي؟

رفع عينيه نحوها من جديد. ليس هناك أي ردِّ فعل من الأب. أحاطت كتفيه بذراعها، تلفتت حولها بنظراتٍ زائغة، وقد استبدَّ بها القلق والتوتر. صاحت بصوتٍ حاد: - أبي.. أبي!

تحسَّست جبينه وخدَّيه بأصابعها، ثم أمالت رأسها فوق صدره، محاولةً سماع دقَّات قلبه. أخذت تهزَّه بخوفٍ، ودون وعي.

أمسك "عارف" بكتابه ومفكرته، وهرع نحوهما. صاحت: - ساعدنا أرجوك.

حاولتْ التماسك، لكن دموعها تساقطت بغزارة. ألقى "عارف" متعلقاته فوق مقعد الحديقة، وأمسك بمعصم الرجل، باحثًا عن نبض. قالت المرأة وهي تمسح أنفها بظهر يدها: - اتصل بالإسعاف من فضلك.

- يستغرق وصول الإسعاف دهرًا هنا في "باتنا". سوف أطلب سيارة أجرة.

اتجه مسرعًا إلى كشكٍ يبيع السجائر و"التنباك". وقف البائع شديد السُمرة في الكشك بمفرده، منهمكًا في لف "التنباك" بأوراق نبات "التنبول". للبائع شارب بطرفين يمتدان نحو الأسفل. انبعث صوت المُغنية الشعبية "شاردا سينا" من جهاز التسجيل، مخاطبةً زوجها: "آه يا زوجي الحبيب.. هات لي قميصًا من البنغال". ناوله "عارف" روبيتين، وقال: - مكالمة محلية.

اتصل بسائق الأجرة "حبيب"، الذي اعتاد توصيل عائلته لبعض مشاويرهم، بين الحين والآخر. وصل بعد ثلث ساعة. طلب منه "عارف" أن يساعده في إدخال الرجل المُسِن للسيارة. عبث "حبيب" في أذنه، بإصبعه البنصر، وهو يوزع نظراته القلقة بين المرأة وأبيها، ثم قال أخيرًا: - حسنًا يا أخي.

سارت المرأة خلفهم، ثم مدَّت ذراعها لتسند رأس والدها. دون قصد، لمس ذراعها صدر "عارف"، الذي أحسَّ بشعورٍ غريبٍ يسري في جسده. واصل التحديق في المرأة خلال ركوبها السيَّارة. أمالت رأس والدها على حِجرها، وقالت بلهفة: - هيَّا بنا!

أفاق من ذهوله، شاعرًا بحرجٍ بالغٍ لتحديقه بها على هذا النحو. ركب في الأمام، بجوار السائق. التفت إليه قائلًا: - مستشفى كلية طب "باتنا". قسم الطوارئ.

في الطريق، نظر "عارف" في مرآة السيارة. لا يزال الأب فاقدًا للوعي، بينما راحت المرأة تدلك كفَّيه وصدره، والدموع تسيل فوق خدَّيها الورديين. ألحَّ "عارف" في الدعاء بصمت: "يا الله، نَجِّ هذا الشيخ الكبير، يا رب". قبيل ميدان "دارك بانجالو"، توقفت السيارة فجأة. الطريق مغلق. هناك حواجز مؤقتة من المقاعد البلاستيكية والدراجات الهوائية والبخارية. جلس بعض الشُبَّان، الذين تراوحت أعدادهم بين الستين والسبعين شخصًا، على الأرض وهم يرددون هتافات بالهندية: "لن يتم تمرير قانون تقسيم مندل الإداري".. "قولوا لا لحجز الوظائف".. "أوقفوا نظام الانتخاب ببنك الأصوات".. "لا ترضية على أساس العِرق والطبقات".

لم يستطع "حبيب" أن يلفُّ الاتجاه المعاكس، كي يسير في طريقٍ آخر، بعد أن تكوَّن صف طويل من السيارات وراءه. خرج "عارف" من سيارة

الأجرة، ناظرًا حوله. شاهد أحد سائقي درَّاجات "الريكاشة"، ذات الأريكة الخلفية المغطَّاة، وهو يناقش الوضع السياسي الراهن للبلاد، مع رجل قصير، ممتلئ، يركب دراجة بخارية. لاحظ أن سائق درَّاجة "الريكاشة" يلبس إزارًا، وله شارب رفيع للغاية، كما لو كان مرسومًا بسِنِّ قلم رصاص.
قال بانزعاج: - بعد تطبيق نظام ال- ٢٧٪ لتوظيف الطبقات الدنيا، ما الذي سيتبقى لنا نحن أبناء الطبقات العُليا؟ سوف نضطر للتسول في الشوارع.
أنزلت المرأة زجاج نافذة السيارة، ونظرت حولها بشرود. لم ترَ شيئًا، لكن عينيها الدامعتين توسلتا إليه أن يأخذها ووالدها إلى المستشفى، بأية طريقة.
حاول "عارف" الاحتفاظ بهدوئه. قال للسائق: - "حبيب"، علينا أن نتحدَّث إلى هؤلاء الطلبة يا أخي.
- لا جدوى من ذلك.
عبث بإصبعه في أذنه. تنحنح ثم أنزل زجاج النافذة وأخرج رأسه ليبصق في الشارع، وقال: - لن يسمحوا لنا بالمرور.
فكَّر "عارف": "عليَّ مواجهتهم بمفردي". اختلس نظرة باتجاه المرأة. لاحظتها، فقالت: - هل آتي معك؟
- ابقي مع والدكِ. سأتحدَّث إليهم.
فرك ذقنه بأصابعه، في قلق. كان خائفًا من مواجهة المتظاهرين، لأنه يدرك مدى عنف الطلبة في مثل هذه الظروف. تنهَّد، محاولًا استجماع شجاعته، وبدأ في اختراق الصفوف للجهة الأخرى. اعترضه شخص ضخم، ملتحٍ، يضع خطًا أحمر من معجون الـ"تيلاك" على جبهته، وقال: - ما الأمر يا أستاذ؟ ألا ترى أن الطريق مغلق؟
- سيدي، هناك رجل مُسِن مريض جدًّا. أرجو أن تسمحوا لنا بالمرور، سوف يموت إذا لم يتلقَ رعاية طبية عاجلة.
- كلا. هذا غير ممكن. ابتعد من هنا.
توسَّل "عارف":
- أرجوك يا أخي. إنها مسألة حياة أو موت.
ظهر رجل من بين الجموع، له بشرة داكنة، ويرتدي بدلة "سفاري" صيفية، رمادية، معلنًا: - حينما يكون مستقبل ملايين الشباب في خطر، فإننا لا نهتم بشخصٍ مُسِن.
كرر الرجل الملتحي، صائحًا هذه المرَّة:
- ابتعد من هنا!
قال "عارف" وقد فقد أعصابه:
- كلا. لن أبتعد. ما تفعلونه غير قانوني أساسًا.
فجأة، ظهر شاب قوي في العشرينيات، قافزًا على "عارف"، الذي سقط أرضًا. أخذ الشاب يكيل له اللكمات: - أيها الحقير! هل جئتَ لتعلِّمنا ما هو

القانوني وما هو غير القانوني؟ ابتعد من هنا وإلا واصلت ضربك. حقير.. ملعون.
أدرك "عارف" أنه ليس في مقدوره مواجهة هذا العدد الكبير من الطلبة الثائرين، بمفرده. أحاط به عدد آخر من المتظاهرين. حمل أحدهم مضرب "هوكي". عمَّ صمت تام.
أحسَّ "عارف" بالخوف والحيرة. لم يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله. ارتفع صوت نسائي، بغتة: - من فضلكم، لا تؤذوه.
التفت نحو مصدر الصوت، فرأى المرأة ذات الساري الأسود، تقف وراءه، وقد ضمَّت كفَّيها إلى بعضهما، في رجاءٍ وتوسل. كانت قد غطَّت شعرها بطرف الساري، وواصلت الدموع الانهمار من عينيها. هزَّ الرجل الملتحي رأسه، وخاطب زملاءه: - دعوه يمرُّ.
رمقه الواقفون بأعينٍ غاضبة، ثم أفسحوا له الطريق. قام "عارف" واقفًا، وتمعَّن في المرأة. نفض التراب عن كفَّيه، واستدار ليبتعد. سمع "حبيب" وهو يصيح ويشير إليهما بحركاتٍ عصبية. شعر "عارف" بالذعر. ركضت المرأة، وتبعها "عارف".
تمتم الرجل المُسِن بكلماتٍ مبهمة، فيما راح "حبيب" يحرِّك صحيفة مطوية أمام وجهه، ليمنحه بعض الهواء. تنهد "عارف" بارتياح. ركبت المرأة السيارة، ووضعت رأس والدها على حِجرها، وراحت تدلِّك صدره، وهي تهمس له بأبيات من القصيدة الأربعينية للإله "هانومان": - يا ابن إله الريح، يا ذا الكيان المبارك، يا محطِّم المِحَن والعوائق. يا ملك الآلهة، لتسكن قلوبنا مع "راما" و"لاكشمانا" و"سيتا"..
بعد ثوانٍ معدودة، صمت الرجل تمامًا، فيما واصلتْ المرأة ترديد الأبيات. نظر "عارف" حوله، محاولًا إيجاد طريقة للخروج من هذا الشارع، لكنه فشل.
عقب دقائق قليلة، دخلت الميدان سيارة بيضاء من نوع "إمباسادور"، بصحبة باصين اثنين لشرطة مكافحة الشغب. توقفوا في الجهة الأخرى من الطريق. نزل من الباصين نحو ثلاثين أو أربعين شُرطيًا، وتوجهوا إلى المتظاهرين. كان رجال الشرطة يضعون خوذات على رأسهم، ويحملون هراوات غليظة في أيديهم. غادر ضابط برتبةٍ كبيرةٍ السيارة البيضاء، ممسكًا بمكبِّر صوت، وجَّه من خلاله نداءً للطلبة بالتفرُّق.
قذف الطلبة أفراد الشرطة بالحجارة. استشعر "عارف" الخطر المحيط به، فركب سيارة الأجرة بسرعة. أصابت بعض الحجارة الناس العالقين في زحام الطريق المغلق. أحسَّوا بالخوف، فسارعوا بمغادرة دراجاتهم البخارية وعربات التوكتوك، وركضوا مبتعدين؛ أمَّا مَن كانوا داخل السيارات الملاكي وسيارات الأجرة، فقد أحنوا أجسادهم في ذعر.

لاحقت الشرطة المتظاهرين. شاهد "عارف" الطلبة وهم يتفرقون مبتعدين. سقط بعضهم أرضًا، فضربهم رجال الشرطة بقسوة، قبل جرِّهم إلى ميكروباصات تابعة لهم.

سرعان ما انفضَّ اعتصام الطلبة، وفُتِح الطريق من جديد. انطلق "حبيب" بسرعة في ميدان "دارك بانجالو".

وُضِع الرجل على نقَّالةٍ ذات عجلات، وأدخِل مبنى المستشفى. رافقته المرأة، بينما وقف "عارف" ليسدِّد حساب سائق سيارة الأجرة. لحسن الحظ، كان قد استلم مصروفه الشهري من والده صباح ذلك اليوم.

دخل "عارف" قسم الطوارئ. لمح المرأة جالسةً في قاعة الانتظار، وقد غطت فمها بطرف الساري، للسيطرة على شهقات بكائها. تمتزج في المكان رائحة الديتول ومشمع الأرضيات. كان رجل متوسط العُمر يمسح الأرض بخرقةٍ مهترئة. جلس "عارف" بجوارها، وسألها عن والدها. أجابته بصوتٍ خفيض: - أخذوه لإجراء بعض الفحوصات، وطلبوا منِّي الانتظار هنا.

ظهر رجل بشاربٍ كثيف، طالبًا منها مرافقته لقسم العناية المركَّزة. وقف "عارف" ليذهب معها، لكن الرجل قال: - شخص واحد فقط.

قالت المرأة لـ"عارف":

- انتظرني هنا إلى أن أعود، من فضلك.

- حسنًا.

بعد ساعة، عادت المرأة وبادرته بالقول:

- أشكرك جزيل الشُكر على مساعدتي. لقد أنقذتَ حياة أبي. كانت نوبة قلبية.

فاض وجهها بالامتنان، وهي تضيف:

- إنه أفضل بكثير الآن.

شعر "عارف" بالخجل، وحاول تجنُّب النظر إلى وجهها. خاطبته باحترامٍ بالغ: - ما اسم حضرتك؟ وأين تدرس حضرتك؟

- أنا "عارف خان"، في السنة الثالثة في جامعة "آنوجراه نارايان".

أوشك أن يسألها عن اسمها، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. من غير اللائق بتاتًا أن تفعل ذلك مع سيدة تكبرك عُمرًا. لكنه سألها بتردد: - هل تسكنون قريبًا من "نهرو بارك"؟

- نعم. في "سواجات ناجار"، لكننا ننوي الانتقال إلى مسكنٍ بالإيجار، قريبًا. زوجي مديرٌ في "البنك المركزي الهندي".

أضافت بتردد:

- هل لك أن..

ثم صمتت فجأة.

- نعم؟

- أعتذر عن إزعاجك ثانيةً، ولكن دعني أطلب منك معروفًا، هل لك أن تذهب إلى "دانابور" لإحضار ابن عمّي؟ أحاول الاتصال بتليفونه دون جدوى. أخبره بأن "سوميترا" أرسلتك.

ناولته قصاصة ورق، وقالت:

- هذا عنوانه.

"سوميترا"! يا له من اسم جميل! أخذ يردِّد الاسم مرَّات عديدة، وكأنه ترنيمة. أجابها، وهو ينظر إليها بتحفظ: - حسنًا. سوف أذهب إليه الآن.

بدتْ هادئةً عقب استقرار حالة والدها. بل إنها منحته ابتسامة كبيرة، وهي توجِّه له الشُكر. في تلك اللحظة، رأى أجمل غمَّازتين في العالَم، في خديها.

مدَّت يدها ببعض الأوراق المالية:

- "عارف"، لسيارة الأجرة.

- كلا. كلا. لقد دفعتُ له أجرته.

- أنت طالب، والطلبة بحاجة للمال على الدوام.

أمسكت بذراعه بخفَّة، ووضعت المال في جيب قميصه. حين لامسته يدها، تجمَّد "عارف" في مكانه دون حركة. لم يستطع حتى أن يتنفس.

زفر بقوة وهو يغادر المستشفى. استعاد لمستها، فاقشعر جسده.

كان شارع "آشوك راج باث" مزدحمًا كالعادة. ركب "عارف" توكتوك لميدان "غاندي"، كي يركب من هناك توكتوك آخر إلى "دانبور".

بعد ساعتين، وصل "عارف" إلى العنوان. البيت مقفَل. لا يعرف الجيران مكان ابن عم "سوميترا" وأسرته. حين عاد إلى المستشفى ليبلِّغها، كانت الساعة تقترب من الخامسة والربع، لكنها لم تكن موجودة.

أخبرته موظفة الاستقبال:

- حضر بعض أقارب الرجل المُسِنِّ وقالوا إنهم سيأخذونه إلى مستشفى خاص، ليستكمل علاجه هناك.

سألها "عارف" إن كانوا قد تركوا رسالة له، لكنها أجابته بالنفي. أحسَّ "عارف" بالإجهاد. لم يكن قد أكل شيئًا منذ الصباح. قرر العودة إلى البيت، متسائلًا: "كيف لسوميترا أن تختفي هكذا، دون أن تترك لي رسالة؟" أحسَّ بلوعةٍ غير مألوفة تعتصر قلبه. آلمته فكرة أنه لن يراها ثانيةً.

في تلك الليلة، نظم قصيدة سماها "سيدة جميلة ترتدي الأسود".

2

صباح يوم سبت، في عام 1992، أي بعد عامين تقريبًا على لقائه بـ"سوميترا". وقف "عارف" فوق سطح منزل عائلته، داخل ما يُعرَف بـ"مستعمرة الشرطة". استنشق الهواء باستمتاع. كان قد عانى من آثار زكام، استمرت لعدة أسابيع، وشعر أخيرًا بالشفاء التام. ضغط بسبابته على أحد منخريه، نافثًا بعض الهواء. لا مخاط. سَعَلَ ليجرِّب حال حنجرته. لا بلغم. أثبتت الأدوية التي كتبها الدكتور "جانجولي" نجاحها.

هناك أسباب أخرى لإحساس "عارف" بالسعادة. كانت نتائج امتحان الخدمة المدنية قد نُشِرَت ذلك الصباح، وكان اسمه ضمن الناجحين. ملأه شعور بالثقة من قدرته على اجتياز الاختبارات الأخرى المتبقية، ونجاحه في المقابلة الشخصية، كي يُعَيَّن مأمورًا للمقاطعة. قال لنفسه: "سوف يتحقَّق حلم أبي في رؤيتي في منصب المأمور عما قريب". تخيَّل صورته وهي تتصدَّر غلاف مجلة "كومبيتيشن سَكسِس ريفيو"، المعنية بالمعلومات ومنافسات الطلبة ونماذج الامتحانات. سوف يعلو الصورة عنوان "حوار خاص مع الناجح في المرتبة الأولى عارف خان". سيشعر أبواه بالفخر.

أول ما سيفعله فور أن يصبح مأمورًا هو تعيين خادمة مقيمة، لمعاونة أمِّه. لقد أمضت أمه كامل حياتها في رعاية العائلة، ومن حقِّها أن تستريح قليلًا. بعد ذلك، سيرتِّب مسألة حج الجدة، وسفرها إلى مكة. تساءل عن ردِّ فعل جدته حين يخبرها بأنها ستذهب للحج. بعدها، سيتفرغ للبحث عن أزواجٍ مناسبين لشقيقاته. مَن سيرفض مصاهرة مأمور المقاطعة؟ فكر بمحبةٍ وإعجاب: "كم هن لطيفات! تستحق كل واحدة منهن أفضل ما في الحياة، على الإطلاق". فكَّر أيضًا أن "نَزنين" هي الأكثر لطفًا ورقَّة بينهن. ما الذي سيفعله بعد ذلك؟ سوف يصر على أن يقدم والده طلبًا بالتقاعد المُبكِّر، يكفي ما يعانيه في ورديات الليل لساعاتٍ متأخرة. يجب أن يمضي بقية حياته في راحةٍ وسلام.

أمّا بالنسبة لشقيقه "ذاكر"، فسوف يقنع الأب بالسماح له بالعمل في مجال السينما. إذا احتاج أخوه المال، فسوف يمده به. على "ذاكر" أن ينال شهادته الجامعية بتفوق أولًا، ولذلك يجب أن يدرس ما لا يقل عن عشر ساعات يوميًا.

استغرق "عارف" في التخطيط للمستقبل، وقد عَلَتْ الابتسامة شفتيه. متى كانت آخر مرة شعر فيها بمثل هذه السعادة؟ حاول أن يتذكر، لكنه فشل.

في الحديقة الخلفية للمبنى، شاهد "عارف" سيدتين مُسِنتين تعبدان شجرة تين، من نوع "بيبال". وضعتا صبغة حمراء على جذعها، ثم قامتا بريِّها بالكثير من الماء. ضمَّت كل امرأة منهما يديها أمامها في خشوع. غمره إحساس بالارتياح والدفء وهو يراقبهما، يشبه الإحساس بأشعة الشمس في نهارٍ شتويٍّ بارد. حين انتهت صلاتهما، غادرت المرأتان على الفور. كان على وشك النزول للشقة، حين لمح امرأة أخرى تقترب من الشجرة. طويلة وبيضاء، وترتدي ساري أسود، وبلوزة دون أكمام، من اللون ذاته. ينسدل شعرها الحالك على ظهرها. كانت تحمل سلَّة صغيرة من الخيزران، تضع فيها مستلزمات العبادة. حين التفتت، عقب انتهاء صلاتها، رأى الوجه المستدير والعينين الواسعتين والشفتين الممتلئتين. "يا إلهي! سوميترا!". واصل التحديق بها إلى أن ابتعدتْ.

صاحت أمه من شرفة الطابق الأول:

- الإفطار جاهز يا ولدي!

تغيرت الأشياء من حوله، فجأة، وهو يهبط الدرج. صار النهار أكثر إشراقًا، وصار النسيم أكثر إنعاشًا وبهجة.

غمره شعورٌ هائلٌ بالسعادة والاستمتاع وهو يلتهم أرغفة "التشاباتي" مع قطع البطاطس المطبوخة في حليب جوز الهند، وكأنه يأكل من طعام الجَنة. حين فرغ من الإفطار، جلبت له جدته صحنًا من شرائح المانجو. من لونها الأصفر المميز، ورائحتها النفاذة، الخلابة، عرف أنها "جاردالو". أضاءت الابتسامة وجهه، وهو يستنشق رائحة فاكهته المفضلة. ابتسمت الجدة بدورها، وقالت وهي تجلس بجانبه:

- هذه الثمار من حديقتنا. أرسلها الجد "بادكي" من "جمالبورا".

أجابها "عارف":

- لا يوجد نوع مانجو في لذة وحلاوة "جاردالو".

مستمتعًا بمذاقها على لسانه، أغمض عينيه، متخيلًا نفسه وهو يقبِّل "سوميترا". قال لنفسه: "لا شك أن لقبلاتها طعم الجاردالو الناضجة".

فكر وهو يتجه إلى حجرته: "يا له من يوم! أولًا نتائج الامتحان، ثم سوميترا، لا غير!".

ظلّت كتب الامتحان القادم مفتوحةً أمامه، لكن تفكيره انحصر في "سوميترا" وحدها.

في تلك الليلة، حلم "عارف" بها.

في صباح اليوم التالي، استيقظ مبكرًا قبل حتى أن يرفع مؤذِّن المسجد القريب أذان الفجر. كان "ذاكر" يغط في نومٍ عميقٍ، بجواره. لم يبدأ بث الترانيم من ميكروفون معبد المستعمرة. الكلّ نيامٌ، عدا الأم، التي كانت تغسل الأطباق. عرف ذلك من الصوت الحاد الناجم عن احتكاك الأوعية

ببعضها. وعدا الجدة أيضًا، التي كانت تتلو القرآن، بصوتٍ خفيضٍ، هادئ، انساب في أرجاء المنزل.

حلق "عارف" ذقنه، وتحمَّم، قبل أن يصعد إلى السطح.

هناك، استند إلى السور، منتظرًا "سوميترا". انتظرها لساعتين كاملتين، لكنها لم تأتِ لعبادة شجرة البيبال. لم يأتِ أي شخص آخر، في الواقع. ارتفعت الشمس في السماء. نظر بحزنٍ للشجرة، ثم عاد إلى الشقة. صارت الساعة التاسعة، وبقيت الشجرة دون زوار.

مرت الأيام الأربعة التالية في قلقٍ وتوتر. لم تظهر "سوميترا" لدى الشجرة.

ظل يذكِّر نفسه: "لماذا أنتظرها؟ إنها متزوجة".

في وقتٍ لاحقٍ من الأسبوع، سأل صديقه "مريتونجاي"، وهو هندوسي من طائفة "الكانياكوبجا"، عن هذا الطقس الديني. أجابه:

- تُعبَد شجرة الـ"بيبال" في أيَّام السبت فقط.

أضاف:

- تُعرف هذه الشجرة في السنسكريتية بـ"آشفاتَّا". وفقًا للنصوص البراهمية القديمة، فإن "آشفاتَّا" و"بيبلا" كانا من الأرواح الشريرة التي تطارد الناس الأبرياء. يتخذ "آشفاتا" هيئة شجرة "بيبال"، فيما يتنكر "بيبلا" في هيئة رجل هندوسي من "البراهما". يطلب الأخير من الناس لمس الشجرة، وما إن يفعلوا ذلك، حتى يقتلهم "آشفاتا". في نهاية الأمر، قتلهما "شاني ديف"، إله يوم السبت. اعتبر الناس أن لمس الشجرة يوم السبت مسألة آمنة. بالإضافة لذلك، يعتقد الناس أن "لاكشمي"، إلهة الثراء، تقطن الشجرة يوم السبت.

فكَّر "عارف": "عليَّ إذًا أن أنتظر حتى السبت، لأرى "سوميترا" مرَّة أخرى".

في يوم الجمعة، ذهب "عارف" لزيارة "مريتونجاي"، الذي انتهى هو أيضًا من أداء الامتحان التمهيدي للخدمة المدنية. كانا يدرسان معًا، في كثيرٍ من الأحيان.

يُعتَبَر "مريتونجاي" قصيرًا وممتلئًا، مقارنةً بـ"عارف"، كما أن له شاربًا كثيفًا يشبه شارب الممثل "جاكي شروف". في حجرة "مريتونجاي"، التي تتجاوز مساحتها الـ14 مترًا مربعًا بقليل، هناك سرير خشبي، ودولاب ملابس معدني، بالإضافة إلى طاولة مكتب ومقعدين، ورف للكتب لونه برتقالي، معلق على الحائط.

قال "مريتونجاي"، ممسكًا بكتابٍ عن المفكرين الإداريين:

- ساعدني يا "عارف" في فهم نظرية "اتخاذ القرار" لـ"هيربرت سايمون" و"تشستر برنارد". إنها صعبةٌ بعض الشيء.

- حاضرٍ، بالطبع.

نادت أم "مريتونجاي" على ابنها من المطبخ. ألقى بالكتاب على سطح الطاولة وذهب إليها. وقف "عارف" ونظر من النافذة. لمح امرأة تنشر ملابس مغسولة، أعلى سطح البناية المجاورة. لم يصدِّق عينيه. كانت قريبة للغاية، حتى أنه رأى طرف أنفها بوضوح! خصلاتها الطويلة ملمومة بإهمال، في كعكة مرتخية. أحس "عارف" بالذهول لرؤية "سوميترا" من جديد، وبالصدمة لأنها جارة صديقه.

رأته "سوميترا"، ولاحظت نظراته المتفحصة، فمنحته ابتسامتها الساحرة، ذات الغمَّازتين. غمرت الدهشة "عارف"، لدرجةٍ أعجزته عن الابتسام. ثم اختفت. عاد "مريتونجاي"، حاملًا صينية من الشاي وطبقًا من قطع الـ"باكورا" بالخضروات التي يغطيها مسحوق المانجو الخضراء.

تساءل "عارف": "هل أخرج لألقي التحية على "سوميترا"؟ كلا. ثم ما سر هذا الافتتان بها؟ وإلى أين سيقودني؟".

أتته الإجابة، على الفور، من راديو أو تليفزيون، في مكانٍ قريب. حملت الريح لأذنيه كلمات الشاعر الغنائي "جُلزار":

هذا إحساسٌ تشعر به روحك
دع الحب يكون حبًّا
دون منحه اسمًا

3

في صباح يوم الإثنين، جلس "عارف" في حجرته، مستغرقًا في قراءة كتاب عن الصراع الهندي من أجل الحُرية، للمؤرِّخ "بيبين تشاندرا". دخل والده، مرتديًا زي مفتِّش الشُرطة، وقد أمال القبعة الخضراء فوق رأسه، جانبًا. جلس بجانبه على السرير، وربَّت على ظهره بحنان، قائلًا: - سعيدٌ يا ولدي باجتهادك استعدادًا للامتحان.

أردف باسمًا:

- سوف تنجح من أول مرة، إن شاء الله.

- إن شاء الله يا أبي.

- حسنًا، خذ هذا الشيك، واصرفه في بنك "إس بي آي"، فرع شارع "جادجز كورت". أرسله ابن العم "إحسان"، لتغطية نفقات علاج والده.

- حسنًا.

- هل تعرف مكان البنك بالضبط؟

- نعم يا أبي. بجوار محطَّة الباص في ميدان "غاندي".

- نعم. صحيح.

أزال الأب نظَّارته، ودعك عينيه، قبل أن يغادر الحجرة. نظر "عارف" إلى ساعة الحائط. لا تزال هناك ساعتان على موعد بدء العمل في البنوك. بإمكانه استغلالهما في قراءة "صعود الطائفية في الهند في القرن التاسع عشر". حين همَّ بالبدء في القراءة، دخلت جدته، تحمل في يدها سلطانية معدنية. سألته، بابتسامة: - ماذا يفعل حفيدي؟

- أدرس يا جدَّتي.

- ها هو طبقك المفضَّل من الحمُّص.

انحنتْ، ووضعت السلطانية على الطاولة. فرِح "عارف" وهو يتأمَّل حبَّات الحمُّص المقرمشة، المغطاة بالتوابل. وقف واحتضنها: - شكرًا جزيلًا يا جدتي.

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة بعشر دقائق حين وصل ميدان "غاندي". من بعيد، وقبل وصوله، لاحظ المظلات الملونة التي غطَّت الميدان، وآلاف الرجال والنساء الذين يجلسون تحتها، على الأرض، وهم يرددون: "يحيا الإله رام! تعيش فيديا ديفي!".

قاد دراجته بين الجموع المنتمية لحزب "بهاراتيا جاناتا". لم تصل "فيديا ديفي" للميدان بعد. رأى رجال الشُرطة في كل مكان. كان أحد قادتهم يطوف المكان، حاملًا جهاز لاسلكي. أحس "عارف" ببعض التوتر. كونه

مسلمًا يصعب عليه الارتياح أو الإحساس بالأمان وسط أعضاء هذا الحزب الهندوسي اليميني.

سمع صوت "فيديا ديفي" عبر الميكروفونات:

- إنهم يذبحون الأبقار، لأننا نقدسها، ونعتبرها أمهاتنا. يحاولون استفزاز الهندوس دائمًا. ألا تلاحظون ما يحدث عندما تفوز باكستان على الهند في أية مباراة رياضية؟ يطلقون الألعاب النارية. يحتفلون. يعيشون في الهند، لكنهم يغنون الأغاني الباكستانية. حين يحاول حزبنا التصدي لهؤلاء الخونة، يتهمنا أولئك المنتمون للبرلمان الهندي بالطائفية. البرلمان يحاول إرضاءهم، لدرجةٍ غير مقبولة. إذا كانت الهند دولة عِلمانية حقًّا، فلماذا لا نملك قانونًا مدنيًا موحدًا؟ إذا كانت الهند دولة عِلمانية حقًّا، فلماذا إذًا يحصلون على دعم حكومي لرحلات الحج؟ تحدث كل هذه الأمور لأننا، نحن الهندوس، نسينا ماضينا العريق، المُشَرِّف. آلاف السنين من العبودية جعلتنا جبناء. حين يقرر الهندوس الاستيقاظ من سُباتهم، سوف نعلِّم هؤلاء الخونة مكانتهم الحقيقية.

اشتهرت "فيديا ديفي" بخطاباتها المُحرِّضة للأحقاد والضغائن ضد المسلمين. شعر "عارف" بقشعريرةٍ، دفعته للابتعاد عن المكان سريعًا، وهو يتمتم: - يا بنت الحرام!

حين خرج من البنك، لم يذهب إلى البيت مباشرةً، وإنما عرج على صديقه "مريتونجاي"، ليأخذ منه أوراقًا مصورة حول موضوع الإدارة العامة لـ"فاجي راماراو". سعر الكتاب الأصلي 6200 روبية، أما النسخة المصورة فلا تتجاوز قيمتها 450 روبية.

رافقه "مريتونجاي" خارج الباب مودِّعًا. اقتربت منهما سيارة "بريميير بادميني" زرقاء، ونزل منها رجل أربعيني طويل، بشاربٍ رفيع. حيَّاه "مريتونجاي": - مرحبًا عمي.

التفت نحو "عارف":

- هذا "عارف" صديقي، وهذا عمي "راميش"، جارنا. إنه مدير في بنك "إس بي آي".

فكر "عارف": "لا بدَّ إذًا أنه زوج "سوميترا". من المستبعد أن يكون هناك مدير في البنك ذاته، يسكن المنطقة نفسها، مثل "سوميترا" وزوجها".

حيَّاه "عارف" بتهذيب. فردَّ "راميش كومار" التحيَّة: - ليباركك الإله "شيفا".

شعر "عارف" بمودةٍ تجاه الرجل. سأل الزائر "مريتونجاي": - هل والدك بالمنزل؟

- كلا يا عمي.

لوَّح الرجل مغادرًا:

- لا بأس، سآتيه لاحقًا.

بعد ساعات من وصوله البيت، أدرك "عارف" أن المبلغ المالي الذي استلمه في البنك ليس في جيبه. لم يعرف كيف فقده وأين. كل ما يتذكره هو أنه تناول المبلغ من موظف البنك، ووضعها في الجيب الأيسر لبنطاله.

إنه مال العم "إحسان". جاء الرجل العجوز من قريته البعيدة في "جمالبورا" للعلاج من قرحة المعدة. أوصى الطبيب بإجراء عملية جراحية له، تحددَ موعدها بعد يومين.

فتَّش "عارف" جيوبه، وبحث في غرفته وداخل حجرة المخزن التي يدرس فيها أحيانًا. لم يجد شيئًا. عشرة آلاف روبية ليس مبلغًا بسيطًا، حتى راتب والده الشهري أقل من ذلك. ما الذي يجنيه مفتش شُرطة نزيه، مثل الأب، يرفض تلقي أي رشوة؟ ما يكفي بالكاد لتدبير أمور الحياة. زميل والده، مستر "فيرما"، والذي يقطن في بنايةٍ قريبة، يعيش حياة رغدة.

تساءل "عارف" في حيرة: "كيف سيدبر أبي هذا المبلغ الكبير، في وقتٍ قصير، إذا فشلت في العثور عليه؟".

استغرب "مريتونجاي" عندما رأى "عارف" في منزله، ثانيةً. سأله: - هل نسيتَ شيئًا؟

- كلا يا أخي!

أضاف بصوت مختنق:

- لقد فقدتُ عشرة آلاف روبية.

ثم شرح له المسألة. لم يخشَ "عارف" تأنيب أبيه، أو ضربه مثلًا، إذ لم يسبق للأب أن ضرب أحدًا منهم، مطلقًا. كل ما يخشاه هو نظرات العجز والخوف في عيني أبيه، حين يصارحه بما حدث.

قال "مريتونجاي":

- عليك أن تخبر والدك بما حدث، على الفور.

سمع "عارف" صوت "سوميترا"، قادمًا من الغرفة المجاورة، وهي تتكلم مع والدة صديقه.

قرر "عارف" الاتصال بأبيه، بعد وصوله المنزل، ليقص عليه ما حدث؛ لكنه فوجئ بوجوده في البيت، في منتصف النهار. فكر: "حدث شيء ما، على الأغلب، وإلا ما كان سيعود في هذا التوقيت. ربما كان مريضًا". عادةً، يغادر الأب مكان عمله، بعد التاسعة مساءً. تمعن "عارف" في وجه أبيه. كان يشتعل غضبًا. ليس مريضًا. وقفت أمه صامتةً في ركنٍ من الغرفة، وهي تحمل كوب ماء. بدتْ متوترةً للغاية. وقف "ذاكر" أيضًا في الركن الآخَر.

قال الأب بغضب: - ذلك المنحرف القذر في المخابرات، يقول إنه لا يستطيع إعطائي الملف لاحتوائه على معلوماتٍ حسَّاسة عن نشاط المخابرات الباكستانية في "بيهار"، وأنا مسلم! هذه هي مكافأتي على ولائي وإخلاصي وأمانتي! ذلك الوضيع المدعو "تيواري"، المستعد لبيع أمه مقابل بضع روبيات، يُعتَبَر أهلًا للثقة في نظرهم، أكثر مني!

مدَّت الأم يدها بكوب الماء، وقالت:
- اشرب. أرجوك.
تناول رشفةً، ثم قذف بالكوب على الأرض، صائحًا: - ألا تعرفين كيف تغسلين الأكواب جيدًا؟
الأب أبيض البشرة، طويل القامة، بكتفين عريضتين، وعينين صغيرتين، وأنفٌ بارز. حين يفقد أعصابه، يقف مستقيم الجسد، دافعًا صدره للأمام، فيبدو أكثر طولًا وضخامةً. اتسع منخريه، وقطب جبهته. دخلت الجدة. كانت تغطي رأسها بطرف الساري الأبيض الذي تلبسه. لاح القلق في عينيها البُنيتين. دَنَتْ من الأب، ووضعت راحة يدها على رأسه، وقالت بهدوء: - عليك ألا تصب غضبك على زوجتك مهما كانت مشكلاتك في العمل. أوصانا النبي، صلى الله عليه وسلم، بالرفق بالنساء واحترامهن. "حميدة" المسكينة تقضي يومها بالكامل في خدمة الأسرة.
لم يقل الأب شيئًا، واكتفى بإغماض عينيه. واصلت الجدة مسح رأسه، محاولةً تهدئته. رنَّ الجرس. وقف "رام تشاندرا أوباديايا"، أحد كبار موظفي قسم المحاسبة في مركز الشرطة، بالباب. كان الصديق الناصح للأب، منذ التحاق الأخير بقسم الشرطة، قبل ٢٨ عامًا؛ ولأنه يعرف جميع أفراد الأسرة جيدًا، فقد سمح لنفسه بالدخول، على الفور. وقف الأب مُرحِّبًا. قال الضيف:
- "رشيد"، هيا لنذهب للمركز. أرسلني السيد "بيد" لإحضارك.
تحدث العم "رام" بقوةٍ تشي بسُلطته، وبكثيرٍ من المودة أيضًا. أردف قائلًا: - لقد أنب السيد "بيد" ضابط المخابرات.
يدرك "عارف" أن الأب وزملاؤه يشيرون إلى مدير الأمن بـ"السيد بيد". يدرك أيضًا أنه لا يرفض طلبًا للعم "رام"، أبدًا. بعد محاولات إقناع بسيطة، غادر الرجلان لمركز الشُرطة.
دخل "عارف" حجرته وقد تملكه القلق، محاولًا التفكير في طريقةٍ يخبر بها والده عن فقدانه للمال. يعرف أن الأب سوف يستدين المبلغ من أصدقائه، لكن سداده سيؤثر عليهم جميعًا، وعلى ميزانية الأسرة، المحسوبة بدقة، لأشهرٍ طويلة. سوف يضطرون لإلغاء الاشتراك في صحيفة "تايمز أوف إنديا" ومجلة "إنديا توداي"، وسوف يشترون نصف لتر من الحليب يوميًا، عوضًا عن لترٍ كامل. ستعتمد الأم على البطاطس في طبخاتها، أكثر من أي صنف آخر. لن يذوقوا السمك واللحم والدجاج، مطلقًا، لحين سداد الدَين.
أحس بغيظٍ شديد، كاد معه أن يصرخ. لاحظ "ذاكر" امتقاع وجهه، فسأله:
- ما الأمر يا أخي؟
قص عليه "عارف" الحكاية.
- ماذا؟ وهل أخبرت بابا؟
- كلا. سأخبره غدًا.

- حسنًا. لا تحزن. استرح الآن، ثم حاول البحث عن النقود، مرة أخرى. من جانبي، سأذهب الآن للسنترال، للاتصال بالبنك. سأسألهم إذا كنتَ نسيتَ المبلغ هناك. ابن عم صديقي يعمل في ذلك الفرع.

انطلق "ذاكر" من فوره. خلع "عارف" قميصه، واستلقى على السرير، مغمضًا عينيه. سمع صوت أمه ترحب بضيفة: - "ناماستيه" يا أختي.

بعد دقائق، سمعها تناديه. اعتادت أمه أن تنادي أولادها، لتقدمهم لضيوفها الجدد. كانت تخبر ضيفاتها: "هذا ابني الكبير، الذي يستعد لأداء امتحان الخدمة المدنية". في تلك اللحظات، كان الفخر يضفي ألقًا وبريقًا على وجهها الشاحب.

لم يكن في مزاجٍ للقاء أي شخص، ولذلك تظاهر بالنوم، لكنه قفز من فراشه، عندما سمع صوت خطوات غير مألوفة تقترب من بابه. ارتدى قميصه على عَجَل، وبدأ يزرره. فجأة، دخلت "سوميترا". ما الذي تفعله هنا؟ لو لم يكن حزينًا ومنزعجًا بشأن النقود الضائعة، لقفز قلبه فرحًا. قالت أمه وهي تتبعها: - هذه الخالة "سوميترا".

كانت تجهل أنهما يعرفان بعضهما، بالفعل. أشارتْ إلى أحد مقاعد الحجرة، وقالت قبل خروجها: - تفضلي بالجلوس، سيدة "سوميترا"، وتحدثي إلى "عارف".

مدتْ "سوميترا" يدها داخل حقيبتها الجلدية البُنية، وأخرجت منها المفكرة الزرقاء وديوان "مؤمن". قالت: - كتابك ومفكرتك. إنهما معي منذ اليوم الذي ساعدتني فيه على نقل أبي للمستشفى. وضعتهما داخل حقيبتي، ونسيتُ إعادتهما.

أضافت وهي تبتسم:

- هناك شيءٌ من أجلك داخل الكتاب.

تساءل في سِره، وقد سَرَتْ القشعريرة في جسده: "رسالة حُب؟". أحس بشيءٍ بين الصفحات. وزَّع نظراته القلقة بين باب الحجرة، والكتاب. وجد ظرفًا بُنيًا، فتحه بحذر، فتفاجأ بأوراقٍ ماليةٍ عديدةٍ داخله.

نظر إليها في دهشة. قالت:

- أعرفُ أنك فقدتَ مبلغًا ماليًا. سمعتُ حديثك لـ"مريتونجاي" في بيته. ولذلك فكرت..

صمتت للحظة، ثم أضافت:

- اعتبره دَينًا، ويمكنك سداده عندما يتم تعيينك مأمورًا.

تناول الظرف ومده تجاهها:

- شكرًا جزيلًا، ولكنني لا أستطيع قبول هذا المال. آسف.

اختفت ابتسامتها على الفور. قال لها معتذرًا:

- لا تشعري بالضيق. أرجوكِ. لم أقصد أن أجرحك.

- لا عليك. أتفهم حيرتك، ويعجبني احترامك لذاتك.

ابتسمتْ ثانيةً. تلك الابتسامة! وتلك الغمازات الرائعة! راودته رغبة مُلِحة في تقبيلها، لكنه قال لنفسه: "تذكر أنها متزوجة. فكِّر في سُمعة عائلتك. فكِّر في تبعات سعيك للحصول عليها". كره نفسه ومشاعره.

سألته "سوميترا":

- هل قلتَ شيئًا؟

أجاب بسرعة، ناظرًا إليها بطرف عينه:

- كلا.

من مسافةٍ قريبةٍ، تبدو "سوميترا" أكثر جمالًا مما كان يظن. استنشق "عارف" رائحة بودرة التلك المعطرة التي تضعها. الشفتان الممتلئتان، والصدر الوافر. "التوبة! التوبة يا الله. سامحني يا رب على نظراتي الآثِمة".

مدت "سوميترا" أصابعها، وتناولت شريط كاسيت يحمل اسم "أشهر أغاني ك. ل. سايجال - الجزء الأول"، من فوق الطاولة. قالت: - أحد أعظم المغنين الذي أنجبتهم الهند على الإطلاق. كان أبي أحد أكبر معجبيه، واعتاد أن يسمع أسطواناته على الجراموفون. لا أزال أتذكر أغانيه المفضلة. هذه الأيام لا أحد يستمع للسيد "سايجال". يقول زوجي إنه لا يفهم كيف يمكن للإنسان أن يستمتع بأغنية يؤديها مطرب أخنف!

ابتسم "عارف"، لكنه ظل متوترًا. كان لا يزال يفكر في النقود الضائعة. سألها: - كيف حال والدكِ الآن؟

- بخير. إنه في "كاتيهار" الآن. إنه مدين لك بحياته.

- الفضل لله وحده.

نظرت "سوميترا" لمضربي التِنِس المعلقين بشكلٍ متقاطعٍ، فوق الحائط. سألته بإعجاب: - هل تلعب التِنِس؟

- كنتُ ألعب، لكنني توقفت.

- زوجي يلعب التِنِس في نادي "نيو باتنا".

جعلته يتحدَّث عما يحب ويكره، وعن طموحه وأحلامه، وأصغت إليه باهتمام وانتباه. لاحظ "عارف" أن طريقة "سوميترا" في الكلام رائعة، وأن نطقها للكلمات الأُردية متقَن للغاية. رفعتْ صورة فوتوغرافية داخل إطار، من على الطاولة، وسألته: - من هذا الولد الوسيم؟

- أخي "ذاكر". يرغب في تجربة حظه في الأفلام.

- ما شاء الله!

كانت تتأمل صورة عائلية. الجدة والأم والأب يجلسون على مقاعد، بينما يقف الأبناء الخمسة وراءهم. قال "عارف": - أسرتي.

- لديك ثلاث شقيقات؟

- نعم.

- إنهن جميلات.

ابتسم "عارف". صمت الاثنان مع عودة الأم للحجرة. تبعتها أخته "رابية"، التي عادت من الكلية. جاءتا بثلاثة فناجين من الشاي، وطبق من حلوى السيمولينا، وآخر من البطاطس الشيبسي المنزلية.

قالت "سوميترا" وهي تغادر الحجرة، مع والدته:

- لا بد أنك مشغول. سأتركك لتدرس.

خلال الوقت القصير الذي أمضاه معها، نسي "عارف" مسألة النقود الضائعة، تمامًا، لكنه تذكرها الآن، وعادت لتضغط على أعصابه من جديد. تساءل عما إذا كان عليه قبول النقود التي قدمتها له. قال لنفسه: "كلا. مستحيل!".

أخيرًا، قرر أن يصارح أمه. نهض مفتشًا عن الشبشب. انحنى ليبحث عنه تحت السرير. لاحظ منديله الأبيض هناك. مَط جسده قليلًا، وتناوله بإصبعين. جَرهُ إليه، وانطلقت منه صيحة سعادة. الأوراق المالية ملفوفة بـ"أستِك" مطاطي، داخل المنديل الأبيض.

عاد "ذاكر" من السنترال. خلال دخوله البيت، سمع صيحة "عارف". جاءه راكضًا وهو يسأل بلهفة: - ما الذي حدث؟

لوح له "عارف" بأوراقٍ من فئة الـ٥٠٠ روبية. تهلل وجه "ذاكر"، واحتضن شقيقه الأكبر.

في تلك الليلة، أمسك "عارف" بديوان الشاعر "مؤمن"، متخيلًا لمسات "سوميترا" عليه. حين تصفحه، استغرب وجود اسمه مكتوبًا بالأُردية على الصفحة الثانية. لم يكن خطه، ولم يكن موجودًا من قبل. بدا من عمل خطاطٍ احترافي. تساءل إن كانت "سوميترا" تعرِف الأُردية. كيف يمكن يا ترى لامرأةٍ هندوسيةٍ، تنتمي لطائفة "ميثيل"، تعلُّم لغة باتت تُعرَف بـ"لغةٍ إسلامية"، وتُعامَل كوصمة؟

فتش الديوان بحثًا عن شيء آخر قد تكون كتبته على صفحاته. عثر على ورقة صغيرة مطوية كمربع. تسارعتْ دقات قلبه وهو يفتحها. رأى أبيات غزل بالأُردية: بدأ اليوم باشتياقٍ للمحةٍ من وجهك

لم تأتِ وحرمتني من حُسنك
قلبي يتألم في حيرة
ليس لروحي سلامٌ ولو للحظة
يقف الوقت ثابتًا
تتحول الدقائق لساعات
تفقد الأيام بريقها
ويهجر العبير الزهور
ربما أشبِع رغبتي قبل الموت
وربما يدفعني الشوق لوادي الموت
وراء السماء

وقّعتْ القصيدة باسمها. سبحان الله! "سوميترا" شاعرة! اختياراتها الدقيقة للكلمات، وتوظيفها للمجاز والاستعارة، وحرصها على القافية. كل ما في هذه القصيدة أَسَرَ مشاعره تمامًا. استغرق في قراءتها مرَّة تلو أخرى، إلى أن انتشله صوت أمه، وهي تناديه لتناول العشاء.

4

جلس "عارف" في الصف الثالث من مقاعد مسرح "رابيندرا بافان"، وهو يوزع نظراته في المكان بنفاد صبر. قبل دقائق معدودة، لمح "سوميترا" وهي تدخل القاعة من الباب القريب من مقعده، مرتديةً ساري من اللون الأزرق النيلي. فشل في العثور عليها وتحديد مكانها.

تساءل في حيرة: "هل رأيتها حقًّا، أم أن عقلي يعبث بي بخيالاتٍ وأوهامٍ؟". وقف والتفت إلى الوراء، ليرى القاعة بشكلٍ أفضل وأشمل، محاولًا التدقيق في وجوه الجالسين.

صاح أحد الجالسين في الصف الذي يلي مقعده:

- اجلس يا أخي! إنك تحجب الرؤية عنا.

اكتظت القاعة بالجمهور الذي حضر لمشاهدة النسخة الهندية من مسرحية "هاملت" لـ"شكسبير". يؤدي "ذاكر" دور أمير الدنمارك. كان هذا هو اليوم الثامن للعرض، ومع ذلك ازدحم المسرح بالمتفرجين، وهو حدث نادر بالنسبة للمسرحيات المقدمة في "باتنا"، ربما بسبب الإشادة العظيمة التي حظي بها العرض في مختلف صحف المدينة.

حين رُفِع الستار، ركز "عارف" انتباهه على المسرحية. ظهر شبح الملك على خشبة المسرح، وصاحبه إطلاق دخان مخيف من الأجهزة المخصصة لذلك، ثم ظهر "ذاكر" بإطلالةٍ مَلَكيةٍ قوية. صفق "عارف" بحماسٍ بالغ. نظر إليه الرجل الجالس على يساره بفتورٍ وملل. توقف عن التصفيق، شاعرًا بالحَرَج.

عقب العرض، اتجه "عارف" إلى غرفة ملابس الممثلين. حاول أحد أفراد الأمن منعه من الدخول، لكنه حين عرف أنه شقيق "ذاكر"، فتح له الباب.

وقف مخرج العرض "سانجاي أوباديايا"، وهو شاب ثلاثيني حليق، يهنئ "ذاكر". قال له: - أداؤكَ يتحسن كل ليلة. عليك أن تجرب حظك هذه السنة في المعهد الوطني للدراما. أنا متيقن من قبولهم لك.

شعر "عارف" بالفخر بأخيه. لقد منح الشخصية حياةً وألقًا. لا يقل في أدائه عن مشاهير الفنانين العِظام، من أمثال "ديليب كومار" و"أميتاب باتشان". تخيله الشاب الغاضب "فيجاي"، في فيلم "زَنجير"، وفي دور الأمير "سليم" في "مغول أعظم"، وفي شخصية "راج" في فيلم "قيامت سي.. قيامت تاك". اقترب منه واحتضنه قائلًا: - كنتَ مدهشًا! ستنجح نجاحًا باهرًا.

شكره "ذاكر" دون حماس. سأله "عارف" باهتمام: - ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

- لا تقلق. أنا بخير، لكنني لم أنم جيدًا لأربع ليالٍ متتالية. أشعر بالإرهاق.
- هل ستعود للبيت معي؟
- كلا. علي مناقشة بعض الأمور مع السيد "سانجاي". على كل حال، سأعود للبيت بسيارة الإنتاج.
- حسنًا، الساعة تقترب من العاشرة. علي أن أغادر الآن.
ألقى نظرة أخيرة قبيل مغادرته لمبنى المسرح، ولدهشته، وجدها على الفور. سار باتجاهها. حياها بصوتٍ مرتعش: - "ناماستيه"..
قالت:
- "ناماستيه".
لاحظ أنها لم تتفاجأ لوجوده. ربما لمحته داخل القاعة، دون أن يدري. سألها: - هل أتيتِ بمفردك؟
- نعم. هناك مباراة كريكيت الليلة، ولذلك فضل زوجي أن..
قبل أن تُكمِل عبارتها، توقف توكتوك أمامهما، مُصدرًا صريرًا عاليًا، فيما انبعث الدخان من محركه. في داخله، جلس راكبان. أحدهما رجل متوسط العمر، يلبس قميصًا طويلًا، كان منشغلًا في فَرك بعض التبغ بين أطراف أصابعه؛ أما الآخَر فشابٌّ في أوائل العشرينيات، يلبس "تيشيرت" بياقةٍ عالية. قال السائق: - أرجوكم، ليجلس أحدكم بجواري.
تمعَّن الشاب في "سوميترا" و"عارف"، قبل أن يغادر مكانه في مؤخرة التوكتوك، ليركب بجوار السائق. جلس "عارف" بجانب الرجل متوسط العُمر، وركبت "سوميترا" إلى جواره.
خلال الرحلة التي استغرقت نحو ٢٥ دقيقة، لم تقل "سوميترا" أي شيء. سرحت في أفكارها، وهي تفرقع مفاصل أصابعها، بينما جلس "عارف" متخشبًا، دون أدنى حركة.
في "نايا مور"، أصرَّ "عارف" على دفع الأجرة. سمحت له بذلك، بعد تردد. نظر إليها مبتسمًا، لكن ملامحها بقيت على جمودها.
كانت المحلات التجارية في "نايا مور" قد أغلقتْ أبوابها. ارتعش مصباحٌ وحيدٌ في عمود إنارة قريب، محاولًا البقاء على قيد الحياة. فتش "عارف" الطريق بنظراته، بحثًا عن دراجة "ريكاشة"، لكن الشارع كان مهجورًا. قال "عارف": - لا أظن أننا سنجد "ريكاشة" أو توكتوك في هذا الوقت.
- فعلًا.
قالت ذلك وهي تبدأ السير. سار "عارف" بجوارها، وسألها، محاولًا فتح حوار معها: - هل أعجبتكِ المسرحية؟
كان الصمتُ ثقيلًا. لم يقطعه سوى غناء صراصير الليل بين الحشائش البرية، على جانبي الطريق. كان "عارف" يدرك أن ليل "باتنا" غير آمن، ومليء بالمخاطر، وبخاصةٍ بالنسبة للنساء.
أجابت:

- المسرحية جيدة، وأداء "ذاكر" ممتاز.
- ما كان عليكِ أن تأتي بمفردك.
- الواقع أن الفتاة التي تلعب دور "أوفيليا" إحدى قريباتي، ولقد أصرتْ على حضوري.
أضافت:
- أردتُ أن يرافقني زوجي، لكنه لا يفوِّت مباراة كريكيت أبدًا.
أحس "عارف" بمرارةٍ في صوتها. تذكَّر لقاءه بزوجها. بدا لطيفًا. قرَّر تغيير الموضوع. سألها: - أين يدرس أولادك؟
- ابني "راهول" في مدرسة "سانت كارين"، في الصف الثالث. ابنتي في الصف العاشر، في "إنديرا غاندي باليكا فيديالايا"، في مدينة "هازاريباج".
- حسنًا. لقد قرأت قصيدة الغزل. إنها جميلة حقًّا. لغتكِ الأُردو جيدة جدًّا. كيف وأين تعلمتِ اللغة؟
- سوف أخبركَ بالقصة في يومٍ آخَر.
كانا قد وصلا لضريحٍ صوفيٍّ صغير، حين بدأتْ قطرات المطر في التساقط، وهبَّتْ ريحٌ باردة. غطَّت "سوميترا" كتفيها بالطرف العلوي للساري. انقطعت الكهرباء، وخيم الظلام على الشوارع. جلس شيخٌ مُسِن، بلحيةٍ بيضاء، وقميصٍ أخضرٍ طويل، في شرفة الضريح المقوسة، يدخن سيجارة. انعكس الضوء البرتقالي لقنديل كيروسين، على وجهه.
توقفت "سوميترا" أمام الضريح، وضمت يديها إلى بعضهما، في تحيةِ احترام. واصلا السَير، بضع خطوات، وفاجأهما المطر بهطولهِ بغزارة. فكر "عارف": "مطر غير متوقع في شهر أكتوبر. سينتهي الأمر بزكامٍ حاد، دون شك". نظر "عارف" حوله، بحثًا عن مكانٍ يلجآن إليه. جَفَلَ الاثنانِ عندما مر موتوسيكل بجوارهما. لمح "عارف" على ضوئه دكان مغلق الأبواب والنوافذ، لكن له مظلَّةُ مدخل. ركضا للوقوف تحتها، والاحتماء بها.
ارتطمتْ حبَّات المطر بالسطح المموَّج للسقف الصخري للدكَّان. لم يتمكنا من رؤية شيء على الطريق، لكنه بدا خاويًا من أي مخلوق. أشارت ساعة "عارف" إلى الحادية عشرة. لن يتمكنا من الخروج من تحت المظلة، في هذا المطر الغزير. رغم عدم قدرته على رؤية "سوميترا" بوضوح، فإنه استشعر قلقها وتوترها. ماذا لو رآهما أحد معًا، تحت المطر، في هذه الساعة المتأخرة؟
رغم خوفه من الفضيحة، شعر ببعض الإثارة. أراد أن يقول شيئًا، لكنه لم يكن متأكدًا إذا كان الزمان والمكان يسمحان بذلك. بقيا صامتين لبضع دقائق، إلى أن قال: - لماذا اختفيتِ من المستشفى دون أن تتركي لي أي خبر أو رسالة؟
- غير صحيح يا "عارف". تركتُ رسالةً لك، وكتبتُ لك فيها عنواني ورقم تليفوني. بعد أن ذهبتَ لإبلاغ ابن عمِّي، جاء ابن عمٍّ آخر لي للمستشفى.

كنتُ قد اتصلتُ بأمي لأخبرها بما حدث لأبي، واتصلتْ هي بدورها بابن عمي هذا. أصرَّ على نقل أبي لمستشفى خاص في "كانكارباج"، على الفور.

- هل يمكنني أن أسألكِ سؤالًا؟

مسحتْ وجهها بطرف الساري، وقالت:

- نعم، بالطبع.

وَمَضَ مصباحٌ كهربائيٌ بنورٍ هزيلٍ، فوق رأسيهما. تمكَّن "عارف" أخيرًا من رؤية وجهها. سألها: - بمَ أناديكِ؟ هل أستخدم لقب "خالة"؟

قالت بانزعاجٍ بالغ:

- كلا! كلا بكلِّ تأكيد! لستُ كبيرةً لهذا الحَد.

أردفتْ:

- يمكنك أن تناديني باسمي فقط. "سوميترا".

- حسنًا "سوميترا جي".

أضافَ "جي" لاسمها، مُظهرًا احترامه. حين نطق باسمها، أحس كما لو أنها قبَّلتْ رقبته. سَرَت قشعريرة قوية في جسده.

عاد المطر خفيفًا من جديد، وتباطأ هطوله. قالت: - لنواصل السَير. لا أعتقد أن المطر سيتوقف تمامًا.

في الشارع، مرَّ ثعبان قريبًا من أقدامهما. تراجع خطوة، وكان على وشك تحذير "سوميترا"، لكنها لاحظت الثعبان، في اللحظة ذاتها. أطلقتْ صرخة، والتفتت نحوه. تشبَّثت به، ولفَّت ذراعيها حوله. تفاجأ "عارف"، ولم يعرف كيف يتصرَّف لأول وهلة، ثم أحاطها بيديه مُطَمئنًا. استنشق عبير شَعرها بعُمق. اختفى الثعبان، لكن "سوميترا" ظلَّتْ متشبِّثةً به. أحسَّ "عارف" بنارٍ تسري داخله، وتنفَّس بصعوبةٍ شديدة. أراد أن يقف معها هكذا إلى الأبد.

بعد ثوانٍ أخرى، أفلتته "سوميترا" ببطء، متجنبةً النظر إليه. قالت أخيرًا: - آسفة.

واصلت السير، ولحق بها "عارف". بعد دقائق، بلغا شجرة البيبال التي تعبدها "سوميترا" أيَّام السبت. يتفرَّع طريق مغطى ببلاطٍ حجري، قريبًا من الشجرة، مؤديًا إلى "مستعمرة البنك". على الجانب الآخر، بوابة ضخمة مقوسة، لها لافتة حجرية، حُفِر عليها: "البوابة رقم ٢ - شرطة بيهار العسكرية - الكتيبة الخامسة - باتنا - 800014". أمام البوابة، وقف شرطي بقبعةٍ خضراء مستديرة، يعلوها ريشٌ أحمرٌ كبير. وراء البوابة، صفٌّ طويلٌ من البنايات ذات الطابقين.

قالت "سوميترا":

- اذهب للبيت. يمكنني مواصلة السير بمفردي من هنا.

- كلا "سوميترا جي"، لا يمكنني ترككِ تذهبين بمفردك في هذه الساعة.

- حسنًا. شكرًا.

سارا معًا في صمت. حين اقتربا من منزلها، قالت له: - تعالَ إلى بيتي في أحد الأيام. سنتشارك قصائدنا.

كان النور مُضاءً في شرفة بيتها، حيث وقف "راميش" في انتظارها. قالت: - إلى اللقاء.

- إلى اللقاء، "سوميترا جي".

وقف "عارف" بجوار شجرة "نيم" قريبة من منزلها، وتابعها. صعدت الدرج، ثم ظهرت في شرفة شقتها، في الطابق الأول من المبنى. تحدَّثتْ وزوجها لبضع دقائق، قبل أن يدخلا معًا. أطفِئتْ أضواء البيت.

استعاد الساعات الأخيرة التي أمضاها معها. هل سيغريها للدخول في علاقة آثمة معه؟ هل سيدمر حياة أسرة سعيدة؟ شعر بكراهيةٍ تجاه نفسه. انتابت جسده إثارة عظيمة حين احتضنته. لقد تمادى في مشاعره، أسرع مما يجب. إذا لم يتوقف الآن، ويضع حدًّا لمشاعره، فسوف يدمر نفسه للأبد. ماذا لو عرف والداه بهذه العلاقة؟ إنها هندوسية، وسوف يتسبب ذلك في إثارة أعمال شغب طائفية. ماذا لو عرف زوجها أصلًا؟ "سوف يقتلني دون شك".

وقف "عارف" أمام منزله، مغمض العينين، ومردِّدًا في سِره آيات من القرآن الكريم. قرَّر في لحظة أن يجزَّ هذا البرعم من جذوره، قبل أن يتحول لوردةٍ يانعة في أعماقه.

5

خلَّفتْ الريح آثارها على ضفَّة نهر "الجانج"، وانعكس ضوء القمر على سطح المياه. ترتدي "سوميترا" الأسود. أشارت نحوه، تستدعيه إليها، فانزلق طرف الساري عن رأسها، كاشفًا عن شعر برَّاق، كما لو كانت خصلاته من المعدن اللامع. سقطَ شيءٌ في الماء. انتزع "عارف" نظراته عن "سوميترا" بصعوبة، باحثًا عن مصدر الصوت. رأى "ذاكر" وهو يصارع الماء، كي لا يغرق. ركض باتجاه النهر، لكنه سمع "سوميترا" وهي تغني بصوتٍ حزين. لم يفهم الكلمات، لكن اللحن كان آسرًا. وقفتْ "سوميترا" أمامه. كانت الآن في فستان سهرة، يكشف عن ذراعيها وعن جزءٍ كبيرٍ من صدرها الممتلئ. تفتَّحتْ الرغبة داخله. صرخ أخوه، لكنه عجز عن الحركة. جَرَّ "سوميترا" إليه، وقبَّلها بنهم، تاركًا أخاه يموت.

استيقظ "عارف" مفزوعًا، وهو يردِّد:

- أستغفر الله. أسألك التوبة يا رب. أستغفر الله.

نهض جالسًا، وهو يشعر بالاضطراب. لامستْ قدماه الأرض، وشعر ببرودتها تنتشر فيهما. سمع أنفاس أخيه بجواره. ومع ذلك، ولكي يتأكد من وجود "ذاكر" حقًّا، أنارَ الضوء. كان نائمًا بعُمق، في السرير الذي يتشاركانه، وقد تدلت قدمه اليُسرى من فوق المرتبة. مالَ "عارف" قليلًا، ليعيد القدم فوق الفراش، ثم مرر أصابعه بين خصلات شَعر شقيقه، بمحبة. إلى جانب دورق الماء، فوق حافة النافذة، هناك نسخة ضخمة من رواية "آنا كارنينا"، طَبعة "بينجوين كلاسيك". تناول رشفة ماء من الدورق مباشرةً، ثم أمسك بالراوية، لكنه أعادها مكانها على الفور، دون أن يفتحها.

رجع إلى الفراش، في محاولةٍ منه لمعاودة النوم، لكن الاضطراب لم يفارقه. هل كان ذلك كابوسًا فقط، أم أنه أمر آخر؟ ألم تقل الجدة شيئًا عن أنواع الأحلام ذات مرة؟

كانت قد قالت:

- هناك ثلاثة أنواع من الأحلام. الأحلام المُقدسة أو "الرحمانية"، وتأتينا من الرحمن، لتمنحنا إطلالة على الأحداث المستقبلية. وهناك الأحلام الشيطانية، وتأتينا من "إبليس"، وهي أحلامٌ قذرةٌ وكوابيس. والنوع الأخير هو ما يُعرف بـ"الأحلام الذهنية"، وهي انعكاسٌ لما تفكر فيه بعُمق خلال ساعات اليوم.

تساءلَ "عارف" إن كان ما رآه للتو حلم شيطاني، أم لعله نذير من كارثة مستقبلية؟ ربما كان تحذيرًا إلهيًا للابتعاد عن "سوميترا". أغمض عينيه وردَّدَ آيات من سورة البقرة. استسلم للنوم، شيئًا فشيئًا.

في صباح اليوم التالي، استيقظ وقد تملّكه القلق. وقف أمام باب الحمَّام، منتظرًا دوره. فُتِح الباب أخيرًا، مُصدِرًا صريرًا عاليًا، وعبرتْ منه "رابية"، وهي تجفِّف شعرها الطويل بمنشفة. تساقط الماء من خصلاتها، مخلِّفًا بقعًا رطبة على قميصها الطويل. هَمَّ "عارف" بالدخول، حين أوقفه صوت "نَزنين":

- "عارف"، عليَّ أن أذهب إلى المدرسة أبكر من المعتاد اليوم. من فضلك، دعني أدخل الحمَّام قبلك.

قال بمودَّة:

- حسنًا. ناوليني فقط فرشاة الأسنان والمعجون من داخل الحمَّام. يمكنني الانتظار.

تنحَّى جانبًا، ليتيح لها المرور. دخل الشرفة الخلفية، وبدأ في تنظيف أسنانه هناك. لحقت "هوما" به. فتاةٌ طويلةٌ في الرابعة عشرة، لها ملامح أختيها، لكنها ليست في بياضهن.

- ما الأمر يا "هوما"؟

- ساعدني في حَل مسألة جبر.

- حسنًا. أريني المسألة.

كان "عارف" متفوقًا في الرياضيات، ولذلك حلَّ المسألة في خمس دقائق. ما إن غادرت "هوما" الشرفة، حتى عاودته تفاصيل كابوس الليلة الماضية. شعر برغبةٍ في التحدث مع جدته، فتوجَّه إلى حجرتها. كانت تتلو القرآن. تذكَّرَ أنها حذَّرته من قبل من مناقشة كوابيسه، خوفًا من أن تتحقق.

هل صار متشائمًا وخوَّافًا؟ هل كان ما رآه تحذيرًا إلهيًا من السعي للارتباط بـ"سوميترا"؟

إن مجرد التفكير في امرأة متزوجة مسألة غير أخلاقية. ينهى القرآن عن التفكير في خطيئة الزنا.

بعد أن اغتسل، جلس على مقعدٍ خشبيٍ في حجرته، وراح يفكر في "سوميترا" من جديد. تذكَّر حين رآها آخر مرة، والطريقة التي أزاحت بها خصلة طويلة من شعرها عن وجهها. "يا الله! ماذا أفعل وكيف أتصرف؟" تناول كتاب الإدارة العامة من فوق الـ"كومودينو".

حين دخل "ذاكر" الحجرة، عائدًا من تمشيته الصباحية في إستاد الشرطة القريب، بادره "عارف" بالقول:

- أريد أن أناقش معك شيئًا ما.

شعر "ذاكر" بالدهشة من الجدية التي تحدث بها "عارف". سأله:

- ما الأمر يا أخي؟

- لنصعد إلى السطح.

هناك، سارَ "عارف" لبعض الوقت، ثم جلس على حافَّة سور السطح. وقف "ذاكر" أمامه، منتظرًا. قال "عارف" أخيرًا:

- لستُ متأكدًا ما إذا كان من الصائب واللائق أن أصارحك بهذا الأمر، فأنت أخي الأصغر في نهاية الأمر.
قال ذلك، والتزم الصمت، متابعًا عصفورين يلهوان بصخب على أرضية السطح. قطع "ذاكر" شروده، مؤكدًا:
- لسنا أخوين فقط، بل إننا صديقان أيضًا.
ربت على كتف شقيقه الأكبر، مُطَمْئنًا. أضاف:
- يمكنك أن تطلعني على أسرارك.
- حسنًا، اسمع.. كيف سيكون رد فعلك إذا علمتَ أنني مُتَيَّم بامرأةٍ هندوسيةٍ متزوجة، ولديها أبناء؟
- ماذا؟
- نعم يا أخي.
- وما الذي أعجبك في امرأة كبيرة متزوجة؟
- لا أستطيع منع نفسي من الإعجاب بها. امرأة حسناء، وأنيقة ولبقة. كل ما فيها متميز: ثقتها بنفسها، ورصانتها، والطريقة التي تتحرَّك وتتصرف بها. كلامها وابتسامتها. لن يمكنني تحديد الشيء الذي يجذبني إليها. لم يسبق لي الشعور بهذه الأحاسيس.
- يا أخي العزيز، إن الطريق الذي تسير عليه خطير للغاية. امرأةٌ متزوجة! وهندوسية أيضًا! أرجو أن تكون مدركًا لعواقب الارتباط بسيدةٍ هندوسية.
- نعم. أنا أفهم ذلك، لكن قلبي هو الذي لا يفهم.
- فكر في بابا وماما. لو عرفا بهذه الحكاية، فسوف يموتان من فرط الشعور بالعار. فكر في الموضوع مرة أخرى. أنت وحدك الذي تستطيع وضع حد للمسألة.
ذُهِلَ "عارف" لهذا التفكير الناضج من قِبَل "ذاكر". كما لو أنه هو الأكبر سِنًّا، وليس العكس. قال له:
- أخبرني كيف أتصرف.
- لا مستقبل لك مع تلك السيدة. سوف ينتهي الأمر بتدميرك لحياتها، وحياتك أنت نفسك. انسَ تلك المرأة، ولا تحاول لقاءها ثانيةً. ابتعد عن "باتنا" لبضعة أشهر، إن أردت.
- معك كل الحق يا "ذاكر". سوف..
قبل أن يُكمل جُملته، ظهرت الأم وقد احتل الغضب ملامحها. قالت:
- ما هذه العادات الجديدة؟ هل ستتناولان إفطاركما وقت الغداء؟ لقد تجاوزت الساعة التاسعة. انزلا حالًا، وتناولا إفطاركما.
تبعاها في صمت. أمام باب الشقَّة، انحنى "عارف" ليتناول صحيفة "تايمز أوف إنديا". وقعت عيناه على التاريخ المطبوع أعلاها: الإثنين 31 أغسطس 1992. ذكَّرَ نفسه: "أقل من أربعين يومًا على بدء الامتحانات".

رَغْـبَـة

6

خلال شهر سبتمبر، حبس "عارف" نفسه داخل المخزن الصغير، الذي تحول لغرفة مذاكرة. أمضى معظم ساعات يومه في الدراسة، استعدادًا للامتحانات. في الشهر السابق، طلبت أمه من أبيه أن يشتري وعاءين ضخمين من المعدن، ملأتهما بالحبوب التي كانت في المخزن، ووضعتهما في الممر الذي يفصل الحجرات. قام الأبوان باستئجار عامل بناء، ليكسر جزءًا من الجدار، ويفتح مكانه نافذة، تطل على الفناء الخلفي. أصرت الأم أيضًا على دهان جدران المخزن، وإعادة طلاء الطاولة والمقعد داخلها. سمعها "عارف" وهي تقول لأبيه: - يحتاج ابني إلى الخصوصية، ليتمكن من الدراسة من أجل هذا الامتحان الصعب.

توقف عن زيارة "مريتونجاي" في منزله، خشيةَ أن يلتقي بـ"سوميترا". كان يدرك بأنه لو رآها، فإنه لن يستطيع الابتعاد عنها. كلما عاتبه صديقه على قلة زياراته، تحجج بسببٍ مختلفٍ كل مرة.

لكن "سوميترا" واصلَتْ الظهور في خياله. لم يفارقه المشهد الذي جمع بينهما في تلك الليلة الماطرة. كلما استحضر عناقها له، سرى الاضطراب في جسده. في بعض الأحيان، استدعى خياله "سِمران"، البنت التي أحبها في طفولته في "داربانجا"، وعندها يشعر بشيء من الحنين، لكنه يذكر نفسه بأنه سيتمكن من نسيان "سوميترا"، تمامًا كما نسي "سِمران".

وأخيرًا، حَلَّ شهر أكتوبر، وأحسَّ "عارف" بأنه أدَّى امتحاناته على نحوٍ متميزٍ للغاية، حتى أنه توقع استدعاءه لمقابلةٍ شخصيةٍ في أية لحظة. توجه إلى شارع "آشوك راجباث"، واشترى الكتب التي سيحتاجها للنجاح في المقابلة الشخصية، كما قام بإعداد قائمة مفصلة بمعلوماتٍ عن حياته الشخصية والعملية، والأمور التي سيُسأل عنها في اللقاء.

قال له الأب:

- انهار جزءٌ من بيت العائلة في "جمالبورا"، في الأمطار الأخيرة. يحتاج أحد الحوائط إلى ترميمٍ فوري. أريدك أن تذهب إلى هناك، لتشرف بنفسك على عملية البناء.

تحمس "عارف" للسفر في اللحظة نفسها. بهذه الطريقة، سيبتعد عن "سوميترا". أراد أن يجرب فرضية "ذاكر" بأنه سينساها حين يبتعد عنها لبعض الوقت. سيتيح له السفر القراءة والمذاكرة، استعدادًا لاختبار المقابلة الشخصية. بقيت خطوة واحدة صغيرة لتحقيق حلمه بأن يُعَيَّن في وظيفة مأمور. لا يمكنه أن يخيب أمله ورجاء أسرته.

قال الأب:

- صرتَ قريبًا من تحقيق هدفك يا "عارف". هناك، في "جمالبورا"، ستتمكن من الدراسة بهدوء، أما هنا، فالضيوف لا يتوقفون عن زيارتنا والإقامة لدينا، وتشتيت انتباهك وتركيزك.

أضاف، وهو يتنهَّد بعُمق:

- في بعض الأحيان، أشعر بالذنب لأنني لم أرسلك إلى مركز دروس خصوصية جيد يعدك لخوض الامتحانات، كما فعل والد "مريتونجاي".

- بابا، لا تقل ذلك. أنت أب رائع على الدوام.

عبرَ الباص جسر "غاندي سيتو"، فوق نهر "جانجا" العظيم، ودخل مدينة "هاجيبور". لَفَّ بالركَّاب، متَّجهًا إلى "مُظَفَّربور"، بسرعة. ليس هناك طريق بين مدينتيَّ "هاجيبور" و"مُظفَّربور"، وإنما مجرَّد شارع طويل من الحُفَر، والمطبَّات، وأجزاء مرصوفة بالحجارة. تقافز الباص، كما لو كان عربة أحصنة. سَبَّ راكبٌ مُسِنٌّ، يضع نظارة طبية، رئيس وزراء "بيهار"، "لالو براساد ياداف"، بسبب الوضع المُتردي للطرق والشوارع، وسخر من تصريح لـ"ياداف"، تعهَّد فيه بجعل طرقات "بيهار" في نعومة خَدي الممثلة "هيما ماليني".

تعمَّد السائق المرور عبر المزارع، التي كانت دروبها أكثر انسيابية من الطرقات الرئيسية. قفز الباص بطريقةٍ مفاجئة، حرَّكتْ الركَّاب من أماكنهم، وهو يتوقف أمام تحويلةٍ في الطريق، تمَّ إعدادها قريبًا، على عجالة، للسماح للمركبات المختلفة بالمرور، بعد انهيار الجسر الصغير، وحاجته للإصلاح.

علَّق راكب ممتلئ الجسم:

- يجتمع كل اللصوص والحرامية في المجلس والبرلمان، ولا يفكِّر أي منهم باحتياجات الناس ومصالحهم. كل ما يشغلهم هو كيفية ملء جيوبهم. أما مَن انتخبناه فإنه ليس أكثر من مهرج.

أجابه الشاب الجالس بجوار "عارف":

- وما الذي فعلته الحكومات السابقة من أجل إصلاح "بيهار"؟ لم يمضِ على وجود رئيس الوزراء الحالي في منصبه غير سنوات معدودة. ليس في وسعه حَل مشكلات النظام السابق خلال فترة وجيزة.

أضاف باستياء:

- المشكلة أن مَن نطلق عليهم "الطبقة العُليا" لا يستسيغون فكرة أن شخصًا يتبع طبقة الفلاحين يمكن أن يكون رئيس وزراء لـ"بيهار".

قال الرجل المُسِن:

- المسألة ليست مسألة طبقات على الإطلاق، بل مسألة إدارة وقدرة على التطوير.

استمرَّ الجدال بين الأطراف المختلفة، وتدخَّل فيه عدد آخر من الركَّاب. راقبَ "عارف" الحوار المحتد، ملتزمًا الصمت. ما إن أوشك الباص على دخول أطراف "مُظفَّربور"، حتى ضغط السائق بقوة على الِفرامل. جلس

المئات من الناس في عَرض الطريق، وسدوه تمامًا. صاح أحد الركاب: - أظن أنهم يعترضون على مقتل ذلك الصبي!

يعرف معظم الركاب الحكاية من الصحف المحلية. كان الولد، وهو تلميذ في الصف السابع، قد تعرَّض للاختطاف. طلب المختطفون من أبيه الثري فدية قيمتها ٢٠ ألف روبية، وحذَّروا الأب من إبلاغ الشُرطة، لكنه فعل. في اليوم التالي، عُثِر على الولد مذبوحًا في أطراف "مُظفَّربور".

مالَ جميع الركَّاب، وأطلوا من نوافذ الباص، محاولين رؤية ما يحدث. نزل بعضهم لتحريك ساقيه قليلًا. وقف باص آخر أمامهم، وتعالى صياح سائقه وهو يطلب من المتظاهرين إفساح الطريق للمرور.

فجأة، ارتفع صوت ارتطام شيء ما، وصوت تحطم زجاج. فكر "عارف" فيما ينبغي عليه فعله. قبل أن يتوصل لقرار، تهشَّمت الواجهة الزجاجية للباص الذي يركبه، وتدافع الركَّاب لأخذ حقائبهم ومتعلقاتهم ومغادرة الباص. تمكَّن "عارف" من حمل حقيبته والنزول سريعًا. اشتعلت النيران في الباص الذي يسبقهم، وتراكض الناس في مختلف الجهات. وقف "عارف" مذهولًا للحظة، لكنه حاول أن يفكر سريعًا، وابتعد راكضًا، مثل بقية الركاب. لم يعرف الوجهة التي يركضون إليها، لكنه رأى أن البقاء مع الجماعة هو الأكثر أمانًا. أخيرًا، توقفوا أمام كشك للشاي، على بُعد بضع مئات من الأمتار من مكان الحادث.

كان صاحب الكشك قد فكر في إغلاق أبوابه، لكنه لاحظ أن المتظاهرين ينوون تخريب الباصات، وأدرك أن الركاب سيلجؤون إليه، وأن بإمكانه كَسب بعض المال منهم. ليس هناك أي مبانٍ حولهم. حقول شاسعة، وباصات مشتعلة، وعدد كبير من المتظاهرين الغاضبين. راقب الركاب المشهد بصمتٍ وذعر، وهم على أهبة الاستعداد للهروب إن اقترب منهم أحد. تعالى دخانٌ أسودٌ كثيفٌ، وتطاير كالأشباح. لبضع دقائق، لم يقطع السكون سوى طقطقة النيران والصياح البعيد.

بعد أقل من خمس دقائق، عبرت بجوارهم سيارات الشُرطة. سأل أحدهم صاحب الكشك الشاب: - هل اتصلتَ بالشُرطة؟

- ليس لديَّ تليفون هنا يا أخي العزيز. لا أدري مَن الذي اتصل بهم، لكن من الجيد أنهم أتوا.

قال أحد الجالسين:

- لا بد أن رجال الشُرطة كانوا في طريقهم بالفعل لفضِّ المظاهرة، قبل بدء أعمال الشغب أساسًا.

كُسِر الصمت الذي كان يخيم على المكان، ومع وصول الشُرطة، بدأ البائع في توزيع أكواب الشاي، وقطع الكعك المصنوعة في دكانه. تناقش الركاب في كيفية الوصول إلى وجهاتهم. حذرهم البائع من أن الأخبار الواردة تفيد بأن المتظاهرين على طريق "موتيهاري - مُظفَّربور" يواصِلون ممارسة

التخريب، حتى أن عددًا من الباصات ألغت رحلاتها، فيما لجأ عدد آخر منها لتحويل مساراتها إلى "سيتامارهي". تعجَّب "عارف" من أن الباص الذي كان يركبه قطع كل هذه المسافة. تناقش الركَّاب مع بعضهم، ومع صاحب دكّان الشاي، في كيفية استكمال الرحلة.

اقترح الركَّاب على "عارف":

- بإمكانك الاتجاه إلى "سيتامارهي"، ومن هناك تركب قطارًا إلى "عنايت نجَر".

قال:

- نعم. أشكركم. فكرة جيدة.

نظر إلى ساعته. كانت قد تجاوزت الثانية عشرة بعشر دقائق.

في تمام الثانية، كان في "سيتامارهي". توجه إلى مطعم "بارجافا"، حيث تناول وجبة من العدس والأرز وصنفين من الخضروات المطبوخة بالتوابل الحارَّة. حين وصل إلى محطة السكك الحديدية، كان القطار يوشك على المغادرة، واضطر لأن يركض للحاق به.

بعد ساعتين، وصل قطار "داربانجا – عنايت نجر" إلى المحطة ذات الجدران الحجرية الحمراء. أشارت لافتة بيضاء كُتِب عليها بأحرفٍ سوداء بهت لونها: "عنايت نجر - شرق". على بُعد بضع مئات من الأمتار، يمكن رؤية منحنى نهر "باجماتي". فوق جسرٍ من الخيزران، قاد رجل دراجته الهوائية، باستمتاعٍ وبطء.

يحيط النهر بـ"عنايت نَجَر" من ثلاث جهات. إنها بلدة صغيرة يقطنها ثلاثة آلاف شخص. في المواسم المطيرة، ينقطع الاتصال تمامًا بينها وبقية أجزاء الهند، إذ ينهار جسر الخيزران. عقب كل فيضان، يتم بناؤه من جديد.

خارج مبنى المحطة، اصطفت العربات التي تجرها الأحصنة. تعالت أصوات أصحابها وهم يرددون أسماء القرى المتجهين إليها. اخترق "عارف" زحام المسافرين العائدين ومستقبليهم، وخرج إلى الطريق المواجه للمحطة، الذي تتجاور فيه دكاكين بيع الأطعمة الخفيفة والحلوى، مثل الأرز المقلي والزلابيا والـ"بالوشاهي". استدار يسارًا، وسار في درب ضيِّق، ينتهي بطريق واسعٍ أمام بُرج الساعة. دخل عيادةً كُتِبَ على لافتتها "السيِّد حكيم للطبِّ الشعبي". فقد اللون الأزرق للأحرف بريقه، أمَّا الخلفية البيضاء للافتة، فقد صار لها لون الطين. جلس خاله "حكيم أجمل خان"، الشقيق الوحيد لأمِّه، وحيدًا داخل عيادته.

إنه رجل قصير، نحيل، له لحية يختلط فيها الأسود والأبيض. امتلأت الخزانة المجاورة له بأكثر من عشرة برطمانات بلاستيكية. ميَّز "عارف" أحدها على الفور. برطمان أقراص الاستحلاب "سولين"، الذي كان يسرق منه في صغره الأقراص ذات الطعم الحلو والرائحة اللطيفة. وضع "عارف" حقيبته على الأرض، وقال وهو يحيِيه: - السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا ابن أختي.
وقف السيِّد "حكيم" ليعانق ابن أخته، وقد أضاءت الابتسامة وجهه، وقال:
- لنذهب إلى البيت. زوجتي تنتظرك.
- ولكن لماذا تغلق عيادتك مبكِّرًا يا خالي؟ ماذا عن المرضى؟
- أي مرضى يا حبيبي؟ يسارع الجميع هذه الأيام للأطباء الفعليين، العصريين.
سكت "حكيم" للحظة، ثم أضاف:
- ينبغي كذلك أن أحضر لاحقًا اجتماعًا لـ"مجلس عِمارة".
يعلم "عارف" أن خاله هو رئيس "مجلس عِمارة"، وهي منظمة اجتماعية، غير ربحية، تهدف لحلِّ مشكلات المجتمع المسلم للبلدة. لم يقل الاثنان شيئًا آخر، وسارا معًا، متجاورين.
في المساحة الواقعة أمام منزل السيد "حكيم"، انهمك ثلاثة أشخاص، يلبسون إزارات وقمصان بأكمام قصيرة، في ترتيب بعض المقاعد والأرائك الخشبية. سأل "عارف" عن سبب الاجتماع هذه المرة. أجابه شاب عشريني طويل: - ضُبِطَت امرأة مسلمة، متزوجة، متلبسةً بإقامة علاقة مع رجل هندوسي.
أقبل رجلٌ خمسينيٌ، ملتحٍ، وألقى التحية على السيِّد "حكيم". جلس الاثنان ليناقشا شيئًا. التفت "حكيم" إلى ابن أخته قائلًا: - ادخل البيت يا عزيزي. سلِّم على زوجة خالك، وتناول غداءك واسترح.
- حسنًا يا خالي.
في الداخل، استقبلته ابنة خاله "فارزانة"، مرتدية قميصًا طويلًا أزرق، وسروالًا من اللون ذاته. كانت الفتاة ذات الخامسة عشرة تغطي شعرها بوشاحٍ خفيف. جرَّتْ مقعدًا له، من داخل الشرفة، وقالت: - تفضَّل.
فتح "عارف" جيبًا جانبيًا في حقيبته، وأخرج منه عددًا من "بكيزة آنتشال". ناولها المجلَّة، فبدت في غاية السعادة، وقالت برقة: - أشكرك أخي الحبيب.
عادت بعد قليلٍ بكوبٍ من الماء، وبيضتين مسلوقتين لهما صفار داكن، رشَّت عليهما فلفلًا أسود خشنًا. بعد عشر دقائق، خرجت والدة "فارزانة" من إحدى الحجرات. أغرقته بدعواتها الكثيرة، ثم جلست بجانبه لتسأله عن بقية أفراد الأسرة في "باتنا".
بعد غداء لذيذ من الأرز ولحم الضأن المطهو مع الزبادي، خرج "عارف" من المنزل. كان الناس قد بدؤوا في التجمع.
بدأ الاجتماع عقب الانتهاء من صلاة العصر. استبدل السيد "حكيم" ثيابه. ارتدى قميصًا أسود طويلًا، يشبه المعطف، وبنطالًا يصل إلى كاحليه. جلس على كرسي خشبي، بمسندين محفورين بزخارف معقَّدة، وإلى جواره صديقه منذ أيَّام الطفولة "هاريهار براساد شريفاستافا"، وهو رجل نحيل،

طويل، له شارب كث. جلس على مقعد خشبي، مبطن بالوسائد، باعتباره ضيف شرف في المجلس.

وقف "عارف" تحت شجرة "نيم" في أحد أركان الساحة. وقف وراءه شاب قصير بلحيةٍ خفيفةٍ، من أقارب والدته، يُدعى "بلال". تضاعف عدد الحاضرين، خلال فترة قصيرة، واقترب من المئة. جاؤوا ليتابعوا الحدث.

فجأة، خرج جديٌ صغيرٌ من أسفل أحد المقاعد الكبيرة، ذات القوائم القصيرة، الذي جلس فوقه عدد من شُبَّان المجلس. ذُعِر الجدي حين رأى هذا العدد الكبير من الناس، وبدأ يركض هنا وهناك. سأل السيد "حكيم" بانزعاج: - جدي مَن هذا؟

ظهر ولد في نحو العاشرة، وقد لاح الخوف على ملامحه. صاح فيه أحدهم:

- أخرجه من هنا!

أمسك الولد بأذني الجدي، وجره بعيدًا، بينما أفسح الناس لهما مكانًا يتحرَّكان فيه.

تبرَّع "بلال" بإخبار "عارف" عن تفاصيل المسألة:

- "سانجاي كومار جوبتا" معلِّم في مدرسة البلدة الابتدائية. أقام علاقة عاطفية مع "عابِدة بيجَم"، زوجة "شيخ وارث". الواقع أن علاقتهما كانت حديث البلدة لبعض الوقت، لكنها المرَّة الأولى التي يراهما فيها أحد، في وضعٍ مُخِل، داخل حقل قصب سكر. قرر الكبار أن يحلوا المسألة، قبل أن تتحوَّل إلى مشكلة هندوسية – مسلمة.

فكر "عارف": "لماذا خانت زوجها يا ترى؟"، لكنه لم يسأل "بلال".

داخل شرفة أرضية قريبة، جلست "عابدة بيجم"، مع عدد آخر من النساء، وراء ستارة خفيفة. طير الهواء جانب الستارة، فلمح "عارف" وجه "عابدة" المستدير، وعينيها الواسعتين. لمح أيضًا سيدتين في منتصف العمر، تجلسان وراءها، تتهامسان وتكتمان ضحكات ساخرة.

سأل "عارف" نفسه: "هل تشعر سوميترا بالانجذاب نحوي؟".. لكنه لم يعرف الإجابة.

التفت "عارف" إلى يمينه، فرأى "سانجاي" واقفًا، بيدين مرتجفتين، وقد أطرق برأسه في صمت. وقف إلى جانبه رجل ستيني، يلبس إزارًا، وله بعض الشعيرات النابتة في ذقنه. بدا قلقًا للغاية. لا بد أنه والده.

لم يحضر "شيخ وارث"، زوج "عابدة"، الجلسة.

سأل أحد أعضاء المجلس "سانجاي" عما إذا كان لديه ما يقوله. وعوضًا عن الإجابة، انفجر في البكاء، دون أن يرفع رأسه. اهتز كتفاه. في لحظةٍ خاطفةٍ، خلع الأب نعله المطاطي، وراح يضربه به، وهو يصيح: - تكلم أيها الغبي، السافل. تكلم! لماذا سكتَّ الآن؟

تدخل "هاريهار براساد" قائلًا:

- "رام براساد"! توقف حالًا.

انتزع النعل من يده. هذه المرة، انفجر الأب في البكاء، قائلًا:
- لقد جلب هذا الفتى العار لعائلتنا. ليته لم يولَد.
وقف رجل طويل، بذقنٍ حليق، ووجهٍ شاحب، وقال بتهذيبٍ بالغ:
- السيدة المحترمة "عابدة بيجم"، هل لديكِ أقوال تتعلق بهذه المسألة؟
همس "بلال" لـ"عارف":
- هذا هو "سيد حافظ أحمد".
من خلال الستارة الخفيفة، رأى "عارف" "عابدة بيجم" وهي تقف. قالت:
- لم أرتكب خطأً. سوف يحاسبني الله وحده يوم القيامة.
علق السيد "حكيم":
- إذا كنتِ ترغبين في العَيش في مجتمعنا، فعليك اتباع الأعراف والتقاليد.
أردف قائلًا:
- يتعارض سلوكك مع ديننا وثقافتنا.
أجابت "عابدة بيجم" بحدةٍ بالغة:
- وأين كان مجتمعنا هذا عندما كان زوجي يرقد في المستشفى؟ وأين كان مجتمعنا هذا حين اضطررنا لتزويج ابنتنا من رجلٍ في ضعف عُمرها، لمجرد أنه تنازل عن طلب مهرٍ منا؟ عجزنا عن تزويجها من شابٍ صغير السِن، لأن الجميع يتمسك بطلب مهرٍ من أهل العروس. أليس المهر من العروس وأهلها شيئًا ضد الدين؟ ما أعرفه هو أن عددًا من أعضاء "مجلس عمارة" المحترمين يطلبون مهورًا من أهالي الفتيات عند تزويج أبنائهم. لماذا لا يحاسبهم أحد، أو يطلب منهم تفسيرًا؟ لا بأس.. دعوني أخبركم عن السيِّد "سانجاي". أنا أحترمه كثيرًا. لطالما ساعدنا كلما واجهتنا أية مشكلة. له في عنقي دَين، حاولتُ سداده، عبر معاملته بلطفٍ ومودة. هذا كل ما في الأمر.
انتفض رجل، بلحية داكنة السواد، وهتف قائلًا:
- اخرسي! أنتِ امرأة منحلة!
ظل جسده يرتجف من فرط الحنق والغيظ، وتطايرت لحيته الشعثاء في الهواء. همس "بلال": - السيِّد "محمد ناصر علي" سريع الغضب.
أسكتَ السيِّد "حكيم" "ناصر علي"، وسأل "عابدة بيجم":
- هل أتيتِ إلينا طالبةً المساعدة؟
- وهل تظن أنني كنتُ سأطوفُ البيوت لأتسول منكم؟
انتفض "ناصر علي"، من جديد، وصاح:
- اخرسي!
هذه المرة، صمتت "عابدة بيجم"، وغطت وجهها بطرف الساري الذي تلبسه. تهامس الناس في انزعاجٍ بالغ. فكر "عارف": "ما هذه المرأة الوقحة؟". لم تعجبه فكرة إهانة امرأة على الملأ هكذا؛ لكن طريقتها في الرد على أعضاء المجلس بهذه الجرأة لم تعجبه كذلك. قال لنفسه: "عليها أن تظهر شيئًا من الندم على أفعالها، على الأقل".

التفتَ السيد "حكيم" نحو "هاريهار باساد"، وقال له شيئًا، بصوتٍ هامس. سحب عدد من كبار أعضاء المجلس مقاعدهم، وانضمَّا لهما، ليشاركاهما المناقشة. قال "بلال" لـ"عارف": - الواقع أن "شيخ وارث" رجل مخصي، لأنه يعجز عن السيطرة على زوجته، ويعجز عن معاشرتها أيضًا، ولذلك قدَّمت جسدها لهذا الشاب الهندوسي.

نظر إليه "عارف" في دهشة، لكنه آثر الصمت.

أصدر أعضاء المجلس حُكمهم؛ على "سانجاي كومار جوبتا" أن يكفِّر عن خطيئته. طُلِب منه أن يبصق على نعله أولًا، ثم يقوم بلحسه ثانيًا، وأن يعلن صراحةً أنه لن يكرر هذا الخطأ. أما "عابدة" فقد تم تحذيرها من أنها إذا لم تُصلِح من شأنها وسلوكها، فإن المجلس سيتخذ قرارات صارمة حيالها.

بكى "سانجاي" بحُرقة، ثم انحنى ليبصق على نعليه المطَّاطيين القديمين، بلونيهما الأزرق والأبيض. سقطت بصقته الصغيرة على النعلين اللذين تآكلت مواضع ضغط القدمين عليهما. تقيأ، فور الانتهاء من لعقهما. داخل الشرفة، تململت "عابدة" في جلستها، بانزعاجٍ واضطراب.

أعلن "هاريهار براساد":

- يكفي هذا العقاب الآن.

أومأ الجالسون، في موافقةٍ جماعية.

أشفق "عارف" على الرجل. تخيَّل نفسه و"سوميترا" مكان "سانجاي" و"عابدة"، فارتعد. مسح حبَّات العَرَق عن جبينه.

في مساء اليوم ذاته، سأل "عارف" زوجة خاله إن كانت سترافقه إلى "جمالبورا". أجابته: - "فارزانة" هي التي ستذهب معك. تلح خالتها في رؤيتها منذ بضعة أشهر. لا يمكننا جميعًا السفر في الوقت ذاته. لقد وعدتها بإرسال "فارزانة" إليها.

زوجة خاله هي شقيقة زوجة عمه.

تقدر المسافة بين "عنايت نجر" و"جمالبورا" بعشرين كيلومترًا. الطريق مغطى ببلاطات حجرية غير ثابتة في بعض المواقع، لكن معظمه عبارة عن درب ترابي؛ وحتى هذا الدرب الترابي يتحول في بعض المواضع إلى بِركٍ طينية، يصب فيها الصرف الصحي من البيوت المجاورة، مباشرةً. تسافر سيارتا "چيب" بين "عنايت نجر" و"شمشاد نجر" مرَّتين يوميًا. المسافة من "شمشاد نجر" و"جمالبورا" لا تزيد عن خمسة كيلومترات. عادةً، يستكمل الناس المسافة المتبقية سيرًا على الأقدام، أو يركبون واحدة من العربات التي تجرها الثيران. في الجزء الأول من الرحلة، يتكدس الركاب في سيارة الـ"چيب" كما لو كانوا حِوالات قطن. يجلس أربعة ركَّاب، بدلًا من اثنين، في المقعد الأمامي. يجلس السائق على نصف مساحة مقعده، فيما يتدلى نصف جسده من باب السيارة. يقف ركاب آخرون خارج السيارة، في الخلف، وهم

يتأرجحون يمنةً ويسرةً، مع كل حركة، فيما يجلس بعضهم فوق السقف. يهتز جميع الركاب طوال الرحلة.

لتجنيب "عارف" و"فارزانة" عذابات هذه الرحلة، قام السيد "حكيم" باستئجار عربة ثيران من "عنايت نجر" إلى "جمالبورا". لكن "عارف" انزعج من فكرة ركوبه مع "فارزانة" في عربة ثيران بمفردهما، لأنه يشك في أن الحكاية بأكملها من تخطيط زوجة خاله للتقريب بينه وابنتها، لكي يتزوجها.

في صباح اليوم التالي، جلس "عارف" في الشرفة، يشرب كوبًا من الشاي. جلست زوجة الخال معه، وأفرطت في الحديث عن "فارزانة". قالت بفخر: - لقد أدت امتحانات "الفَوقانية" بامتياز.

فكَّر "عارف": "حتى الجماد يمكنه تأدية هذه الامتحانات البلهاء بنجاح!".

واصلت زوجة الخال حديثها:

- هل تعلم أنها خبيرة في الطهو والخياطة وشغل الإبرة والتطريز؟

يعلم "عارف" شيئين فقط. أولًا، أن علاقته بـ"سوميترا" لن تنتهي إلى شيء. ثانيًا، رغم وعد والده لخاله بأنه سيزوج ابنه من "فارزانة"، فإنه لن يتزوجها أبدًا. يتذكر "عارف" مشاهد باهتة من طفولته حين وُلِدت "فارزانة"، عندما أعلن أبوه، أمام جَمعٍ من الأقارب، أن المولودة ستكون زوجة ابنه الكبير، مستقبلًا. لم يفهم "عارف" حينها معنى الكلام، لكنه صفَّق بحماسٍ وسرور، غير مدرك لتبعات هذا الوعد. لكي يغير الموضوع، سأل زوجة خاله: - خالتي، متى ستصل عربة الثيران؟

- لقد وصلت بالفعل. إنها أمام البوابة. الحوذي يركب غطاءها الآن.

من العيب أن تركب النساء عربات الثيران المكشوفة. يجب تغطيتها أولًا، بمظلةٍ من القماش. شعر "عارف" بالامتنان، لأن المظلة ستحميهما من أشعة الشمس.

في مؤخرة العربة، وُضِعَت سلة من الخيزران، تضم حلوى وأطعمة خفيفة، بالإضافة إلى حقيبتيَّ سفر، لملابس "عارف" و"فارزانة" ومتعلقاتهما الشخصية. جلست "فارزانة" داخل العربة، المحاطة بقماشٍ سميكٍ من ثلاث جهات، وبقماشٍ خفيف من الأمام، أقرب للستارة. رُبِط القماش الخفيف بشريط، للسماح بمرور الهواء للراكبَين. جلس "عارف" بنصف جسده داخل المظلة، فيما عرض النصف الآخر للشمس والهواء في الخارج.

جلس الحوذي على مقعده، في الجانب الخارجي الأمامي من العربة. دلى ساقيه، وأمسك الرسن بيديه. اسمه "يعقوب علي". رجلٌ نحيلٌ بلحيةٍ خفيفة. إنه من الحي نفسه الذي يقطنه السيد "حكيم".

انطلقت العربة في تمام العاشرة صباحًا. عند الظهيرة، وصلوا إلى قرية "بانتشكوروا". اليومُ حار بالنسبة لهذا الوقت من العام في شهر نوفمبر. أسندتْ "فارزانة" رأسها إلى جانب المظلة، واستسلمت للنعاس، والعرق

يتصبب منها. بسبب حرارة الشمس العالية، اضطر "عارف" لدخول المظلة. راوده شعورٌ غريبٌ لوجوده في مساحةٍ ضيقةٍ واحدةٍ مع "فارزانة" بمفردهما. للفتاة بشرة بيضاء، وملامح متناسقة وتبدو أكبر من عُمرها. تتجاوز خصلاتها الناعمة أسفل خصرها. لا توجد أي آثار لمساحيق التجميل على وجهها، ومع ذلك يفيض بالجاذبية. تساءل "عارف"، للحظة، إن كان عليه قبول المسألة، لكن هذا الخاطر اختفى في التو.

تذكر "فارزانة" عندما كانت طفلة في الخامسة، وهي تتشبث به ليشتري لها الشوكولاتة. ثم كيف يمكن لزوجة مأمور شاب أن تكون فتاة قروية نصف متعلمة؟ ولكن مَن سيتزوج في نهاية الأمر؟

على مشارف "بانتشكوروا"، توقف "يعقوب" بعربته، أسفل شجرة "نيم"، واقترح أن يتناولوا الغداء. على مسافةٍ قريبةٍ، بضع دكاكين متجاورة، تبيع الشاي والسمبوسة والحبوب والخضروات، والاحتياجات اليومية. سأل "عارف" ابنة خاله: - ماذا أحضرتِ للغداء؟

أجابت "فارزانة" بصوتٍ ناعم:

- خبز الـ"باراتا"، وبطاطس مقلية، وبعض الـ"كولما" المشوية.

أخرجت ثلاث علب من عمود الطعام. أحس "عارف" بشيء من الاشمئزاز لفكرة تناول لحم العجل المجفف. يتم تجفيف الـ"كولما" تحت أشعة الشمس، لستة أشهر، عقب تتبيلها بالكثير من البهارات. في بيت أسرته في "باتنا"، لا يتناولون الـ"كولما" أبدًا. منع الأب تقديمها، قبل ولادة "عارف" بعام. حينها، قال لزوجته: - يزورنا الكثير من الأصدقاء الهندوس في بيتنا، وليس من اللائق عدم احترام مبادئهم. على كل حال، يمكننا دومًا تناول لحم الضأن والدجاج.

ناولته "فارزانة" طبقًا من الطعام، ليعطيه لـ"يعقوب". انتابه غثيانٌ شديدٌ من رائحة الـ"كولما" المشوية. بصق على الأرض، ثم التفت نحو "فارزانة" قائلًا: - سأتناول البطاطس فقط، من فضلك. أنا لا آكل الـ"كولما".

لاكَ "يعقوب" الخبز والـ"كولما" باستمتاع. عقب الغداء، اقترح أن يتناولوا الشاي من كشكٍ قريب. لم يكن "عارف" يرغب في شُرب الشاي، لكنه أدرك أن "يعقوب" بحاجةٍ لكوبٍ منه. ناوله خمس روبيات، وطلب منه شراء ثلاثة أكواب.

ارتشف "يعقوب" الشاي، وقال:

- هل تعلم يا أخ "عارف" ما هذه القرية؟ إنها قريةٌ لطبقةِ "بوهيمار" الهندوسية. ينتمي جميعهم لحزب "بهاراتيا جانا سانج"، ولهم عقلية واحدة. ليس في القرية سوى ثلاث أسَر مسلمة. في الشهر الماضي، تم إحراق منزل رجل مسلم مسكين، لأنه كان يحمل كيسًا من لحم البقر. ضربه شُبان القرية ضربًا مبرحًا. أغضب ذلك مسلمو القرى المجاورة، وتوقع الجميع

حدوث صدامات وأعمال شغب. أخيرًا، تدخلت الشرطة، وألقت القبض على الجناة.

سأله "عارف":

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- أطلقت الشرطة سراحهم، لعدم كفاية الأدلة، وبدلًا من معاقبتهم، وجهتْ تحذيرًا لمسلمي المنطقة بالامتناع عن أكل لحم العجل، وذبح الأبقار. قالوا إن ذلك ضد قوانين البلد.

أضاف "يعقوب" بضيق:

- أي قانون هذا الذي يمنع الناس من تناول الطعام؟

انهمك الثوران، المربوطان إلى شجرة "النيم"، في تناول ورق الخيزران الأخضر والقَش الجاف. حَلَّ "يعقوب" وثاقهما، ثم ربطهما إلى خشبة النيم وثبَّتها على رقبتيهما. جلس على مقعده، ثم نكزهما بخيزرانته. قبل أن تنطلق العربة، سمعوا جلبة عالية. ترددت في الجوِّ ترنيمات متكررة. ردَّد الناس: "جاي شري رام". لاحظ "عارف" امتقاع وجه "يعقوب"، والذعر في عينيه. سحب "يعقوب" اللجام بسرعةٍ وقوةٍ، ليوقف الثورين.

أمسك رجلٌ ممتلئٌ، أسمر، له شارب بطرفين حادين، راية مثلثة، صفراء، مثبتة على عمود من الخيزران، وتقدَّم ثمانين شخصًا. واصلوا نداءهم للإله "رام"، بأصواتٍ ملتاعةٍ ومتضرعة. لحُسن الحظ، لم تلفت العربة انتباههم.

بعد مرور الموكب، سأل "عارف" الحوذي:

- ماذا كان ذلك يا "يعقوب"؟

- أخبرتك منذ قليل أن سكان القرية ينتمون لحزب "بهاراتيا جانا سانج". والآن يسعى "سوريش سانج"، وهو مهرب سابق، وعضو في "بهاراتيا جاناتا"، وعضو أيضًا في المجلس التشريعي، إلى تطبيق برنامج يُدعى "برابات بيري"، بهدف تقسيم الهندوس إلى فريقين متعارضين. تلك الراية التي يحملونها تسمى "راية الإله راما".

أومأ "عارف"، قائلًا:

- آه، حسنًا.

- في "عنايت نجر"، حاول عدد من الشُبَّان الهندوس تنظيم مسيرات مشابهة. كادت تحدث بعض الاضطرابات، لكن "هاريهارجي"، وهو الهندوسي العاقل الوحيد في "عنايت نجر"، سارع بالتدخل، ولم يحدث شيء...

واصل "يعقوب" الشرح والثرثرة، لكن "عارف" استسلم للشرود، شاعرًا بالنعاس، عقب تناول غدائه.

حين وصلوا "شامشاد نجر"، رآهم ثلاثة فتية يلعبون "جِلي داندا"، في وسط الطريق، بعصوين مختلفتيَّ الطول. أوقفوا اللعب، وتنحوا جانبًا. صاح واحد منهم، لرفيقه: - "ذو الفقَّار"، انظر! إنهما عروسان!

أشار إلى "عارف"، ضاحكًا:

- يجلس العريس في مقدمة العربة.
سار الفتية وراء العربة، يزفون راكبيها بأغنية: "داخل الهودج الأحمر، عروسٌ حلوة وبريئة. هذه العروس حبيبة زوجها". شعر "عارف" بالارتباك. نظر بطرف عينه إلى "فارزانة"، فرأى وجهها وهو يستحيل إلى اللون الأحمر. وبخ "يعقوب" الفتية: - ابتعدوا من هنا يا شياطين!
لكن الأولاد واصلوا السير وراء العربة، حتى آخر القرية.
تذكر "عارف" طفولته في "جمالبورا"، وابتسم. اعتاد هو و"ذاكر" وأصدقاؤهما ملاحقة العربات التي تحمل العرائس، وهم يرددون الأغنية ذاتها.
إلى الشرق، شَمَخَتْ منارات المسجد الجامع لـ"جمالبورا"، وتداخلتْ مع قباب ضريح "حضرة بابا بير جمال الدين خان" رحمة الله عليه، وهو ما يعني اقترابهما من وجهتهما. توقفت دراجة بجوار العربة. بادر "عارف" بتحية راكبها: - السلام عليكم.
ثم قفز من داخل العربة لتحية عمه، الشقيق الأكبر لوالده. تابعت العربة سيرها، وراء الدراجة، إلى أن وصلت وجهتها. بعد قيلولة، وكوب من الشاي، في منزل العم، غادر "يعقوب"، ليقطع الطريق الطويل عائدًا إلى "عنايت نجر".
مساءً، جلس "عارف" لتناول العشاء مع عمه، وابن عمه "منير". جلسوا على منصةٍ خشبيةٍ في ساحة البيت المستطيلة، تحيط بهم أواني تخزين الحبوب الضخمة، المصنوعة من مزيج القَش والطين. في جانبٍ من الساحة، هناك مضخة ماء يدوية، من الحديد أخضر اللون.
قال العم:
- أخبرني أخي أنك لا تأكل "المغول العظيم"!
اعتاد "بادكي بابا" الإشارة إلى لحم العجل بهذه التسمية العجيبة. أضاف:
- لذلك تعيَّن عليَّ قطع مسافة كبيرة إلى "شامشاد نجر"، لأشتري لحم الضأن. في قريتنا الفقيرة، لا يملك الكثيرون ثمن لحم الضأن.
رغم أن والد "عارف" هو الأصغر، فإن شقيقه الأكبر، العم "عبد الوحيد خان"، يحمل له قدرًا هائلًا من الاحترام، لإصراره على استكمال تعليمه، رغم قسوة الظروف، ونجاحه في الالتحاق بوظيفةٍ تابعةٍ للشُرطة.
مدَّ "عارف" يده للطعام، وسأل عمَّه عن ابنتيه:
- كيف حال أخواتي "عظمتي" و"رحمتي"؟
- "عظمتي" في "دلهي". يُدير زوجها ورشة لإصلاح آلات الخراطة؛ أما "رحمتي" ففي "كاتماندو". فتح زوجها مخبزًا هناك، لكنه يواجه بعض المشكلات مع النيباليين. إنهم لا يرحبون بوجود الهنود، ويرون أنه لا يحق لنا العَيش هناك.

انتهى العم من عشائه. تجشأ ثم شرب بعض الماء. وقفت زوجة عمة "صالحة بيجم"، على مقربةٍ منهم، وحرصت على تغطية شعرها بطرف الساري، وسألت "عارف": - هل أعجبك الطعام يا ولدي؟

- إنه لذيذ يا خالة.

تبسمت، وبدأت في رفع الصحون. قال "عارف" لابن عمه:

- "منير"، لنتمشى قليلًا.

ربت "منير" على بطنه، في رضا، وأجاب:

- هيا بنا.

سار الاثنان على الطريق المؤدي لأطراف القرية. نشر البدر ضياؤه في كل مكان. سأل "عارف" عن صديق طفولته: - ما أخبار "صدقات"؟

- بائسٌ كما هو! سمعتُ أنه على علاقة بفتاةٍ من طبقة الـ"تشمار" الدُنيا.

- غير معقول!

- زوَّجوها في العاشرة، وترمَّلت بعد ذلك بعامين. اسمها "تشاميلي". إنها عشيقته الآن. الأمر الجيِّد الوحيد، في المسألة بأكملها، هو أن وجودها في حياته جعله يتوقَّف عن شرب نبيذ النخيل.

- خبرٌ جيدٌ فعلًا.

- كما تورط في مشكلةٍ مع كبار القرية، مؤخرًا، عقب زعمهم أنه كتب مُلصقًا.

- أيُّ مُلصَق؟

- في صباح يوم جمعة من الشهر الماضي، رأى الناس مُلصَقًا مثبتًا على جدار البيت القديم المواجه للمسجد الجامع. كُتِبَ عليه بالأُردية: "هاشم خان" - خبير المغازلة

"صغير خان" - الزاني مع ابنته

"رئيس خان" - خبير السَب والقذف والافتراء

"سَرتَج خان" - القواد

"شيخ رحمت" - المثير للمتاعب

وأضاف "منير":

- ثم في السطر الأخير من المُلصَق: "كَتَبَهُ صدقات علي خان".

استطرد قائلًا:

- جميعهم أشخاص من ذوي المكانة العالية في القرية. عُقِد اجتماع أمام المسجد لمناقشة المسألة. لكن "صدقات" أنكر الحكاية بأكملها، وسألهم: "وهل تظنون أنني سأوقِّع باسمي على مثل هذا الكلام إن كنتُ قد كتبته فعلًا؟ هل أنا غبي؟". لم يقتنعوا بإجابته، وطلبوا منه كتابة الكلام الموجود في المُلصَق بالضبط. نفَّذ ذلك بالفعل. كان الخطَّان مختلفين تمام الاختلاف، واضطروا لتبرئته.

- حسنًا..

علّق "منير" ضاحكًا:
- الواقع أن معظم ما كُتِب حقيقي تمامًا.
كانا قد قطعا نحو ربع ميل خارج القرية، عندما سمعا صوت أذان العشاء، عبر مكبرات صوت المسجد. التفتَ "منير" نحو ابن عمه وقال: - "عارف"، عليَّ أن أذهب للصلاة.
- حسنًا يا أخي.
سار "منير" بخطى سريعة في اتجاه المسجد، وتبعه "عارف" متمهلًا. لمح "صدقات" يقترب نحوه، من الجهة الأخرى. بعد تبادل التحية، قرر تغيير مساره، ومرافقة صديقه القديم.
حمل "صدقات" قنديل كيروسين بيد، وإبريق ماء باليد الأخرى. خمن "عارف" أنه ذاهبٌ للحقول. إن "الذهاب للحقول" في هذه القرية يعني التغوط.
سأله "عارف" عن حكاية المُلصَق. ضحك "صدقات" من قلبه، وقال:
- لا تخبر أحدًا، ولكنني أنا مَن وضعتُ المُلصَق على جدار ذلك المنزل. جعلتُ صديقًا لي، في قريةٍ أخرى، يكتبه بالنيابة عني.
قال "عارف"، قاصدًا إغاظته:
- سمعتُ أنك مُغرَم بإحدى فتيات القرية؟
احمرَّ وجه "صدقات"، وقال:
- كيف عرفت؟
ضحك "عارف" وأجابه:
- هذا سِحر!
- "عارف"، أنت أخ وصديق قديم، لن أخبِّئ شيئًا عنك. اسمها "تشاميلي". إنها هندوسية. ليس ذلك فحسب، بل من طبقة المنبوذين. "تشامار"، تحديدًا. لن توافق عائلتي على هذا الارتباط مطلقًا. لكن هذا لا يهمني. لن أتزوج غيرها.
- هذا جيد.
قال "صدقات" ضاحكًا:
- فليكن! أخبرني عن نفسك. لديك حبيبة في "باتنا" بالتأكيد؟
للحظة، رغب "عارف" في البوح، ومصارحته بافتتانه بـ"سوميترا"، لكنه تراجع عن ذلك، على الفور، وقال: - كلا يا أخي، لستُ محظوظًا مثلك.
- لا أصدقك! كيف يمكن لشخصٍ طويلٍ ووسيمٍ مثلك ألا يسحر الفتيات؟ وكما أسمع، فإن الشابات في "باتنا" متحررات.
كانا قد وصلا إلى الجسر الصغير الذي يعلو قناة "كاربوري تاكُر". رغم أنها حُفِرَت في السبعينيات، فإنها لا تزال تخلو من قطرة ماء واحدة.
بدأ "صدقات" في النزول نحو القناة، والاتجاه إلى ما يُعرَف بـ"بستان الأشباح"، الأرض المتاخمة لساحة حرق الموتى الهندوس. قبل أعوام

طويلة، ذكرتْ الجدة أن الشبح المُسَمَّى "راكاش"، الذي له مئة عين في جسمه، شوهد في هذا المكان، وأن هذا هو سبب إطلاق الاسم على هذه الأرض. قال "صدقات": - سأعود بعد عشر دقائق.

تساءل "عارف" إن كان ينبغي عليه، وهو الشخص المتعلم، تصديق حكايات جدته عن الأشباح؟

عقب دقيقتين، شاهد "عارف" خيالًا أنثويًا، مُظلِمًا، تحت ضوء البدر الساطع، متجهًا نحو البستان، قادمًا من الجهة الأخرى. أدرك أنها "تشاميلي".

راقبها وقد استبد به الفضول. دون تفكير، هبط القناة، وسار نحو بستان الأشباح، بين الأعشاب والنباتات البرية. اقشعر جسده، عندما تذكر أن الثعابين وغيرها، تعيش بين هذه النباتات. أحنى ظهره وهو يمر تحت شجرة "ليتشي" قصيرة، ثم وصل إلى بقعة يمكنه منها رؤية "صدقات" داخل البستان. زَرَّ عينيه، عله يتمكن من رؤيةٍ أكثر وضوحًا. على ضوء قنديل "صدقات"، لمحه جالسًا و"تشاميلي" مستلقيةً على ساقيه. تسللتْ يدا "صدقات" داخل قميص "تشاميلي"، لكنها ضربتهما، وقالت: - ليس قبل أن نتزوج.

سمع حوارهما بوضوح في هدأة الليل. قبَّل "صدقات" خدَّي الفتاة وشفتيها. مدَّ أصابعه أسفل قميصها، من جديد، لكنها لم تقاومه هذه المرَّة. دفعها إلى الأرض، ثم اعتلاها. تخيَّل "عارف" نفسه مع "سوميترا"، داخل بستانٍ لأشجار المانجو.

صاحت "تشاميلي" فجأة:

- كلَّا! "صدقات"!

دفعته بعيدًا عنها. انطلقت منه ضحكات مرحة. انتبه "عارف" من شروده، وندم على خيالاته الشهوانية عن "سوميترا". ذكر نفسه بأن ما يفعله "صدقات" الآن مع "تشاميلي" هو في الواقع خطيئة كبرى، وكذلك أفكاره عن "سوميترا".

- "تشاميلي"، عليَّ أن أترككِ مبكرًا الليلة. "عارف" صديقي ينتظرني على الجسر.

- لا بأس، ولكن متى سنذهب إلى "كاتماندو"؟

أجابها "صدقات"، وهو يهم بالوقوف:

- قريبًا جدًا.

سارع "عارف" بالعودة إلى الجسر.

ينامُ الناس في "جمالبورا" في ساعةٍ مبكرة، حتى في شهر نوفمبر، حين يميل الجو للبرودة، وتصير السماء صافية. عندها تكون القرية بأكملها في نومٍ عميق، بحلول الثامنة والنصف مساءً. لكن "عارف" بقي مستيقظًا. ساد الهدوء، ولم يقطعه غير أصوات صراصير الليل، القادمة من الحقول القريبة.

يرتفع بين الحين والآخر عواء ابن آوى. اعتاد "عارف" النوم متأخرًا، ففي "مستعمرة الشُرطة"، لا أحد ينام قبل الحادية عشرة. شرد تفكيره في "سوميترا" من جديد. تساءل عمَّا إذا كان بإمكانه نسيانها وإزاحتها من أفكاره في يومٍ من الأيام؟

الحجرة في "جمالبورا" فسيحة جدًّا. تصل مساحتها لثلاثة أضعاف حجرات شقة "باتنا". يشغل ربع مساحتها سرير بأعمدة، على طراز الستينيات، من خشب "التيك" المحفور بنقوش معقدة متداخلة. كان هدية زفاف أمه من والدها. رغم مرور أعوام طويلة، لا يزال يحتفظ بمتانته. في الحجرة أيضًا طاولة مكتب، ومقعد من خشب "السرسوع"، وخزانة ذات أرفف. تطل نافذتا الغرفة على مسجد البلدة الرئيسي.

عندما استمر النوم في مجافاته، قرر البحث عن شيء يقرؤه. فتح الخزانة، فوجد نسخًا قديمةً، مهترئةً، من كتبٍ تراثيةٍ، مثل "حمزة نامة" و"طلسم هوشربا" و"ألف ليلة وليلة". رأى عددًا من دفاتر مذكراته أسفل كتبه المدرسية القديمة. استلقى على الفراش، وبدأ في قراءة المذكرات التي كتبها وقتها عن "سِمران". لا يزال يتذكر اليوم الذي شاهد فيه "سِمران" بمنتهى الوضوح، وبكافة تفاصيله. كان ذلك منذ عشرة أعوام تقريبًا.

31 أكتوبر 1984

في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم، جاء مستر "ميشرا" - وهو أحد زملاء أبي - إلى منزلنا، راكضًا، وقد بدا مضطربًا ومنزعجًا. قال بصوت مختنق: - لقد رحلت المرأة الحديدية، يا سيد "خان".

شحب وجه أبي، وهرع لإحضار الراديو. أكدت نشرة الأخبار في محطة "أول إنديا راديو" نبأ وفاة السيدة "إنديرا غاندي".

مساءً، ظهرت تفاصيل الخبر، وهي أن الحارسين الشخصيين لرئيسة الوزراء، المنتميين للسيخ، هما مَن قاما باغتيالها. سرعان ما انتشرت شائعات قوية مفادها أن السيخ يوزعون الحلوى داخل معابدهم. سمعتُ أحدًا يقول إن اغتيالها انتقام مما فعلته في "عملية النجم الأزرق".

بالنسبة لي، لم تختلف وفاة رئيسة الوزراء في شيء عن الأخبار التي نقرأها عادةً في الصحف، من نوعية وفاة شخصين في حادث مروري، أو انقلاب زورق في نهر "سون" واعتبار ركابه الثلاثة في عداد المفقودين. لا أفهم حزن أبي الشديد على إنسانة ليست من أقربائنا، ولا نعرفها بشكلٍ شخصي.

1 نوفمبر 1984

عدتُ و"ذاكر" من الملعب مساءً. كنتُ سعيدًا لأن الكهرباء لم تنقطع اليوم، كما يحدث عادةً. كانت "نَزنين" و"رابية" على الأرض، تلعبان "اللودو"، بينما جلستِ "هوما" الحبوبة على الكرسي، وقد ارتسم الحزن

على وجهها. حين سألتها ما بها، أجابت أن "نَزنين" و"رابية" ترفضان أن تشاركهما اللعب لأنها صغيرة جدًّا. أردتُ أن أمارس دوري كأخٍ أكبر. بغضبٍ مصطنع، قلتُ للبنتين: - كيف تجرآن على منع أختي الحلوة من اللعب؟ اطلبا منها أن تشاركككما اللعبة.

اضطرت البنتان لدعوتها للعب. شعرتُ بمحبةٍ عظيمةٍ تجاه البنات الثلاثة. قالت "رابية" محذرة: - إياكِ والبكاء إذا خسرتِ!

كانت جدتي تستلقي على السرير المصنوع من الخشب وسعف النخيل المغزول، مستغرقةً في قراءة المجلة الأردية "الهُدى الإسلامي"، وقد انزلقت نظارتها إلى طرف أنفها. فور رؤيتي، سألتني: - هل يرغب حفيدي في أكل شيء؟

عانقتها وأجبتُ بالنفي. قالت، وهي تطبع قبلة على جبيني:

- هل أعد لك البطاطس التي تحبها؟ أو بعض الحلوى ربما؟

قال "ذاكر" محتجًّا:

- هذا ظلم يا جدتي! أنت تحتفظين بالحب كله لأخي فقط!

ابتسمت جدتي وقالت:

- لكن هذا غير صحيح! أخبرني ما تريد.

هتف "ذاكر" على الفور:

- حلوى!

دخلتُ لأستبدل ثيابي. لبستُ إزارًا وقميصًا طويلًا، وخرجتُ إلى الشرفة ومعي جريدة اليوم. احتلت صورة كبيرة لرئيسة الوزراء الراحلة الصفحة الأولى.

سمعتُ أبي يقول:

- تفضل سيدي، تفضل.

كانت سيارة "چيب" قد توقفت أمام بيتنا، ونزل منها "ساردار سوارن سينج" مع زوجته. دخلا إلى حجرة النوم الرئيسية، التي نستخدمها كغرفة معيشة أيضًا. كان "سوارن سينج" نائب قائد الشُرطة العسكرية في "بيهار"، ورئيس أبي في العمل. ظهرت الجدية والتوتر على ملامحه.

رافقتهما أسرة من أب، في منتصف العُمر، يضع عمامة من اللون البُني الغامق، وأم ممتلئة ترتدي ساري بلون أحمر داكن، وابنة تلبس طقمًا تقليديًا من فستانٍ قصيرٍ وسروال، لونهما أخضر. تغطي جبينها خصلات ناعمة قصيرة، مثل النجمة "سادا". عندما رأيتُ الفتاة، انحبستْ أنفاسي، للحظة. لم أكن قد رأيتُ بنتًا بهذه الحلاوة من قبل. كانت جميلة حقًّا.

قال السيد "سوارن سينج"، مُعَرِّفًا بمرافقيه:

- "خان"، هذا هو الدكتور "بالويندَر سينج"، وزوجته وابنتهما "سِمران". حضرة الدكتور ابن عم زوجتي.

"سِمران".. "سِمران".. "سِمران". أسَرَتني الفتاة تمامًا، لكنني مع ذلك انتبهتُ للحوار الدائر، لمعرفة سبب وجود هذه الجميلة في بيتي. استطرد السيد "سوارن سينج": - يسكن الدكتور في "كاتالباري"، حيث تعرضت بعض متاجر السيخ للنهب والتخريب، ولذلك لجأ إلينا، للإقامة في منزلنا لبعض الوقت؛ لكن عددًا من رجال الشُرطة، عشرة أو خمسة عشر تقريبًا، تجمعوا أمام المنزل مرددين شعارات ضد السيخ. خافت زوجتي، ورأتْ أن إقامتهم في بيت ضابط مسلم أكثر أمانًا.

أجاب أبي:

- هذا تفكير سليم. بقاء حضرة الدكتور معنا تصرف صائب.

تدخلت السيدة "سينج" في الحوار، وقالت لأبي:

- من فضلك يا أخي، لا تخبر أحدًا أننا هنا.

لم تستطع إيقاف الرجفة في يديها. أشفقتُ عليها. قال أبي:

- لا تقلقي يا سيدتي. لن يحدث شيء داخل "مستعمرة الشرطة".

تناول الراديو من فوق الطاولة، محاولًا ضبطه على أي من المحطات الإخبارية. انبعث صوتٌ من الراديو، قائلًا: "تتواصل أعمال الشغب ضد السيخ، في دلهي".

وقفتُ في الممر خارج الغرفة، أتلصص على وجه "سِمران"، بين الحين والآخر. بدت متوترة وجميلة.

في التاسعة والنصف ليلًا، انقطعت الكهرباء. حل الظلام الدامس على الغرفة. سمعنا صوت طلقات رصاص من مسافةٍ بعيدة. ماذا لو قرر هندوس المنطقة مهاجمة "سِمران" وعائلتي؟ أحسستُ بالرعب. تذكرتُ ما حدث في "عنايت نَجَر" قبل خمس سنوات. حينها، حدثت بعض المناوشات بين الهندوس والمسلمين، حول تنظيم مهرجان الآلهة "دورجا" السنوي. انتشرت شائعاتٌ مفادها أن الهندوس سيهاجمون المناطق السكنية المسلمة، في تلك الليلة. لا أزال أشعر بذلك الخوف.

جاءت ماما إلى الحجرة، ومعها قنديل كيروسين، وضعته على المقعد الخشبي. في اللحظة نفسها، دقَّ أحدهم الباب. انتفضتُ في خوف، ونظرتُ إلى أبي. بدا متوترًا، بدوره. تشبَّثتْ "سِمران" بأمها بقوة، وانفجرتْ في البكاء. تسارعتْ نبضات قلبي. كنتُ متيقنًا من أنهم الجيران الهندوس، وأنهم أتوا إلينا بعد أن علموا بأمر ضيوفنا.

قبل مغادرته للحجرة، أشار بابا للجميع بأن يلتزموا الصمت. تبعته تلقائيًا. حمل القنديل في يده اليسرى، وسار بخطواتٍ محسوبة، متمهلة. وقف وراء الباب، مُصغيًا بانتباه، محاولًا الاستماع للأصوات في الخارج. فتحه أخيرًا. وقف شابٌّ حليق بالباب، ومعه شخص آخر، يبدو أنه حارسه الشخصي، يحمل مدفعًا رشَّاشًا. بادره أبي بالتحية: - النصر للهند.

- النصر للهند، "خان". أين السيد "سينج"؟ جئتُ لأصطحبه وعائلته معي. وصلتُ للتو من "مُظَفَّربور"، وعلمتُ بما حدث عصر اليوم. سوف أتخذ إجراءات بالغة الصرامة ضد رجال الشُرطة المتورطين في ذلك.

أدخله أبي، وحارسه، إلى الحجرة، وقال:

- السيد "سينج"، هذا هو رئيس الشرطة العسكرية لـ"بيهار"، السيد "رانبير سينج". جاء لاصطحابكم.

لم تبقَ "سِمران" في بيتنا سوى لساعاتٍ معدودة، لكن حضورها رافقني طويلًا عقب مغادرتها. حلمتُ بـ"سِمران". في ذلك الصباح، شعرتُ بالإلهام. قرَّرتُ إهداء قصيدتي الأولى لها (انظر الصفحة الأخيرة من دفتر المذكرات).

في العام الذي تلا ذلك اليوم، بدأ "عارف" بملاحقة "سِمران". صار يجلس بالساعات في دكان الشاي القريب من بيتها، بهدف أن يلمحها. كما بدأ يقف أمام سور مدرستها، ويتردد على المعبد الذي تذهب إليه كل يوم أحد. ملأ دفتر مذكراته بقصائد عنها.

رغم الهوس الذي شعر به تجاهها، فإنه فشل في استجماع شجاعته كي يتحدث إليها. حتى بعد مرور ثلاث سنوات كاملة، لم يستطع أن يسلم عليها ولو بكلمةٍ واحدة. في إحدى المرات، قرر أن يكتب لها رسالة، لكنه عجز في اللحظة الأخيرة عن مناولتها إياها.

بعد ذلك، نُقِل والده إلى "باتنا"، وسافروا جميعًا على الفور.

بعد وصوله "باتنا"، بقي "عارف" أسيرًا لاشتياقٍ دائمٍ وعجيبٍ لـ"سِمران"، لأشهرٍ طوال. كتب مئات القصائد الغزلية، واستمع إلى أغانٍ حزينةٍ للمُطرِبَين "موكِش" و"محمد رفيع".

في أحد الأيام، بعد ستة أشهر، رأى صورةً لفتت نظره في أحدث أعداد مجلة "سبورت ستار"، في كشكٍ للصحف. داخل العدد، وعلى امتداد الصفحتين المتقابلتين في منتصف المجلة، صورة كبيرة للاعبة "شتيفي جراف"، في زيٍّ رياضيٍّ أبيض، تحمل كأس "ويمبلدون". بدت رائعة ومذهلة. كانت أجمل لاعبة تنس رآها على الإطلاق.

وقع "عارف"، على الفور، في غرام الآنسة الألمانية، التي زحزحت "سِمران" عن عرش أحلام اليقظة.

كان ولعه بـ"شتيفي" هو الذي جعله يتعرف على لعبة التنس. أراد تجربة الرياضة التي تمارسها. استعار بعض الكتب الخاصة باللعبة، من مكتبة "سِنها" العامة، لكي يفهم قواعدها. تابع مبارياتها على التليفزيون، بانتظام، ليُلِم بتقنياتها. قرر أن يتعلمها.

ولأنه في السابعة عشرة، كان قد تجاوز السِن الذي يمكنه من اللعب باحترافٍ ودخول مسابقات تنافسية حقيقية. كان يدرك ذلك، لكن التفاؤل والأمل جعلاه يتخيل نفسه "بوريس بيكر" و"ستيفان إيدبيري". في بعض

الأحيان، تخيل نفسه يحقق الفوز في منافسة تنس زوجي مع "شتيفي جراف" في "ويمبلدون"، وأنه يحتضنها ويقبِّلها عقب انتهاء المباراة. بلغ الهوس بها أن أرسل إليها خطابًا على عنوانها في "مانهايم - بادن فورتمبيرج" بألمانيا، طالبًا منها أن تكون صديقته بالمراسلة.

بطبيعة الحال، لم يكن لدى "عارف" أي مال ليشتري مضرب تنس. ذهب إلى متجر "تشابرا سبورتس" في "فريزر رود"، ومحلات "كوهلي سبورتس"، قريبًا من قسم شرطة "بيكرجانج" للسؤال عن مضارب التنس. وجد أن النوعية الجيدة منها يتجاوز سِعرها الألف روبية. حتى المضارب المصنوعة محليًا، في "جالاندهار"، من نوعية "كاي كاي" مثلًا، كانت غالية، وفي حدود 300 روبية؛ رغم أنها مصنوعة من المعدن، وأقربُ في شكلها إلى مطرقة!

عاد إلى البيت مُحبَطًا. لم يجرؤ على طلب نقود من أبيه لشراء مضرب. كان يدرك أنهم سيتعاملون مع طلبه باعتباره مصروفات لا طائل من ورائها.

لكن الحظَّ كان حليفه. جاء رئيسٌ جديدٌ لوحدة الشُرطة العسكرية لـ"بيهار"، وكان مولعًا باللعبة. من الأمور التي حرص عليها تجديد الملعب الرياضي القديم، المغطى بالطين الأحمر. قام أيضًا بإحضار مدرب تنس لأطفال "مستعمرة الشرطة". تمَّ تعيين "تشاندرا بوشان"، أحد أكبر لاعبي "بيهار"، لأداء هذه المهمة. أقنعت الأم الأب بشراء مضربين لـ"عارف" و"ذاكر". نجح "عارف" في تعلم المبادئ الأساسية للعبة، التي صارت هوسًا شغله تمامًا عن التفكير في "سِمران".

واصلتْ "شتيفي" الظهور في أحلامه. في بعض الأحيان، تكون في ساري من قماش الشيفون الخفيف، وفي أحيانٍ أخرى تلبس ثوبًا قصيرًا بكُمَّين طويلين وسروالًا من اللون الوردي. اشترى صورة كبيرة لها، من مكتبة "بوك أن آمي" في "بورينج رود"، بسعرٍ مرتفع. خمسةٍ وعشرين روبية. في كل كتبه ودفاتره، صار يكتب "ع. خ. + ش. ج.".

بعد تدريباتٍ جادَّة، استمرَّت لثلاث سنوات، نجح "عارف" في الانضمام لفريق "بيهار" للناشئين. في ذلك العام، أي في 1989، أقيمت مباريات نوادي الناشئين في الدولة في "باتنا". أحس بالحماس عندما سمع بعض الأسماء المشاركة، مثل "ليندر بايس" و"جوراف ناتيكار" و"آشيف إسماعيل"، وغيرهم.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها "عارف" نادي "نيو باتنا"، بملاعبه الستة ذات اللون الأخضر. عم التوتر الشديد الجو. رأى "ليندر بايس" يتحدث مع رئيس اتحاد التنس في "بيهار". لمح أيضًا خمس فتيات، في ملابس رياضية ملونة. تسرب إليه إحساس بالقلق، وهو يتجه إلى الملعب رقم 4 في الجهة الشرقية من النادي. تسارعتْ دقات قلبه، وظهر العرق على جبينه.

كانت مباراته الأولى مع لاعب محلي، يُدعى "جاجات شريفاستافا". بدا أنه أصغر من "عارف" بنحو عامين. كما كان أقصر منه وأكثر امتلاءً.

نظر "عارف" إلى منافسه، وإلى اللاعبين من حولهما. ارتدى الجميع ملابس من ماركات شهيرة، وحملوا مضارب غالية الثمن، بمن فيهم اللاعبين المحليين من "بيهار". نظر "عارف" إلى مضربه الخشبي، ماركة "سيموندز"، وحذائه الرخيص الذي اشتراه من محلٍ يبيع منتجات "باتا"، بسعر المصنع. نظر أيضًا إلى "التيشيرت" الواسع، الذي كان تقليدًا لـ"نايكي". حتى الجمهور نفسه متأنق. أحس "عارف" بأن مظهره يتنافر تمامًا مع جميع من حوله. غمره شعورٌ هائلٌ بالحرج والتوتر. كان قد خسر المباراة قبل بدئها أساسًا. خلال المباراة، راح يرتكب أخطاءً متتالية، ما مكَّن منافسه من التغلب عليه بسهولة. وقف "ذاكر" يشجعه، بصوتٍ مرتفع، طوال الوقت، دون فائدة. انتهت المباراة ب- ٦-١ و ٦-0 لصالح منافسه.

عقب المباراة، أحس "عارف" بحزنٍ شديد وقلبٍ مكسور. أقسم بأنه لن يعود إلى ذلك النادي ثانيةً. توقف بعدها عن لعب التنس. عُلِّق المضربان على الجدار. أزال صورة "شتيفي جراف"، ووضع مكانها صورة للنجمة القديمة "مينا كوماري". لم تعد مباريات التنس على التليفزيون تحرك داخله شيئًا. حتى رؤيته لـ"شتيفي جراف" وهي توجه ضرباتها الشهيرة، وترفع الكؤوس، وتتحدث في اللقاءات، لم تعد تشعره بشيء مميز. إنه مجرد واحد من ملايين المعجبين بها، رغم حنينه إليها أحيانًا، وإلى لعبة التنس.

سوف ينسى "سوميترا"، تمامًا كما نسي "سِمران". قال لنفسه إنه بحاجةٍ فقط لشيء يشغله عن التفكير بها. قال ذلك وهو يستسلم للنوم، الذي سيحلم فيه بـ"سوميترا" مرة أخرى.

7

بلغ ترميم الحائط المتهدم مراحله الأخيرة. جلس "عارف" على مقعد من الخيزران، يتابع عمال البناء، ممسكًا بكتاب عن تاريخ "بيهار". ينظر إلى صفحاته، لكن عقله الشارد يفكر في "سوميترا" وحدها. حاول مقاومة أفكاره، بالتحدث مع ابن عمه:

- قل لي يا "منير"، هل صحيح ما يقوله رئيس العمال من أن هناك جنية شوهدت في نهر القرية؟

كان "منير" قد جاء للتو، حاملًا إبريق شاي من الألمونيوم، وبعض الأكواب الفخَّارية الصغيرة. صبَّ لنفسه ولـ"عارف" كوبين، ثم أشار للعمَّال كي يأتوا ويأخذوا الشاي. جلس على مقعدٍ بجانب ابن عمه. اقترب منهما رئيس العمَّال الشاب، وقال:

- على الأستاذ "عارف" أن يؤمن بوجود هذه الجنية.

وقف "عارف"، ووضع كتابه على مقعد خشبي كبير، يجلس عليه عامل نحيل في نحو الخمسين، يرتشف شايه بصوتٍ مرتفع، وأجاب الشاب:

- كلا. لا أؤمن بجنية النهر. إنها مجرد خرافة.

قال "منير" بإصرار:

- غير صحيح. إنها ليست خرافة يا "عارف". لقد رآها الكثير من رجال القرية، على هيئة امرأة ترتدي ساري عروس، تتمشى على ضفة النهر.

- حقًّا؟

- نعم.

تذكر "عارف" حديث جدته عن جنيات النهر: "اسمع يا بُني، إنهن أرواحٌ فارقت الحياة، عبر الانتحار بالقفز في النهر. بعد ذلك، يحاولن قتل كلٍ من يَرينه قريبًا من النهر، في أوقاتٍ غير مألوفة، في قيظ الظهيرة مثلًا، أو عقب الغروب. يقتلن الناس، لرغبتهن في صُحبةٍ تخفف عنهن الشعور بالوحدة". قال لـ"منير"، متحديًا:

- حسنًا، أخبرني عن شخصٍ رأى جنية نهر بعينيه.

- "حسرة خان". رأى واحدة قبل بضعة أشهر. كان قد ذهب ليتمشى قليلًا مساءً. لمح امرأة ترتدي ساري كثير الألوان. توقف وسألها عمن تكون، لكنها لم تجبه، واكتفت بالتحديق فيه بعينين باردتين، ووجه يخلو من أي تعبير. ارتعد، وابتعد عنها بخطواتٍ سريعة، عائدًا إلى القرية. بعد دقيقتين، لاحظ أن الشال الذي يضعه على إحدى كتفيه غير موجود. التفت، فرآه على الأرض، على بُعد بضعة أمتار.

- حسنًا، وماذا أيضًا؟

- ظنَّ "حسرة خان" أن الشال سقط عن كتفه. عاد وأخذه. بعد بضع خطوات، اكتشف اختفاءه. تلفَّت حوله بحثًا عنه، لكنه لم يجده. أحس بأن الوضع غير طبيعي، وزاد من سرعته، مبتعدًا. قبل وصوله لأطراف القرية، رأى شاله معلَّقًا على شجرة تين صغيرة، على الطريق. مدَّ يده ليأخذه، لكنه تراجع. كيف وصل إلى هناك؟ أخذ يفكر فيما ينبغي عليه فعله.. هل يأخذ الشال أم يتركه؟ أحس بأن هناك شخصًا بجواره. التفت، فرأى المرأة ذاتها تقف قريبًا منه، دون أي تعبير على ملامحها الباردة. تملكه خوفٌ شديد، فأخذ يركض بأقصى سُرعة، إلى أن وصل لمنزل "شعيب خان"، حيث سقط منهارًا هناك.

- حسنًا، أنت تدرك يا "منير" أن "حسرة خان" ليس أهلًا للثقة والتصديق، أليس كذلك؟ أنا متأكد من أنه اختلق هذه الحكاية بأكملها.

- لا بأس. دعني إذًا أخبرك حكاية ثانية، عن شخصٍ لا يمكن التشكيك في صدقه أبدًا.

- هاتها.

- في الأسبوع الماضي، كان مولاي "مرتضى"، إمام الجامع، الذي يبلغ عمره منتصف الستينيات تقريبًا، عائدًا من القرية المجاورة، قُرب الغروب. حان موعد صلاة المغرب، فقرر الصلاة على ضفة النهر. توضأ بمياه النهر، وفرش شاله على الرمل، ووقف عليه. عندما انتهى من الصلاة، وانحنى ليرفع شاله عن الأرض، لمح فتاة مبتسمة، تنظر إليه. كان قد سمع أن عروسًا من قبائل "راجبوت"، من إحدى القرى القريبة، ألقت بنفسها في النهر، منذ فترة. ها هي تقف أمامه بملابس ومجوهرات العرس. ردد آية الكرسي، وهو يجري مبتعدًا. لم يتوقف إلا عند وصوله القرية.

قال "عارف":

- حسنًا، مولاي "مرتضى" لا يكذب، لكنني أعتقد أن الأمر التبس عليه. لقد رأى امرأة عادية، وظن أنها جنية نهر.

قال "منير" بانزعاج:

- أعرف أنك لن تصدق حتى ترى واحدةً بعينيك!

- يا لها من فكرة! لنذهب إلى النهر. أود مقابلة إحداهن!

- عليك ألا تسخر من الجِن والأشباح.

- ألن تأتي معي؟

- إذا كنتَ مُصِرًّا، سآتي طبعًا.

كانت العاشرة صباحًا عندما توجها إلى النهر. عند سيرِهما على الطريق الطيني، رأى "عارف" ملصقًا على عمود كهرباء معطل، كُتِب عليه بخط اليد تحذير من جنيات النهر، وذُكِر فيه أن عروسًا من الـ"راجبوت" قد أقدمت على الانتحار مؤخرًا. يحذر الملصَق الأشخاص من الذهاب للنهر بمفردهم عقب الغروب. تمتلئ القرية بأعمدة إنارة، رغم خلوها من الكهرباء.

سار "عارف" و"منير" بجوار المنازل ذات الحوائط الطينية والأرضيات المغطاة بالبلاط، إلى أن وصلا بقرب منزل "شعيب خان". قبل ١٥٠ سنة، بناه رجل إنجليزي يعمل في زراعة نبات النيلة. قبل رحيل آخر أصحابه عن الهند، في الثلاثينيات، قام بإهدائه إلى صديقه الوحيد في القرية، والد "شعيب".

تسلق الشابَّان التلال العالية من الطين والرمال، المحيطة بـ"جمالبورا" والقرى المجاورة. خلال نزولهما منها، للوصول إلى النهر، بحث "عارف" عن مكانٍ ملائمٍ يتبوَّل فيه. سالَ بوله على الأرض، فيما كان يبحث بعينيه عن بعضِ الترابِ المناسب للاستنجاء. تناول حفنة من التراب، مسح بها طرف عضوه.

قال له "منير":

- عليك أن تتخير المكان المناسب لقضاء الحاجة. لقد تبولتَ على رماد. لا تفعل ذلك مرة أخرى. العظام والرماد غذاء الجِن، ويغضبهم تدنيس الناس لها.

ضحك "عارف" وهز رأسه، دون أن يقول شيئًا.

رغم برودة الجو، قفز الاثنان في النهر. لم يكونا بمفردهما. كان هناك أربعة أو خمسة صيادين، يلقون بشباكهم في المياه. على الضفة الأخرى، كان هناك مزارعان يعملان في حقلٍ لقصب السُكر. أمضى "عارف" و"منير" ساعات طويلة في الماء، يلهوان بمرح.

مساءً، مرِض "عارف" وأصابته الحمى. ارتعش جسده دون توقف. تم استدعاء "حنيف" العطار، وهو جندي سابق، بدأ العمل في مجال العطارة عقب تقاعده. امتلك بعض الخبرة، التي اكتسبها من العمل في المستشفيات العسكرية. كان الأفضل في هذا المجال داخل قريته. لم تتوقف الرعشة. وبخ العَم ابنه حين علم بأنهما كانا في النهر. علقت زوجة العم:

- لا بد أن جنية النهر أصابته بِمَس.

نصحتْ زوجها باستدعاء إمام الجامع. جاء الرجل، وتلا بعض الآيات القرآنية على "عارف"، وراح ينفث في وجهه بأنفاسٍ لها رائحة البصل النفَّاذة.

نام "عارف" بعُمقٍ طوال الليل. لكن الرعشة عاودته صباحًا، بعنف. جلبوا له بطانيتين من الصوف، ولحافٍ ثقيل، وأشعلوا له نارًا من الأخشاب. استُدعيَ "حنيف" من جديد، الذي أكَّد أن الوضع على ما يرام، وأن التحسن سيظهر بعد يومين.

تناول "عارف" الدواء، واستسلم للنوم من جديد. هذه المرَّة، حلم بـ"سوميترا". كانت فتاة في السادسة عشرة، بضفائر. لكنها تلبس ساري، كامرأةٍ ناضجة. راح "عارف" يناديها، لكنها لم تلتفت إليه.

عندما استيقظ، كان جسده لا يزال يرتعش. أراد العم اصطحابه إلى الطبيب في "عنايت نجر"، لكن حالة "عارف" لم تكن تتحمل الطريق الطويل وركوب سيارة "الچيب" المزدحمة.

جاء الكثيرون لزيارة "عارف"، ومنهم الجارة "نجمة"، التي كانت بارعة الجمال بوجهٍ مستديرٍ، في يومٍ من الأيَّام، وقد صارت امرأة ناضجة، بوجهٍ ذي عظامٍ ناتئة. كانت قد تزوجت رجلًا أرمل، له خمسة أبناء. زاره أيضًا "صاحب خان" الذي عُرِف عنه تحرشه بالأطفال، لكنه أمسى الآن رجلًا ملتحيًا، لا يترك المسبحة من يده. جاءه كذلك "موسى رضا"، الذي كان ولدًا يتيمًا يعاني الفقر، ثم كبر ليصبح من رجال الصناعة الناجحين في "دلهي". كما مرَّت بهم "أسما بيجم"، وهي عجوز اعتاد "عارف" أن يناديها بـ"الجدة أسما". قالت الجدة لزوجة العم بأن المسألة بأكملها عبارة عن أرواح شريرة لا أكثر. أضافت بإصرار:

- عليكم طلب الجدة "باسو" على الفور. إنها تجيد طرد الأرواح الشريرة. سيكون على ما يرام في الغد، إن شاء الله.

أرسلت "صالحة بيجم" ابنها "منير" ليجلب الجدة "باسو"، رغم علمها أن زوجها "عبد الواحد خان" يعتبر ممارسات السيدة "باسو" ضد تعاليم الدين. لو كان موجودًا في البيت، لمنع العجوز من الدخول.

الجدة "باسو" عجوزٌ هزيلة، بشعر أبيض، يتعامل معها كل من في القرية باعتبارها جدة الجميع. ينادونها بالـ"جدة"، حتى من اقتربوا من السبعين. تعيش في القرية منذ ما يزيد على الستين سنة. أتت لتعيش فيها مع ابنتها وزوج ابنتها، لكنهما فارقا الحياة منذ زمنٍ بعيد، ولم يتركا وراءهما أي أبناء. تعيش وحيدة في منزل صغير على أطراف القرية، معتمدةً على إحسان جيرانها ومعارفها. يؤمن الكثيرون أن للجدة "باسو" دراية عظيمة بالسِحر. تتهمها بعض النساء بأنها تقوم ببعض الأعمال السِحرية ضدهن.

دخلت الجدة "باسو" منزل عم "عارف"، مستندةً إلى عصاها. برزت شامةٌ كبيرةٌ في منتصف جبهتها، غطاها طرف الساري القطني الأبيض فوق رأسها. بعد تبادل التحية، طلبت من صاحبة البيت نقل "عارف" إلى ساحة البيت، خارج الغرفة، لأن الأرواح الشريرة بحاجة إلى مساحةٍ مفتوحةٍ، تنطلق فيها بعيدًا. أخذت تستعد لممارسة طقوسها، التي تبدأ بقص حكاية تلك الأرواح. قالت:

- في قديم الزمان، عاشت أرملة جميلة مع ابنها الوحيد، الذي كان طفلًا شقيًا، سيئ التصرف. في إحدى المرات، انتابها الغضب عليه، فضربته على رأسه بعصا. نزف جرحه، وشعر بالغضب، فغادر البيت متجهًا إلى المدينة، حيث تبنَّاه زوجان ثريان، لا أطفال لهما. مرَّت ١٢ سنة. عقب وفاة الزوجين، ورث الولد جميع ممتلكاتهما وثروتهما وأعمالهما. مرَّ بقريته القديمة، ذات يوم، خلال رحلة عمل، فأحس بنوع من الألفة الغامضة، وقرر البقاء فيها

لبضعة أيام. ذات ليلة، لمح أمه، لكنَّه لم يتعرف عليها، إذ تتلاشى الذكريات بمرور الأعوام. وقع في غرامها. أحبته الأرملة، بدورها، وتزوجا. عقب زواجهما، مباشرة، حملت الأرملة. في صباح أحد الأيام، قامت بتدليك رأس زوجها، فوجدت جرحًا عميقًا فيه. حينما سألته عنه، قال بأن أمه ضربته على رأسه بعصا وهو طفل صغير في السادسة أو السابعة تقريبًا. أخبرها أنه لا يتذكر اسم قريته، ولا شكل أمه. تمعنت المرأة في وجهه، وفهمت أخيرًا لماذا تذكرها ملامحه بزوجها السابق. حين علم الاثنان أنهما أمٌّ وابنها، أحسا بالعار وبحزنٍ شديد، ثم قررا الانتحار. قفزا معًا في محرقة الجثث، لكن روحيهما لم تعثرا على السلام والاطمئنان، وتحولا إلى جنيين. هو "جاروا" وهي "جارايا". وصارا يزعجان الناس. يحلان في نفوس الناس، ويحاولان امتلاكها، ويجعلونهم مرضى، بأجسادٍ مرتعشة. حينما تُذكَر قصتهما أمام الشخص الذي يحاولان السيطرة عليه، يسارعان بالفرار.

بعد أن انتهت الجدة من حكايتها، أردفت بحزم، وبصوتٍ مرتفع، وهي تحدق في عينيَّ "عارف":

- يا "جاروا"، يا "جارايا"، إن كان لديكما بعض الحياء، اذهبا من هنا. إذا لم تغادرا، فسوف أحكي عن فضيحتكما، مرَّة ثانية.

حين فرغت من طقوسها، ناولتها "صالحة بيجم" روبيتين. دسَّتهما في يد المرأة العجوز. بعد لحظات قليلة، دخل "عبد الواحد" منزله، وفهم سبب وجود الجدَّة "باسو" فيه. التفت إلى زوجته، وقال صائحًا:

- يا حمقاء! كم مرَّة أخبركِ بضرورة تجنب هذه العادات القديمة؟ وكيف تجعلين الولد يجلس في تيار هوائي وهو مريض لهذه الدرجة؟

خرجت الجدة "باسو" من المنزل بخطوات بطيئة. التزمت "صالحة بيجم" الصمت، منكسةً رأسها. كان "منير" قد غادر البيت لأداء صلاة العصر.

فرح "عارف" بالحكاية، وأنصت إليها باهتمام بالغ. في الواقع، استمتع بهذا العلاج غير المألوف. حاول تهدئة عمه، قائلًا:

- لا عليك. أشعر بتحسن.

تجمع الآلاف من المتطوعين لنُصرة الدين وأعضاء الأحزاب الهندوسية المتطرفة، لإقامة ما يُعرف بـ"شيلا بوجان"، أو عبادة الحجر، في مدينة "آيوديا". تواجد العديد من قادة حزب "بهاراتيا جاناتا"، احتفالًا بهذه المناسبة. وللتخفيف من الاحتقان الواضح، والذي بدأ في الانتشار في المناطق المجاورة، قدَّمت المحكمة العليا وعدًا لمسلمي المنطقة بحماية مسجد "بابري"، تحت أي ظرف، خلال الاحتفالات.

في مساء السادس من ديسمبر ١٩٩٢، جلس "منير" على مقعد أمام المسجد، يقرأ للناس ما كُتِب في صحيفة "قومي مزاج" الأردية. تجمع حوله أكثر من عشرة أشخاص، يصغون إليه بانتباه.

تحسنت صحة "عارف"، لكنه لا يزال يشعر بالضعف. أسند رأسه إلى ظهر السرير، ونظر خارج النافذة. رأى وسمع ما يجري في ساحة المسجد. بعد لحظات، شاهد "عارف" صاحب دكان القرية "سجاد حسين"، وهو يهرول نحو "منير" ومن معه، بجسده الممتلئ. حين وصل إليهم، أطلق صيحة ملتاعة، أعقبها بالقول:

- لقد تم هدم مسجد "بابري". دكه الهندوس، فأصبح ترابًا!

قال العم "عبد الواحد":

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

تصاعد الغضب في النفوس. أحسَّ "عارف" بالصدمة. لم يتخيل أن يحدث شيء مثل هذا في بلدٍ علمانيٍ مثل الهند. كان قد سمع في الراديو، في اليوم السابق، أن "كاليان سينج"، رئيس وزراء "أتار براديش"، قد أصدر وعدًا للمحكمة العليا بحماية مسجد "بابري"، بأي ثمن.

قال "رحمن"، وهو رجل طويل بشاربٍ رفيعٍ، بصوتٍ هادر:

- جميع الهندوس متطرفون. رئيس الوزراء نفسه عضو في حزب "بهاراتيا جاناتا"، إنه عضو سري في جميع الأحزاب الهندوسية المختلفة، المعروفة بـ"سانج باريفار".

عقب صلاة المغرب، ألقى الإمام خطبةً، سمعها "عارف" في حجرته، عبر مكبرات الصوت. قال الإمام:

- لقد هجرنا عاداتنا وتقاليدنا، ونسينا القرآن الكريم والأحاديث النبوية. في زمنٍ ما، حكم المسلمون المساحة الممتدة من تركيا إلى الأندلس. وكما قال الشاعر العظيم "محمد إقبال":

عليك البحر صارع فيه موجًا
حياة الخلد في نَصَبٍ تواتي

استطرد الإمام:

- في الفترة الأخيرة، أخذ المسلمون يتصرفون كما لو كانوا كفارًا وخونة.

شرد "عارف" بأفكاره. لم يعد يستطيع التركيز على الخطبة. كان أكثر ما يخشاه هو وقوع أحداث عنيفة في القرية.

عقب الصلاة، نُظِّم اجتماعٌ للمسلمين في ساحة المسجد. وضع "عارف" شالًا صوفيًا كبيرًا حوله، وذهب للاجتماع. جلس على دكة خشبية عريضة، بجوار "صدقات" و"منير".

قال "رحمن"، بصوتٍ غاضب:

- لكي ننتقم من هدم مسجد "بابري"، علينا أن نهدم المعبد الوحيد في القرية.

أجابه "علي أحمد خان"، صديق العم "عبد الواحد"، بنبراتٍ هادئة:

- لا يوجد عداء هنا بين الهندوس والمسلمين، فلماذا نعاقب هندوس قريتنا على أفعال أشخاص آخرين في مكانٍ بعيد؟

علق العم:
- أنا أؤيد رأي الأخ "علي".
قال "صدقات"، وهو يحك رأسه:
- نعم، أنا أيضًا أؤيد العم "علي خان" والعم "عبد الواحد".
التفتت نحوه أعينٌ غاضبة. قال له "رحمن":
- والدك "رزَّاق خليفة" حاضر معنا هنا، لذا عليك احترام وجوده، وأن تصمت حين نناقش موضوعًا هامًا. لسنا بحاجةٍ للنصيحة من شخص سكير مثلك.
- احفظ لسانك يا عم "رحمن". توقفتُ عن الشُرب. لا تدعني أفتح فمي للحديث عنك. أنا من يعرف طباعك وأخلاقك جيدًا. ألا تواظب على زيارة النجار في بيته كي تتلصص على زوجته الجميلة؟
صاح "رزَّاق خليفة" في ابنه:
- اخرس أيها الوقح.
كان "رزَّاق" مصارعًا قويًا في شبابه، فاز بعدَّة بطولات وألقاب. على إثر توبيخ والده له، غادر "صدقات" المكان، مستاءً. تدخَّل "عارف" وقال بتردد:
- ما ننوي فعله خطأ كبير.
أجابه "رحمن علي":
- أنت يا ولدي لا تعرف هندوس الطبقات الدُنيا. لديهم تأييد كامل للنائب "سوريش سينج"، المنتمي لطبقة "بوميهار". علينا أن نلقِّنهم درسًا لا يُنسى.
في نهاية الاجتماع، الذي استمر لساعتين، تقرَّر أن المعبد الوحيد في قرية "نونيا تولا" سوف يسوى بالأرض. ارتفعت أصواتٌ قليلةٌ تؤيد رأي "علي أحمد خان" و"عبد الواحد خان"، لكن الغالبية العظمى من الأصوات وافقتْ على الهدم.
غادر العم "عبد الواحد"، وقد عصف به غضب عارم، رافضًا الاشتراك في هذه الخطط الشريرة.
خاصم النوم "عارف". أحسَّ بأن عليه فعل شيء ما يوقف اندفاع القرويين. فكَّر في مناقشة المسألة مع عمه، لكنه عدل عن فكرته. ثم مرَّ "صدقات" بباله، فغادر فراشه، وتسلل باتجاه باب المنزل. فتحه بحرصٍ بالغ. كانت الشوارع هادئة تمامًا. سار باتجاه منزل "صدقات". عقب أمتارٍ قليلة، لمح خيال شخص يقف تحت عمود إنارة مُظلِم، يدخن سيجارة. حين اقترب منه، رمى الخيال سيجارته، وقال بدهشة:
- "عارف"؟ ما الذي أتى بك في هذه الساعة المتأخرة؟
كان "صدقات"، لا غير. أجابه "عارف" بصوتٍ هامس:
- كنتُ في طريقي إليك. ما ينويه الناس من هدم المعبد ليس خطأً فحسب، بل مسألة بالغة الخطورة.

قال "صدقات" بثقة:
- عُدِ إلى فراشك يا "عارف". لا تقلق. لديَّ خطة لإيقاف ما ينوون فعله.
- حقًّا؟
- نعم.
في تلك الليلة، حدث شيئان. هرب "صدقات" و"تشاميلي" معًا، وجاءت مجموعة من رجال الشُرطة لحراسة معبد "نونيا تولا". أحسَّ "عارف" بالارتياح لفشل خطة سُكان القرية.
بقي رجال الشُرطة في القرية لعشرة أيام. تدريجيًا، هدأت الأمور وبدأت تعود إلى طبيعتها، وأخذ غضب الناس في التلاشي. اقتنع الكثيرون أن هدم المعبد قرار خاطئ. بعد يومين آخَرين، غادرت الشُرطة القرية.
في يوم الأحد التالي، بعد أن بدا أن الأمور عادت إلى طبيعتها، انتشرتْ أنباءٌ مفادها أن سكَّان "نونيا" يستعدون لمسيرةٍ يحملون فيها رايات النصر، احتفالًا بهدم مسجد "بابري"، كما حدث في بعض القرى المجاورة، ذات الأغلبية الهندوسية. ولأنهم لن يجرؤوا على فعل ذلك في القرية نفسها، فسوف يقومون بالمسيرة داخل حيهم. تجمع الناس أمام المسجد الجامع، حاملين عصي خيزران، ومعاول ورماح.
تقدم الناس الشيخ "حميد علي"، تاجر الحبوب والمُرابي السابق، الذي بدأ بالهتاف:
- تكبير! الله أكبر!
تكوَّنت مسيرة من نحو خمسين شخصًا، في اتجاه "نونيا تولا"، إلى غرب المسجد، على مسافةٍ لا تزيد عن نصف كيلومتر من القرية. حاول "عارف" التحدث إلى بعضهم، لكنهم دفعوه جانبًا، وواصلوا السير. كان قائد المسيرة في حالة سُكْرٍ واضحة. أقسم بكلماتٍ متقطعة أن يضحي بحياته في سبيل الإسلام. استمر في الهتاف والتكبير. يصيح: "تكبير!"، فيرد عليه الرجال: "الله أكبر!".
شعر "عارف" بالعجز. لم يعرف كيف يتصرَّف. قال لنفسه: "لو كان عمي هنا، لفعل شيئًا". كان العم قد غادر مع زوجته وابنه لتقديم واجب العزاء في القرية المجاورة. لم يذهب هو و"فارزانة". ذكر نفسه: "هناك شخص آخر يمكنني الاستعانة به في هذا الموقف".
اصطحب "علي أحمد خان" معه، وتوجها إلى "نونيا تولا". حين وصلا، كان شجارًا قد اندلع بين المسلمين وعدد صغير من الشُبان الهندوس، أغلبهم من سُكَّان "نونيا". لاحظ "عارف" راية صفراء مثبَّتة قريبًا من أحد البيوت. على حائط بيت آخر، رأى مُلصقًا للنائب "سوريش كومار". يظهر في الصورة مبتسمًا، وقد ألصق كفَّيه ببعضهما في تحيَّة. كُتِب على الصورة: "صوتك لحزب بهاراتيا جاناتا".

حاول "علي أحمد خان" التدخل لتهدئة الأطراف المتشاجرة، لكن صخبهم المتزايد أعجزه عن الحديث، ولم يسمعه أحد من الأساس. ربما كانوا سينصتون إليه لو أنه تحدث إليهم أمام الجامع، قبل تحركهم، وقبل أن تتحول المسألة إلى رغبة عنيفة في الانتقام.

مع احتدام الصراع بين الطرفين، تسلل أحدهم وأشعل النار في أحد المنازل. تزايد عنف الهندوس تجاه المسلمين، لكن الأخيرين كانوا أكبر عددًا منهم، بكثير. غادر عدد كبير من الهندوس، عائدين ركضًا إلى بيوتهم وعائلاتهم، مع انتشار النيران. ضُرِب بعضهم بقوة. سمع "عارف" صراخ الرجال والنساء، وصياح الأطفال، وتراكض الجميع في كافة الاتجاهات، محاولين إنقاذ أقربائهم وممتلكاتهم.

حاصرت النيران أماكن كثيرة، وبدأ المسلمون في التفرق والابتعاد. راح "علي أحمد خان" يجر "عارف" بعيدًا. اعترض "عارف"، ولم يرغب في الابتعاد. صاح "علي خان":

- ما الذي ستفعله ببقائك هنا؟ ستموت. لن تستطيع إنقاذهم. المسألة أكبر منا بكثير.

بعد مرور ساعة أو اثنين، احترقت جميع بيوت "نونيا تولا". ارتفع الدخان الكثيف في السماء، التي استحال لونها إلى الأسود.

في بيت عمه، جلس "عارف" على أحد المقاعد، في حالة ذهول، عقب ما شهده من عنفٍ مخيف. قال لـ"فارزانة" بأنه لا يرغب في تناول العشاء. شعر بالذُعر مما ستحمله الأيام القادمة. أدرك أن الشُرطة ستوقع عقوبات صارمة على المسلمين، وأنه سيكون واحدًا منهم. حتى عمه، الذي لم يكن موجودًا في البلدة وقت وقوع الأحداث، سيخضع لهذه العقوبات. هناك احتمال كبير لأن يتعرضوا لهجومٍ قاسٍ من الهندوس، من القرى المحيطة بهم، في اليوم التالي مباشرةً.

صباحًا، علم "عارف" أن ثلاثة أشخاص قد فارقوا الحياة جراء الحرائق. أولهم رجل مُسِن، مصاب بالخَرَف، حاول إنقاذ بيته، عبر إلقاء نفسه وسط النيران المشتعلة. الثاني شاب في العشرينيات، كان في حالة إغماء عندما لحقت به النار، فلم يتمكن من إنقاذ نفسه. أما الحالة الثالثة، فهي لامرأة مصابة بضعف نظر شديد، يقترب من العمى، فشلت في الوصول للباب في الوقت المناسب، فاختنقت بالدخان الكثيف.

استعرض عدد من المتسببين في إشعال الحريق شجاعتهم، وقالوا بأنهم ينتمون لفئة الـ"بتان" الشجعان، وأنهم لن يحرجوا أنفسهم ومجتمعهم بالهروب من أرض المعركة.

من جانبه، أعلن إمام المسجد ضرورة بقاء الجميع في القرية، وعدم مغادرة أحد.

في المساء، لم يُرفَع الأذان في المسجد. لمعرفة ما يحدث، خرج "عارف" من البيت لاستطلاع المسألة. الشوارع مهجورة، وليس فيها أحد بتاتًا. بعد قليل، رأى "تشوتان مِيان"، العامل في مزرعة عمه، وهو يهرول مُسرِعًا. حين لمح "عارف"، توقف وقال:

- أستاذ "عارف"، لم يبقَ أي مسلم في القرية. اهرب إلى أي مكانٍ آمن. سوف تأتي عصابات الهندوس ورجال الشرطة في أية لحظة.

فكر "عارف" ساخرًا: "وأين ذهب البتان الشجعان الذين لن يحرجوا مجتمعهم؟".

وقف وحيدًا في الطريق. نظر إلى ساعته. كانت تقترب من الخامسة. لم يعد العم وأسرته بعد. عاد إلى البيت وشرح الوضع لـ"فارزانة" باختصارٍ شديد.

بعد دقائق قليلة، سمعا صوت هتافات تمجِّد الإله "رام". قال لـ"فارزانة":

- يبدو أن الهندوس قد وصلوا القرية. علينا مغادرتها على الفور.

بدأت "فارزانة" بالبكاء. ربَّت على رأسها، وقال مُطَمئِنًا:

- أنا معكِ. لا تقلقي.

تحدث بهدوء، لكنه كان مذعورًا في داخله. ارتفعت أصوات الهتافات في الخارج. تزايد إحساس "عارف" بالخوف الشديد. لم يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله. اندفع من باب البيت، بسرعةٍ خاطفةٍ، وأقفله من الخارج، ثم عاد إليه، قافزًا من النافذة. سارع و"فارزانة" بإغلاق النوافذ من الداخل بالمزاليج. أراد بذلك أن يصدق الهندوس أن أصحاب البيت قد فروا منه، كبقية أهل القرية.

بعد قليل، سمعا دبيبًا قويًا، خارج المنزل، كما لو كان لآلاف الأقدام. توقفت سيارة "چيب". أطلق أحدهم بعض الأوامر والتوجيهات. تسارع نبض "عارف". ذهب إلى النافذة في الممر المؤدي للباب الرئيسي للبيت. عبر شَقٍّ في النافذة، لمح أكثر من مئة شخص مُمسِكين بمعاولٍ وسيوف، يقتحمون ساحة المسجد. وقف بينهم نحو ستة من أفراد الشُرطة، بمسدسات. حمل شخص ممتلئ، أسمر البشرة، يلبس إزارًا، قنديل زيت. وقف شخص آخر، يرتدي ثيابًا من القطن الأبيض، يتحدث إلى أحد رجال الشُرطة. خاطبه الشرطي باحترام بالغ. تذكره "عارف" من صورة الملصق. إنه النائب "سوريش سينج". قال لِلشرطي:

- لقِّن أولئك الـ"بتان" درسًا. لطالما تحملنا حماقاتهم لسنوات. لا تترك واحدًا من هؤلاء المختونين.

أجاب الشرطي، بتوسل:

- كلا يا سيدي. سوف أفقد وظيفتي.

صاح المجتمعون:

- عاش الإله "رام"!

تردَّد صدى صوتهم في المنزل الخاوي. اعتصر الخوف قلب "عارف". قال لـ"فارزانة":

- علينا أن نهرب من هنا الآن. ابحثي عن القنديل.

لبست "فارزانة" بلوفر صوفي. كانت ترتجف. ارتدى "عارف" سترة، ودسَّ قدميه في حذائه، دون جوارب. سمعا طرقًا على الباب، صار عنيفًا خلال لحظات. حاولوا كسر الباب. أحسَّ "عارف" بالذعر. رغم برودة هواء الشتاء، تجمَّعت قطرات العرق فوق جبينه. أمسك بيد "فارزانة"، وهمس لها:

- لا تخافي. افعلي فقط ما أقوله لكِ.

ساعدها على تسلق النافذة المُطِلة على الساحة الخلفية للبيت. جلستْ على حافتها. اعتلى النافذة بدوره، وقفز منها قبلها. مدَّ يده باتجاهها، فقفزت بين ذراعيه، ثم وقفت على الأرض بجواره. بصمتٍ تام، قطعا الساحة الممتدة خلف البيت، بخطواتٍ سريعة، تحت ظلال الأشجار.

شاهدا خيالات وظلال الناس الواقفين في الطريق. فجأةً، اتجه أحدهم نحوهما. قاما بالانحناء على الفور، وتجمَّدا من شدَّة الرعب. وقف الرجل على حافَّة الطريق، واستدار بظهره كي يتبوَّل. سحب "عارف" ابنة خاله نحوه، وجلسا ملتصقين بين الشجيرات والنباتات الكثيفة. قفزت حشرة ما فوق "فارزانة"، كادت أن تفلت منها صرخة، لكن "عارف" عاجلها بوضع يده فوق فمها بقوَّة، وجرَّها نحوه أكثر عن ذي قبل. تشبَّثت بصدره. أحسَّ بأنفاسها المتقطعة. بقيا في مكانهما لما ظنَّاه دهرًا، لكن الحقيقة أن ذلك كان في حدود نصف ساعة تقريبًا. رفع "عارف" رأسه، أخيرًا، فرأى الطريق خاليًا. قال بصوتٍ هامس:

- سوف نذهب إلى "شامشاد نجر". بابا له صديقٌ هناك.

أومأت "فارزانة" موافِقةً.

وصلا إلى نهاية القرية. شاهدا مجموعة من الرجال يحملون بطاريات إنارة كبيرة على الطريق إلى "شامشاد نجر". كان السير على ذلك الطريق خطيرًا. قاد "عارف" ابنة خاله باتجاه النهر. سارا فوق ضفته المرتفعة، التي حَمَتْهُما من أعين الناس على الطريق، في الجهة الأخرى. راحت "فارزانة" تردد آية الكرسي.

بعد ساعة أو أكثر، دخلا بستان الجوافة، الذي يمتد لأكثر من أربعة كيلومترات. على الجهة الأخرى، تقع "شامشاد نجر". توغلا داخل البستان، بثماره العَطِرة، وراح "عارف" بدوره يردِّد الآيات القرآنية. كان الظلام حالكًا. تعثَّرا عدَّة مرَّات على الجذور النافرة للأشجار والأحجار. كانا قد وصلا إلى نهاية البستان تقريبًا، حين سمعا صوتًا يصيح بهما:

- توقفا!

كانوا ثلاثة رجال ملثَّمين. يحمل اثنان منهما بنادق. صاح أحدهم:

- من أنتما؟
التصقت الكلمات في حنجرة "عارف"، وأبَتْ الخروج. قال الرجل الثاني الذي يحمل في يده بطارية إنارة معدنية:
- لعلَّهما مخبرَين تابعَين للشُرطة.
توجَّه إليهما بخطوات مترنحة، تشي بسُكره. قال:
- ربما عليَّ أن أسأل البنت..
أمسك بيد "فارزانة"، فأخذت تصرخ وهي تحاول الإفلات من قبضته. قال "عارف" متلعثمًا:
- لسنا.. لسنا.. نحن لسنا مُخبرَين.
أضاف:
- اترك أختي من فضلك.
قال ذلك، وهجم على الرجل بغتةً، بحركةٍ سريعةٍ، يدفعه بعيدًا عن "فارزانة". تفاجأ هو نفسه بما فعل. لكن الرجل السكران كان أسرع منه، إذ ضربه على قمة رأسه ببطارية الإنارة الثقيلة. تهاوى "عارف" على الأرض الرملية. أزال الرجل اللثام عن وجهه، وعبث بطرفي شاربه، قائلًا:
- انظروا لجمال هذه البنت! يمكننا قضاء وقت ظريف معها.
صاح زميلاه في صوتٍ واحد:
- كلا!
أضاف أحدهما:
- هل نسيتَ كيف قام "جاجان ديف" بمعاقبة "شامبو" حين أساء التصرف مع إحدى النساء خلال السطو المسلح في بلدة "بيراجانيا"؟
- "جاجان ديف" مجنون. يعتقد بأنه تجسيد للإله "راما". اسمعا.. تصرَّفا أنتما كاثنين مصابَين بالعجز الجنسي، أمَّا أنا فسوف آخذ هذه البنت معي.
أخذ يجر "فارزانة"، فيما راحت تصرخ وتحاول ركله. أحس "عارف" بدوار، لكن كان عليه التصرف بسرعة. فجأةً، صاح الرجل بألم، وسقط على الأرض، مُفلِتًا يد "فارزانة". ركز "عارف" نظراته على الأشخاص أمامه، محاولًا فهم ما يحدث. رأى شخصًا جديدًا، ملثم أيضًا. هل ذلك أمر جيد؟ أخذ القادم الجديد يركل الرجل الملقى على الأرض، وهو يصيح:
- لا أريد أن يشوه أحد سُمعة "جاجان ديف".
في تلك اللحظة، ظهر أكثر من عشرين شخصًا. خاطبهم الرجل:
- خذوا هذا الوغد لمقرنا. سوف أقرر مصيره هناك.
كان "عارف" قد سمع حكايات عديدة عن "جاجان ديف"، رجل العصابات الشهير في مدينة "موتيهاري" والمناطق المجاورة. خلال السنوات الخمس الماضية، قامت عصابته بنهب وسلب أكثر من مئة رجل أعمال ومزارع من الأثرياء، دون أن يلقى القبض عليه. سمع "عارف" كذلك أن "جاجان ديف" رجل صاحب مبادئ. اعتاد توزيع نصف غنائمه على الفقراء والمحتاجين. لم

يُسمَع أبدًا أن أحدًا من عصابته تعرَّض لأي امرأة بالأذى؛ بل وتقول الأسطورة الشعبية إنه قتل أحد رجاله رميًا بالرصاص، بعد تجاوزه للاتفاق الأخلاقي المعروف بينهم، وقيامه بالاعتداء الجنسي على إحدى الفتيات.

هذا هو إذًا "جاجان ديف".

حَبَتْ "فارزانة" نحو "عارف" وتعلَّقت به وهي تبكي. رغم صعوبة الموقف، شعر "عارف" بالدهشة وهو يتأمَّل رئيس العصابة الذي لطالما سمع عنه. كيف يكون صاحب هذه الشهرة الطاغية مجرد رجل نحيل وقصير؟ كان يلبس بنطال أبيض وسترة كاكي، ويلف وشاحًا لونه بيج حول رقبته. أزال لثامه. له شاربٌ خفيفٌ، يُرى بالكاد من على بُعد. تحدَّث بلغة "بوجبوري"، سائلًا "عارف" عمَّا يفعله في البستان، في منتصف الليل، ومعه فتاة أيضًا؟

قصَّ عليه "عارف" الأحداث باختصارٍ وسُرعة، وتعمَّد التركيز على محاولاته وقف المذبحة. كان عليه أن يفعل ذلك، فالرجل رئيس عصابة هندوسي، على أي حال.

التفتَ "جاجان ديف" إلى "فارزانة"، قائلًا:

- لا تخافي يا أختي. أنتِ بأمان.

بدتْ "فارزانة" مذعورة. غرزت أظافرها في ذراع "عارف". أملى "جاجان ديف" توجيهاته على "عارف" للوصول إلى "شامشاد نجر". شكره الأخير، ممسِكًا بيد "فارزانة". غادرا مُسرعَين. كانت ابنة خاله ستُغتَصَب، بمنتهى السهولة، وكان سيعجز عن حمايتها. ليس بوسعه حمايتها من أفراد عصابة. عليهما الوصول لمكانٍ آمن.

استمرَّت "فارزانة" في البكاء طوال الطريق. بين الحين والآخَر، كان يربت على ظهرها لمواساتها وتهدئتها، لكنه فعل كل ذلك بصمت. لم يكن يمتلك الكلمات المناسبة لهذا الموقف العصيب.

حين وصلا إلى "شامشاد نجر"، أشار "عارف" إلى بيتٍ فخمٍ من طابقين، وقال لـ"فارزانة:

- هذا منزل العم "إلياس".

بمجرد دخولهما، ارتمت "فارزانة" في أحضان زوجة "إلياس" وهي تبكي بحُرقة. استمر بكاؤها طوال الليل. لم ينم أيٌّ منهم تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي، اصطحبهما ابن "إلياس" في سيارة "چيب" قديمة إلى "عنايت نجر". تعمد تجنب المرور في القرى ذات الأغلبية الهندوسية، خوفًا من المخاطر المحتملة، وهو ما ضاعف مدة الرحلة.

في "عنايت نجر"، طاف أفراد شُرطة مكافحة الشغب الشوارع الخالية، لا بد أن أصداء أحداث "جمالبورا" قد وصلتهم هنا. استوقفهما رجلٌ مُسلَّح، يرتدي زيًّا رسميًا. سألهما عمَّن يكونان، وعن المكان الذي جاءا منه. لم يذكر "عارف" شيئًا عن "جمالبورا"، خوفًا من أن يتم اعتقاله. قال للضابط إنهما

كانا في زيارة لـ"شامشاد نجر"، ووصلا للتو، فسمح لهما بالمرور. قل الإحساس بالضيق بعض الشيء داخل صدره.
كان السيد "حكيم" يذرع الشرفة ذهابًا وإيابًا بخطواته القلقة، حين وصلا. فور رؤيتها لابنتها، انخرطت أم "فارزانة" في بكاءٍ مرير، وهي تجلس على أرضية الشرفة.

8

في "باتنا"، استيقظ "عارف" صباحًا، شاعرًا بثقل في رأسه وانسداد في أنفه، عقب ليلة مؤرقة. وقف في الشرفة، ودلَّك جبينه ببعض الـ"فيكس"، ثم مسح القليل منه في منخريه واستنشقه بقوة. أحس ببعض الارتياح للحُرقة الخفيفة التي خلفها الدواء في أنفه.

في الليلة الماضية، عانى من الكوابيس من جديد، وكما في كل مرة شاهد البيوت المحترقة في "نونيا تولا". دارت كل أفكاره حول تلك الليلة الرهيبة في بستان الجوافة. ماذا لو لم يصل "جاجان ديف" في اللحظة المناسبة؟ ماذا لو تمكن ذلك المجرم السكران من الاعتداء على "فارزانة"؟

حاول التغلب على ذلك بالتفكير في امتحاناته الوظيفية القادمة. تأثرتْ دراسته في الأسابيع القليلة الماضية. أولًا بسبب مرضه، وثانيًا بسبب أعمال الشغب.

أطلتْ الشمس، استعدادًا لرحلتها اليومية. الشارع المواجه للمنزل خالٍ. وقف شحَّاذ مُسِن، هزيل الجسد، على عتبات السلم الخارجي للمنزل.

خرج السيد "سوريا براتاب سينج" من شقته. وقف ببطنه البارز يصيح في الشحاذ:

- من سمح لك بدخول المستعمرة؟ ابتعد عن هنا وإلا..

طلب الرجل المُسِن شيئًا يأكله. رفع السيد "سينج" يده في الهواء مهددًا إياه بالضرب. تراجع الشحاذ في خوف، فتعثر وسقط متدحرجًا على السلم، وهو يرتعش.

تساءل "عارف": "ما هذه القسوة؟". يعمل السيد "سينج" مفتشًا في الشرطة العسكرية لـ"بيهار". كانت علاقته الغرامية بزوجة أحد جنوده مثار نميمة سُكان المستعمرة. لم يكن لدى الجندي أدنى ممانعة أو اعتراض على الوضع. دخل "عارف" ليحضر بعض الطعام للشحاذ، لكنه اكتشف مغادرة الرجل عند عودته. وقف السيد "سينج" يلقي أوامره بصوتٍ مرتفع على اثنين من مساعديه. أحس "عارف" برغبةٍ شديدةٍ في البصق على وجهه. سأل نفسه: "لماذا أكره السيد سينج؟ لتعامله القاسي مع ذلك الشحاذ؟ أم لعلاقته الجنسية بزوجة رجل آخر؟ وكيف أختلف أنا عنه في هذا الجانب؟".

ذكر نفسه بأنه لم يلمس "سوميترا" بتاتًا. إنه معجَبٌ بها، لكنه لم يرتكب الخطيئة معها.. "حتى هذه اللحظة على الأقل".

حين خطرت "سوميترا" بباله، أحس باضطرابٍ بالغ. شعر بالدهشة لأنه رغم كل ما مر به في الأسابيع الماضية، لم تترك "سوميترا" أفكاره ولو لحظة. أحس بأنه لم يرها منذ زمن طويل جدًّا. الشهران اللذان ابتعد فيهما

عن "باتنا" لم يؤثرا على تعلقه بها واشتياقه الدائم لها. بل على العكس، ساهم ابتعاده عنها في مضاعفة مشاعره تجاهها.
أمسك بصحيفة اليوم، فأدرك أنه السبت. اليوم الذي تعبد فيه "سوميترا" شجرة البيبال. ليس في هذا السبت، على كل حال.
في اليوم السابق، وأثناء زيارته لمنزل "مريتونجاي"، التقى "راهول"، ابن "سوميترا". سأله عنها بطريقةٍ ملتويةٍ، فعرف منه أن أمه في "بومباي"، لزيارة زوجة شقيقها المريضة.
دخل "عارف" ليستذكر دروسه، وأمسك كتاب "كيف تتميز في مقابلات الخدمة المدنية"، محاولًا التركيز قدر الإمكان.
في صباح يوم شتوي بارد من عام 1993، عمَّت أجواء احتفالية بالبيت.
تبادل الأب حديثًا مع الجار، السيد "فيرما". قال باعتزاز:
- إنها محاولته الثانية فقط. لقد تجاوز العقبة الثانية بسلاسة. هذا حدث كبير، وبخاصة أنه اعتمد على نفسه تمامًا، ولم يلجأ للدروس الخصوصية. أنا متأكد من أنه سينجح في اختبار اللقاء الشخصي.
أحس "عارف" بالسعادة والامتنان، لكن مشاعر الخوف تغلَّبت عليه في لحظة.. ماذا لو خذلتُه وفشلت في اللقاء الشخصي؟
نجح "مريتونجاي" في الامتحان أيضًا. عاودا الدراسة معًا، استعدادًا للمرحلة القادمة. يتقابلان كل سبت، ويقوم كل منهما بطرح أسئلة اللقاء الشخصي المحتملة على الآخر.
في أحد تلك الأيام، وعند مغادرته لمنزل صديقه، رأى "راميش كومار" وهو يسحب صندوقًا كبيرًا من سيارته. كان من الواضح أنه ثقيل جدًّا، ويصعب حمله. بادره "عارف" بعرض المساعدة، فوافق على الفور. حملا الصندوق معًا إلى بيت "راميش". عندما ضرب الجرس، فتحت الباب فتاة في حوالي السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. نظر إليها "عارف" للحظةٍ خاطفةٍ، فأدهشه الشبه الشديد بينها و"سوميترا"، لكنها أصغر عُمرًا وأكثر طولًا وبياضًا. حيَّته بتهذيب، وأفسحت الطريق لهما للمرور. أومأ "عارف" ردًّا على تحيتها. قال "راميش":
- هذه ابنتي "كافيتا". تدرس في "أنديرا غاندي باليكا فيديالايا" في "هازاريباج".
وضعا الصندوق على الأرض. لاحظ أصص الأقحوان والورد البلدي المتجاورة في الشرفة. أجابه:
- ممتاز.
أضاف:
- حسنًا يا عمي، فلتأذن لي بالانصراف.
جر "راميش" مقعدًا بلاستيكيًا أحمر، وقال:
- اجلس يا "عارف". سنشرب الشاي معًا.

بعد عشر دقائق، عاد "راميش" بكوبين من الشاي، وبعض البطاطس الشيبسي في صحنٍ من الصيني الأبيض. رن جرس التليفون في الغرفة المجاورة. سمع "عارف" صوت "كافيتا" وهي تجيب المتصل:

- آلو؟

سأله "راميش" عن امتحانه ودروسه، ولكن قبل أن يجيب، سمع الاثنان صوت بكاء "كافيتا". هرع "راميش" إلى ابنته، وتبعه "عارف". تناول الأب السماعة، وأنصت إلى المتحدث. ارتسم الوجوم على وجهه، فيما راحت "كافيتا" تبكي بحُرقة. وضع "راميش" السماعة. سأله "عارف" بتردد:

- ما الأمر؟

- هناك أعمال شغب بين الهندوس والمسلمين في "بومباي". ذهبت "سوميترا" إلى السوق صباحًا، ولم تعد. المدينة تحت حظر تجول شامل، وهناك أوامر بإطلاق النار على كل من يخترق الحظر. لا أحد يعلم مكانها.

اضطرب "عارف"، وعجز عن إظهار مشاعره. تعمد إخفاء عواطفه وكبتها. جلس مع "راميش" و"كافيتا" لنحو ساعتين، محاولًا مواساتهما. غادر بعدها إلى البيت، محطمًا.

هجره النوم في تلك الليلة. أمضى الليل على سطح البيت، وهو يدعو الله لسلامة "سوميترا". بمجرد بزوغ الفجر، توجه "عارف" إلى السنترال، واتصل بـ"راميش كومار".

أخبره "راميش" بعودة "سوميترا" إلى منزل أهلها، وكيف أنقذها رجل مسلم قبل أن تتعرض للقتل على أيدي مجموعة من مثيري الشغب. قال له بأنه سيتوجه إلى "بومباي" لإعادة زوجته إلى البيت.

دفع "عارف" ثمن المكالمة لصاحب السنترال، وغادر وهو يطلق تنهيدة ارتياح. مرَّ بمعبد "شيفا" في طريقه للبيت. أمام دكَّان مغلق، جلس شحَّاذ نحيل، يحمل سلطانية من الألمونيوم. أفرغ "عارف" جيوبه من كل النقود التي يحملها، ووضعها في سلطانية الرجل، الذي أخذ يدعو له بحرارة.

ابتعد "عارف" وهو يدندن بأغنيةٍ قديمةٍ لـ"كيشور كومار":

- لا أعرف كم أحبك

لكنني أعرف أنني لا أستطيع العيش دونك

بعد ثلاثة أيَّام، سمع من "مريتونجاي" أن "سوميترا" عادت إلى "باتنا". لم يذهب "عارف" إلى منزلها. قرر التوقف عن زيارة "مريتونجاي". ذكر نفسه بأن "سوميترا" امرأة متزوجة.

9

أحسَّ "عارف" بالعذاب لأنه حرم نفسه من رؤية "سوميترا". مرَّت الشهور كما لو كانت قرونًا. شعر أيضًا بأن انتظار نتيجة امتحان الخدمة المدنية مسألة محطمة للأعصاب.

قُذِفَت صحيفة ملفوفة بدوبارة إلى الشرفة. تسارعتْ نبضات "عارف"، وهو يفتح صفحات الجريدة. لم يجد اسم "مريتونجاي". مر على قوائم الأسماء، بإصبعٍ مرتعشة، عدة مرات، لكنه لم يعثر على اسمه هو أيضًا. لم ينجح في الامتحان.

رفض "عارف" مغادرة حجرته لعشرة أيام. ظل يفكر في فشله. أحس بأنه لن ينجح أبدًا، ولن يرى اسمه مسبوقًا بلقب "مأمور".

على العكس من "عارف"، لم يشعر الأب باليأس أو الضيق، بل تصرف بطبيعته المعتادة. حرص على تهدئة "عارف" ومواساته. أخبره بأن عليه ألّا يقلق بشأن محاولته غير الناجحة. في اليوم الحادي عشر، جرَّ كرسيًا وجلس عليه، قريبًا من "عارف"، واضعًا يده على رأسه. قال له: - أعرفُ أنك حزين بسبب نتيجة امتحان الخدمة المدنية. ولكن عليك ألا تفقد الثقة بنفسك يا بُني.

نظر إليه "عارف" مبتسمًا. ابتسم الأب بدوره، وقال بيتًا شِعريًا بالأردية، لـ"عظيم دهلوي": - وحدهم الفرسان يسقطون عن صهاء خيلهم في ساحات المعارك

كيف لرضيعٍ يحبو على الأرض أن يسقط؟

أضاف:

- عليك أن تكرر المحاولة. لا تفقد الأمل.

ناوله العدد الجديد من الصحيفة اليومية، وقال:

- لقد أعلنوا عن تاريخ انعقاد امتحانات الخدمة المدنية القادمة. سجل اسمك وأدِّها من جديد. أنا متأكد من نجاحك هذه المرة.

كان لحديث والده المشجع أثر كبير على تحسين نفسيته. تناسى إحباطه ويأسه، وبدأ الاستعداد للامتحان القادم.

في ساعةٍ مبكرةٍ صباح يوم سبت، جاءه "مريتونجاي"، يحمل ظرفًا بُنيًا في يده. قال له، وهو يجلس على السرير: - هذه أوراق التسجيل للامتحان التمهيدي. ذهبتُ إلى "آشوك راجبات" لأشتريها، وأحضرتُ لك نسخة أيضًا.

- شكرًا يا صديقي.

- وسوف نعتمد طرقًا أخرى مختلفة للدراسة هذا العام.

- نعم، فكرتُ أنا أيضًا في طرق جديدة. ربما علينا التركيز على العلوم والتكنولوجيا هذه المرة، أكثر من..

قطع دخول الجدة حديثهما. قام "مريتونجاي" بسرعة، وأحنى ظهره كي يلمس قدميها، احترامًا. قالت له: - باركك الله يا بُني. سأذهب لأحضر لك الحلوى يا "مريتونجا".

تعجز الجدة عن نطق اسمه بطريقةٍ صحيحة، وتزيل الياء الأخيرة منه على الدوام. يحب "مريتونجاي" طريقتها في مناداته. قال لها: - كلا يا جدتي. عليَّ أن أذهب الآن. في المرة القادمة اصنعي لي حلوى الحمص الأصفر التي أحبها.

لمس قدميها مرَّة أخرى، مودِّعًا. وقف "عارف" في الشرفة، وشاهد معاناة "مريتونجاي" وهو يحاول تشغيل الموتوسيكل. بعد عدة محاولات، انطلق الموتوسيكل مخلفًا وراءه دخانًا كثيفًا.

عاد "عارف" إلى حجرته، ونظر إلى ساعة الحائط. عليه أن يُسرع بالذهاب إلى البنك ليدفع مصروفات الامتحان القادم.

حين وصل إلى نافذة الخدمات داخل "البنك المركزي الهندي"، كان الموظف قد وضع لافتة خشبية أمامه، تحمل كلمة "مغلق". نظر "عارف" إلى الموظف بعينين متوسلتين. نظر إليه الموظف أيضًا، ولكن باشمئزازٍ وضيق، وقال مؤنبًا: - ألا تعرف أن العمل في البنوك ينتهي في الثانية عشرة ونصف أيام السبت؟

كان "عارف" على وشك الانصراف، حين لمح "راميش كومار" قادمًا باتجاهه. ربما رآه يقف أمام النافذة. بادره بالسؤال: - هل لديك خدمة تنهيها في البنك؟

- نعم يا عمي. جئتُ أسدد مصروفات امتحان.

التفتَ "راميش" باتجاه الموظف، وقال له:

- شريفاستافا"، انهِ له الأوراق المطلوبة. مصروفات لصالح...

قال "عارف":

- مصروفات الخدمة المدنية؛ ها هي التفاصيل.

أخرج ورقةً من جيبه، ناولها لـ"راميش كومار".

قال الموظف بانزعاجٍ بالغ:

- لكن الخزنة أقفلتْ بالفعل يا سيدي.

- لا مشكلة. قم بعمل تحويل من حساب المدخرات الخاص بي. حين تنتهي، أرسل لي الإيصال في مكتبي.

وضع "راميش" ورقة "عارف" الخاصة بالتفاصيل على مكتب الموظف. التفت إلى "عارف" وقال له: - هيا بنا إلى مكتبي.

المكتب عبارة عن حجرة صغيرة من الخشب والزجاج. به كرسي دوار، أسود اللون، ومقعدين معدنيين للزوار، عليهما وسائد ظهر مريحة. سأله

“راميش كومار” عن والديه وإخوته. تبادل معه الحديث، إلى أن جاءهما أحد العمال بالإيصال المطلوب، بعد عشر دقائق.

كان “عارف” على وشك المغادرة، حين وضع “راميش” حقيبة من قماش الخيش فوق طاولة المكتب. قال له: - “عارف”، هل يمكنك توصيل هذه الحقيبة إلى زوجتي؟ عليَّ أن أغادر الآن إلى “كاجاريا” لأحضر حفل زفاف. لا يمكنني المرور بالبيت. الوقت ضيق.

- نعم، بالطبع يا عمي.

ما إن تفوه بذلك، حتى لعن نفسه على موافقته، لكنه - في الوقت ذاته - كان سعيدًا بقُرب رؤيته لـ”سوميترا” عقب شهور طويلة.

مدَّ “عارف” يده ليدق جرس باب “سوميترا”، حين سمع صوتها الغاضب وهي تقول بغيظ: - بالنسبة لـ”راميش” تحتل أخته دائمًا المرتبة الأولى. أدركُ ذلك منذ اللحظة التي دخلتُ فيها منزله. حتى الآن، لا تزال تتدخل في حياتنا..

فهم “عارف” أنها تتحدث إلى أحد على التليفون. انتظر بجوار الباب لثلث ساعة، والحقيبة بجواره، لكن “سوميترا” لم تتوقف عن الكلام. حين وضع إصبعه على الجرس، كانت تقول: - أنا أفهم تلك العاهرة جيدًا! وأعرف كيف أتعامل مع..

فتحت “سوميترا” الباب بعد لحظة، بوجهٍ متجهم. ما إن رأتْ “عارف”، حتى علت ابتسامة عريضة شفتيها، واختفى عبوسها تمامًا. كانت تلبس ساري من الشيفون الأحمر، وبلوزة دون كُمَّين، من اللون ذاته. انسابَ شعرها فوق كتفيها. جميلةٌ بشكلٍ مُذهِل. حاول “عارف” تجنب النظر إليها، لكنه فشل. تسارعت نبضاته، وبدأ يفقد السيطرة على نفسه. قال لها: - طلب مني عمي “راميش” توصيل هذه الحقيبة لكِ.

تلعثم قليلًا في تردد قبل أن ينطق كلمة “عمي”. قال لنفسه: “كيف أعتبره عمًّا وأنا أشتهي زوجته؟”.

دعته للدخول، بلطفٍ شديد. خلع الصندل من قدميه. فتحت باب الصالون إلى اليسار من المدخل. قالت له: - لم يكن هناك داعٍ لخلع الصندل.

ابتسم ولم يقل شيئًا. تأمل الحجرة التي عُلِّقت على جدرانها ثلاث لوحات زيتية من الفن التجريدي. الستائر والأريكة من اللون الأزرق. في ركنٍ من الحجرة، رف يرتفع عن الأرض بمسافةٍ قليلةٍ، تتجاور عليه تماثيل رخامية لعددٍ من الآلهة: “هانومان”، الإله القرد، و”جانيش”، الإله صاحب رأس الفيل، و”لاكشمي” إلهة الثراء. أحاطت الأزهار أقدامهم. انطفأت أعواد البخور، مخلِّفةً رمادًا أبيض. تعلو الرف لوحة للإله “كريشنا” ذي الجسد الأزرق، والوجه الباسم. في زيارته الأخيرة، لم يلحظ “عارف” هذه التفاصيل، لانشغاله حينها بالقلق عليها وتمني سلامتها.

طلبت منه "سوميترا" الجلوس، ثم خرجت من الغرفة، وعادت بعد قليل بصينية تمتلئ بالبسكوت والشيبسي والفول السوداني والكيك، وكوب ماء، وفنجانين من الشاي. وضعتها على الطاولة، وقربت أحد فنجانيَّ الشاي منه. قالت له: - لديَّ "شِكوى".

تعمّدت "سوميترا" استخدام الكلمة الأردية، لمعاتبته.

سألها متعجَّبًا:

- "شكوى"؟

- نعم، أشكو إليك إهمالك في السؤال عني عقب عودتي من "بومباي". أخبرتني "كافيتا" أنك كنت هنا حين اتصل أهلي للإبلاغ عن اختفائي. ظننتُ أنك ستسعد حين تعرف بأنني بخير، وأنني عدتُ بالسلامة، وأنك ستأتي للترحيب بي. كنتُ في وضعٍ خطيرٍ للغاية، كما تعلم.

- أعتذر "سوميترا جي"، ظننتُ أنكِ..

قاطعته مُصَحِّحة:

- "سوميترا" فقط. دون "جي".

قال باضطراب:

- حسنًا. "سوميترا".

حاول تغيير الموضوع، فأردف:

- كنتُ أتساءل عن إجادتكِ للأردية. أين تعلمتِ اللغة؟

- نشأتُ في بلدة ذات أغلبية مسلمة. في "إمداد نجر"، قريبًا من "جايا". تعلمتُ في مدرسةٍ تعتمد اللغة الأردية في تدريس موادها. في تلك الأيَّام، كنتُ أقرأ الكثير من المجلات والروايات الأردية.

- رائع..

رنَّ جرس الباب مرتين متتاليتين. صاح صوتٌ نسائي:

- "سوميترا جي"!

قالت لـ"عارف":

- لا بد أنها السيدة "ميشرا". سأعود خلال عشر دقائق.

أغلقت الباب وراءها بإحكام، لكنه تمكن من سماع حوارهما بوضوح. قالت الزائرة: - "سوميترا جي"، جئتكِ فور أن سمعتُ الخبر. هل تعرفين "بريملاتا"؟ كلا؟ ابنة السيد "تشوباي"! اسمعي.. إنها على علاقة بولدٍ من طبقة الـ"هاريجان"! تخيلي؟ فتاة محترمة من "البراهما" على علاقة بولدٍ من المنبوذين!

قالت "سوميترا":

- فعلًا؟ غير معقول.

- واسمعي.. ابنة "شرينات سينج" غير المتزوجة خضعت لعملية إجهاض! صدقيني. قسمًا بالإله.

سمع "عارف" صوت طفل يقول بلغة "بوجيبوري":

- ماما، عاد بابا من المكتب.
قالت الزائرة:
- حسنًا. "سوميترا جي"، عليَّ أن أذهب الآن. سنناقش هذه الأمور غدًا.
سمع "عارف" الباب وهو يُغلَق. بعد لحظة، دخلت "سوميترا" مبتسمة، وجلست على الأريكة. قالت لـ"عارف": - تنظم قصائد غزل بديعة.
- أين قرأتِ أشعاري؟
- في المفكرة التي تركتها معي حين أخذنا أبي للمستشفى.
- أشكرك. لكن موهبتكِ الشِعرية أعلى منى بكثير، وأفضل.
أضاف بتردد:
- هل يمكنكِ إلقاء بعض أشعارك؟
- أترغب حقًّا في سماع قصائدي؟
نظر إليها بتمعن، وهو يفكِّر: "جمالكِ في حد ذاته قصيدة بديعة". ابتسمتْ، فظهرت الغمازات في خديها. "يا إلهي!"، قالها "عارف" لنفسه وهو يقاوم رغبة مُلِحة في تقبيلها. قال بهدوء مصطنع: - نعم، من فضلك.
- داخل حانة الحُبِّ
كؤوسُ النبيذ تفيض بالعواطف
مزيجٌ من دموع عينيَّ المجنون
ودَمٌ من قلب "ليلى" الجريح
بهذه الأبيات، بدأتْ "سوميترا" الجلسة الشِعرية التي استمرَّت حتى الساعة الخامسة، حين أعلن "عارف" بتثاقل: - "سوميترا جي"، لديَّ موعد، ويجب أن أذهب الآن.
قالت مُصحِّحة، مرَّة أخرى:
- "سوميترا" فقط.
ابتسم قائلًا:
- آه نعم، حسنًا، "سوميترا".
- هل تأتي معي إلى السينما غدًا؟ زوجي غير موجود، وابني في بيت والدي. أرغب في مشاهدة الفيلم، وأخشى أن يُرفَع من السينما قبل عودة زوجي.
- نعم. لمَ لا؟
قال ضميره على الفور: "ما الذي تفعله يا عارف؟ لا جدوى من كل هذا". لكنه أسكتَ ضميره، وسألها: - أيُّ فيلم يا "سوميترا"؟
- "ساجان".
- هل ستأتين بمفرك؟
- نعم.
- ماذا عن ابنتكِ "كافيتا"؟
- قلتُ لك من قبل إنها تدرس في "هازاريباج".

- نعم.
في "ساجان"، يتنافس "سلمان خان" و"سانجاي دُت" على حُبِّ بطلة الفيلم "مادوري ديكشيت". أقبل الناس على مشاهدة الفيلم، وازدحمت قاعات العرض بالمتفرجين. قرَّرا أن يذهب "عارف" أولًا لشراء التذاكر، على أن تلحق به "سوميترا" لاحقًا.
في صباح اليوم التالي، توجَّه "عارف" إلى "سينما مونا" في العاشرة والنصف صباحًا. شعر بالإحباط حين رأى لافتة "كامل العدد" على شبَّاك التذاكر. وقف اثنان من محترفي السوق السوداء، يحملان مجموعة من التذاكر، ويناديان بصوتٍ هامس: "الصالة بثلاثين، والشرفة بعشرين". أحسَّ "عارف" بأن السعر مرتفع، لكنه اضطر لشراء تذكرتين، لمقعدين في الصالة، من أحدهما. بعد بعض المساومة، دفع خمسين روبية بدلًا من ستين.
بدأ الصراع في داخله من جديد. هل خروجه مع "سوميترا" خطأ؟ قال لنفسه أخيرًا: "إن مشاهدة فيلم في السينما مع امرأة ليس خطيئة". ثم إن دوره هنا هو مرافقتها فقط، حتى لا تضطر للذهاب بمفردها. انتظرها في الجهة الشرقية من ميدان "غاندي"، أمام قاعتيَّ العرض "مونا" و"إلفينستون".
ميدان "غاندي" هو مكان فسيح. مساحةٌ شاسعةٌ تتوسط "باتنا"، تُجرى فيها كافَّة مناسبات المدينة، السياسية والدينية ومعارض الكتاب، ولذلك يُطلَق على الميدان لقب "رئة باتنا". شهد المكان حركات سياسية عدَّة، ساهمت في تغيير مصير البلد بأكمله.
وقف "عارف" في أحد جوانب الميدان. أدهشته قدرة المكان على توفير مساحات متنوعة لروَّاده، للاستراحة واللهو والاعتراض وعقد صفقات عمل. الأهم من كل ذلك أنه مكانٌ يحتمي فيه الجميع من قسوة المدينة التي لا يحكمها قانون. بالنسبة لكثيرين، يبدأ اليوم وينتهي في ميدان "غاندي".
كان اليوم حارًّا. جلس "عارف" على مقعدٍ أسمنتي، تحت ظلال شجرة "بيبال". على بُعد خطوات، جلس قارئ كَف مع أحد زبائنه. على يساره، وقف نحو عشرة أشخاص بلافتاتٍ حمراء كُتِب عليها "الموت شنقًا لمجرمي سانجابورا" و"أوقفوا قتل الفقراء" و"تسقط الرأسمالية" و"تسقط الديمقراطية الزائفة" و"عاش الانقلاب". وقفت امرأتان تحمل كل واحدة منهما صورًا فوتوغرافية لرجالٍ نُحِرَت رقابهم. أدرك "عارف" أنهم من مناصري الحزب الشيوعي الهندي (الماوي). كان قد قرأ في الصحف أنهم يجتمعون في الميدان منذ يومين، اعتراضًا على قتل ٣٥ شخصًا ينتمون للطبقات الدُنيا، قتلهم أصحاب الأراضي الأغنياء، الخارجين عن القانون، في "جيهان آباد".
خلت الشوارع، المتفرعة من الميدان المستدير، من المارَّة، بسبب الشمس الحارقة. حتى الطيور والعصافير مكثت في أعشاشها. راح باعة

الآيس كريم والمياه المثلجة يضربون الهواء المحيط ببضاعتهم لإبعاد الذباب. لم يقف أي زبون لدى بائع المجلات الإباحية. اجتمع عدد من سائقي التوكتوك معًا، يلتهمون بتلذذ كُريات الـ"ساتو" المعدة بالبصل والفلفل الأخضر الحار. بينما خلت الشوارع، تكدَّس الناس أمام أبواب السينما، متحملين حرارة الشمس.

بعد نصف ساعة، توجه "عارف" إلى مدخل السينما. لمح "سوميترا" على الفور. كانت مُلفتةً للنظر، في ساري بنفسجي أنيق. تبادلا الابتسام وبعض الكلمات القليلة، ودخلا القاعة. عقب جلوسهما، أحسَّ "عارف" ببعض القلق، وتلفت حوله بشيءٍ من التوتر. ماذا لو رآه أحد معارفه مع "سوميترا"؟ ماذا لو أبلغ أحد والده؟ ماذا لو حدثت فضيحة؟

التفت إلى جواره، فرأى "سوميترا" تنظر إليه، وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيها. تلاشى خوفه وقلقه على الفور.

ما إن بدأت الأغنية الرئيسية للفيلم حتى فقد الجمهور تحفظه، وتجاوب معها بالتصفير. شعر "عارف" بدفء لمسة يدها على يده. اضطرب بشدة، وتصبب عرقًا. تنفَّس بعمق، فاستنشق رائحة عطرها. ذكَّره عبيرها برائحة الشتاء ومنظر قمم الجبال المكسوَّة بالثلج، دون أن يعرف سببًا لذلك. لم يستوعب ما يحدث على الشاشة. سيطرت عليه مسائل أخرى، مثل رائحة "سوميترا" والتخطيط للمسةٍ "غير مقصودة" أخرى.

بعد انتهاء الفيلم، وخلال نزولهما سلم قاعة العرض، انزلق طرف الساري عن كتفها، كاشفًا عن صدرها الممتلئ عبر الفتحة الواسعة للبلوزة. لمح "عارف" عددًا من الأعين المحدقة في جسدها، وسمع بعض الضحكات المكتومة. التفت إليها بغيظ، وقال باندفاع، بصوتٍ هامس: - أظن أنه ينبغي عليكِ التوقف عن ارتداء بلوزات دون أكمام.

نظرت إليه في دهشة، لكنها لم تقل شيئًا. ابتسمت، وعضَّت شفتها السفلى. حين غادرا السينما، كان الوقت عصرًا، والحرارة شديدة. تكرَّر في رأسه سؤال واحد: "هل تعمَّدت سوميترا لمس يدي يا تُرى؟".

سارا باتجاه موقف التوكتوك. دون تخطيط، وجد نفسه يقول لها: - "سوميترا"، أنا أحب سيدة متزوجة.

لم يفهم هو نفسه ما الذي دفعه لقول ذلك؟ اقترابه الشديد منها داخل القاعة المظلمة؟ دفعه ذلك للجنون. لم يعد بوسعه السيطرة على نفسه.

سألته، دون أي أثر للدهشة في صوتها:

- حقًّا؟

- واسمها "سوميترا".

التفتت إليه بعينين حزينتين، وقالت بهدوء:

- لنركب التوكتوك. أودُّ العودة إلى البيت على الفور.

سارت بخطوات سريعة، وتبعها "عارف". اعترضت شحَّاذة طريق "سوميترا". ظهرت فجأة. كانت تلبس ثيابًا قذرة، مهترئة وممزقة. عظام وجهها ناتئة، وعيناها غائرتان. اقتربتْ من "سوميترا" أكثر، ونظرت إليها بطريقةٍ غريبة، ثم أطلقت ضحكات صاخبة. فكَّر "عارف": "إنها مجنونة بلا شك". حاول بائع خيار طردها: - ابتعدي من هنا يا مجنونة! هيا!

رددت المرأة من بين ضحكاتها:

- المال.. أعطوني المال.. أعطوني!

صاحت "سوميترا" بلوعة:

- "مايا"؟ "مايا"! ما الذي حدث لكِ؟

"سوميترا" تعرف المرأة! فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها ورقة بمئة روبية. خطفتها المرأة من يدها، بحركةٍ سريعةٍ، وسارعت بالهروب. اختفت داخل زقاق قريب.

اتفق "عارف" مع أحد سائقي التوكتوك على الوجهة، وطلب من "سوميترا" الركوب.

كان وجهها غارقًا في دموعٍ غزيرة.

عصر يوم خميس، كان "عارف" في غرفته بمفرده. أسند ظهره إلى وسادتين على فراشه، وهو يقرأ افتتاحية صحيفة "هِندو"، التي كانت قراءتها جزءًا من الاستعداد لامتحان الخدمة المدنية. أمسك بقلم وردي لتظليل العبارات المهمة.

حين رفع رأسه، رأى "سوميترا" على باب الغرفة. كانت تلبس ساري من اللون الأخضر الداكن، وأسفله بلوزة محتشمة، بكُمين طويلين.

حين قام بتوصيلها إلى بيتها في ذلك اليوم، ودَّعته بعينين دامعتين، ودخلت بيتها وهي تركض، دون أن تدعوه للدخول. استعاد مواقف ذلك النهار، مرَّات كثيرة، لكنه لم يفهمها بتاتًا. مَن تكون تلك المرأة التي تُدعى "مايا"؟ وكيف تعرفها "سوميترا"؟ وتلك اللمسة من يد "سوميترا"، وعطرها الخلاب، والساري البنفسجي الأنيق.

فتح فمه ليحييها، لكنها أشارت له بالتزام الصمت. اقتربت منه. قام واقفًا. حدَّقتْ به، ثم أمسكت يده اليمنى، ودسَّت ظرفًا في كفِّه، ثم طبعت قبلة سريعة على خده، وغادرت الغرفة دون كلمة واحدة.

أحسَّ "عارف" بضعفٍ في جسده، واضطراب في معدته. خرج من حجرة النوم، ودخل غرفة المذاكرة. أقفل الباب، وجلس على الكرسي، ثم فتح الظرف بيدين مرتجفتين، وبدأ في قراءة الخطاب: "عزيزي "عارف"

تعجبتُ من بساطتك في مصارحتي بما في قلبك، ذلك اليوم. منعتني الصدمة حينها من قول أي شيء. لاحقًا، قررتُ تجاهل كل ما قلتَه في ميدان "غاندي"، وأن أتوقف عن لقائك تمامًا. لكن الاضطراب الذي أشعر به داخل قلبي أجبرني على كتابة هذا الخطاب.

لا بدَّ أنك تتساءل عن المرأة المجنونة التي رأيناها قريبًا من موقف التوكتوك. لذلك، دعني أبدأ بحكاية "مايا" أولًا.

قبل ستِّ سنوات، تعرَّفتُ إلى "مايا بانرجي" في "جامشيدبور". لا أزال أتذكَّر ابتسامتها الفاتنة، وعينيها المكحولتين. واللكنة البنجالية التي تطعِّم لغتها الهندية. صرنا صديقتين. كانت تسكن قريبًا من البيت الذي استأجرناه في "جامشيدبور". كان "راميش" مشغولًا في عمله، معظم الوقت، ولذلك كنت أخرج مع "مايا". كنَّا نتسوَّق معًا، ونشاهد الأفلام معًا. هي مَن عرَّفتني إلى أعمال "ساتياجيت راي" السينمائية، وروايات "آن تايلر" و"إدنا أوبرايان". كانت طاهية ممتازة، ولا يزال طعم السمك بالمستردة الذي كانت تعده عالقًا في ذاكرتي.

بعد عامٍ من صداقتنا، سمعتُ امرأتين من سُكَّان الحي تتحدَّثان عنها بسوء. لم أصدِّق ما سمعته. واجهتُ "مايا"، فأنكرت ما قالتاه، وأخبرتني أنهما تغاران منها. لكنني في اليوم التالي مباشرةً اكتشفت أنها كذبت عليَّ.

كانت "مايا" تخون زوجها منذ أشهر عديدة. كان زوجها مندوب شركة شهيرة للأدوية، وكان كثير السفر خارج "جامشيدبور". دأب شاب صغير على زيارتها، في غيابه.

مساء أحد الأيام، مررتُ بمنزلها لأعيد لها كتابًا، فضبطتها مع ذلك الشاب. عدتُ إلى بيتي دون أن أقول شيئًا. قلتُ لنفسي إنها امرأة رخيصة.

لم يتوقف عقلي عن التفكير بها وبما تفعله. كان لها مَعَزَّة خاصَّة لديَّ، رغم كل شيء. لم يكن بوسعي مقاطعتها تمامًا. لا شك في أن لديها أسبابًا مقنعة تبرر تصرفاتها، وعدم احترامها لزواجها. الزواج، الذي تعلَّمنا أنه رباط مقدس. كانت امرأة تتسم برجاحة العقل. أردتُ أن أسألها، وأن أفهم منها أسبابها. لكنني لم أستطع. حين استجمعتُ شجاعتي، بعد مرور يومين، وذهبتُ إليها، كان باب البيت مقفلًا. قال صاحب العقار إنهم رحلوا. لم يعرف أحد من الجيران شيئًا عن "مايا" وأسرتها. لأشهرٍ طويلة، مزَّقني القلق على مصيرها، وانتظرتُ عودتها، لكنها لم تعد أبدًا.

لبضع سنواتٍ بعدها، كنتُ أتساءل: "كيف يمكن لامرأة في منتصف الثلاثينيات أن تقع في غرام فتى يكبر ابنها بقليل؟".. والآن، ها أنا أوشك على السَير على الدرب نفسه الذي سلكته "مايا".

أمّا عن حكايتنا، فقد بدأتْ في اليوم الذي تقابلنا فيه في حديقة "نهرو بارك". لا أزال أتذكر تفاصيل ذلك اليوم، بوضوح.

وصل أبي لزيارتي يومها، قادمًا من "كاتيهار". أحس بأنه ليس على ما يرام. أخبرتُ "راميش" بذلك، لكنه تعامل مع مرض أبي باستخفافٍ شديد، وقال بأنه مجرد إرهاق بسبب تقدمه في العُمر. طلبتُ منه أن يأخذنا للطبيب، لكنه رفض بإصرار، وذهب - عوضًا عن ذلك - لتوصيل أخته إلى محطة القطار، بسيارته، ولم يعد لأكثر من ساعة. غضبت، وقررت اصطحاب

أبي للمستشفى بمفردي، بتوكتوك. لم أعثر على واحد في الطريق الرئيسي، واضطررنا للسير إلى البوابة الرئيسية للحديقة، كي نركب من هناك. لم نجد شيئًا أمام الحديقة كذلك. طلب مني أبي أن آخذه داخلها، آملًا أن ينعشه هواؤها النقي. وأنت تعلم بقية الأحداث.

في البداية، كان الامتنان هو المسيطر على مشاعري. أحسستُ تجاهك بالعرفان لإنقاذك حياة أبي. بعد ثلاثة أيام، حين خرج أبي من المستشفى، ألقيتُ نظرةً على مفكرتك الزرقاء وديوان الشِعر. بدأتُ بأشعار "مؤمن"، وأنهيتُ الديوان في ساعتين. ومن باب الفضول، فتحتُ المفكرة. في الصفحة الأولى، طالعتني صورتك الفوتوغرافية، بالأبيض والأسود، مرتديًا سترة چينز. تأملتُ خصلاتك الطويلة، الشبيهة بقَصَّة شَعر "أميتاب". بدوتَ لطيفًا للغاية.

في الصفحات التالية، رأيتُ الأبيات التي دوَّنتها من أشعار "ذوق" و"غالب" و"مؤمن" و"مير" و"داغ" و"عظيم آبادي"، وأنا أحب شعراء الأردية هؤلاء.

في الصفحات القليلة التي بعدها، قرأتُ أوصاف فتاة تدعى "سِمران". خمَّنتُ أنها البنت التي أحببتها في طفولتك. قصائدك عنها جميلة، وأعجبتني، لكنني في الوقت ذاته تفاجأتُ بغيرتي من "سِمران".

مساء اليوم التالي، فتحتُ مفكرتك من جديد، وقرأتُ بيتًا لـ"عظيم آبادي":

الصمت والهدوء يزيدان من عذابك

عذِّب نفسك يا قلب.. لتنال السلام

شيءٌ ما في ذلك البيت أثار اضطرابي. وشككتُ بأنني بدأتُ أعجب بك.

لأسابيع، لم ألمس مفكرتك. خفتُ أن أحبك لو استمريتُ في القراءة.

ذلك الأحد، جاءتني "نيتا"، شقيقة زوجي الوحيدة. اندلع بيننا شجارًا، حول موقف تافه. وكالعادة، وقف "راميش" في صف أخته. أحسستُ بالغضب والمهانة، فدخلتُ حجرتي، وأغلقتُ الباب ورائي. حين خرجت بعد ساعة، كان البيت خاويًا. تناولتُ مُسَكِن "ديسبرين"، للصداع الشديد الذي هاجمني. عدتُ إلى حجرتي، ونمتُ قليلًا. استيقظتُ بعد ساعتين. كان صداعي قد اختفى. أعددتُ لنفسي بعض الشاي بالزنجبيل، وجلستُ أشربه وأنا أقرأ مفكرتك. لجأتُ للمفكرة تلقائيًا، في اللحظة التي شعرتُ فيها بالحزن والإحباط.

قرأتُ آراءك السريعة، حول القضايا الاجتماعية المعاصرة، وحول المرأة والدين والثقافة والدولة، وأعجبتني. كتبتَ تقول: "لا ينبغي أن تبحث عن تبرير لاحترامك للمرأة. كونها امرأة سبب كافٍ كي تعشقها وتحبها وتحترمها".

قرأتُ أيضًا قصائد النثر التي كتبتها حول الحب والعلاقات والمبادئ الإنسانية. لمستْ قلبي، وأسعدتني.

تزايد إعجابي بك.

رأيتك عدة مرات بعد ذلك في حديقة "نهرو". كنتَ بصحبة "مريتونجاي". أردتُ أن آتي إليك، وأتحدث معك، وأشكرك على مساعدتك. أردتُ أن أخبرك بمدى استمتاعي بكتاباتك. لكنني لم أستطع فعل شيء من ذلك. على العكس، كلما لمحتك، بادرتُ بالاختباء خلف أي شجرة.

لستة أشهر، أعدتُ قراءة مفكرتك، مرات ومرات. إلى أن أدركتُ أن الإعجاب تحول إلى حُب. خشيتُ لقاءك.

رأيتك بعد عامين، وجهًا لوجه. من منزلنا الجديد الذي استأجرناه في "مستعمرة البنك". كنتَ تنظر إليَّ من نافذة غرفة "مريتونجاي". منذ تلك اللحظة، فقدتُ السيطرة على نفسي.

كنتُ أخشى اليوم الذي ستنطق فيه بالكلمات التي قلتها؛ لكنني، في الوقت ذاته، كنتُ أنتظر تلك اللحظة.

والآن، عليَّ أن أعترف بأنني أنا أيضًا أحبك. لكن لديَّ حدود لمشاعري. ليس بإمكاني تخطي الحدود الأخلاقية التي وضعتُها لنفسي. لذلك، أرجو ألّا تطلب مني شيئًا من حق زوجي وحده.

أرجو أن تعدني بأن تحافظ على حبِّنا مقدسًا، وأنك لن تلطخه بالرغبات الجسدية".

حبيبتك "سوميترا"

10

بدأت إجازة المدارس والجامعات. قرَّرت أسرة "عارف" قضاءها في "جمالبورا"، بعد أن عاد الهدوء والأمن للبلدة. أعلن "عارف" عن نيته عدم الذهاب معهم، وقال بأنه بحاجة إلى استغلال كل يوم في الاستذكار والاستعداد لامتحانه القادم.

في اليوم الذي سافرتْ فيه أسرته، زاره "مريتونجاي" وأخبره بأنه هو أيضًا بمفرده في المنزل، ليومين. قال بأنه سيستأجر جهاز فيديو، ليشاهدا بعض الأفلام معًا. أضاف محاولًا إقناعه:

- علينا أن نستعيد طاقتنا، ونمرح قليلًا.

مساءً، وصل جهاز الفيديو إلى منزل "مريتونجاي". جاء به "آناند"، أحد أقاربه، ووضعه على الطاولة المجاورة للتليفزيون الملوَّن. سأله "مريتونجاي":

- هل أقفلتَ الباب جيدًا؟ لو عرف أحد من الجيران بأننا أحضرنا جهاز فيديو، فسوف تتحوَّل الحجرة إلى سوق سمك! لن يضيع أحد فرصة مشاهدة أفلام مجانية. هل رآك أحد وأنت تدخل به؟ سوف يفسدون ليلتنا.

- أف! لا تقلق يا أخي! لقد وضعتُ الجهاز داخل حقيبة سفر. كيف سيعرفون ما بداخلها؟

أشار بيده إلى حقيبة سفر بُنية على الأرض.

- عظيم، وهل أحضرتَ دقيق الـ"ساتُّو"؟

قذف "آناند" عبوة "ساتو"، من ماركة "شري كمال"، فوق الأريكة، قريبًا من "مريتونجاي".

كان "مريتونجاي" قد بدأ في إحراق أقراص روث البقر، في الشرفة، ليعد عليها معجنات "ليتِّي"، وانتهى من عجن الدقيق. أفرغ محتويات عبوة الـ"ساتو"، وخلطها بالبهارات والأعشاب والملح وزيت الخردل. قام بحشو كريات العجين بهذا الخليط، ثم وضعها بين الرماد الساخن في الشرفة. أخذ يقلبها بين الحين والآخَر، بسيخٍ طويل، حتى لا تحترق. في المطبخ، راح "آناند" يشوي الباذنجان والطماطم لإعداد السلطة. انتشل "مريتونجاي" كريات الـ"ليتي"، ومسح عنها الرماد، ثم سكب عليها بعض السمن. قُشِّر الباذنجان والطماطم، وهُرِسا، وأضيف لهما الثوم والفلفل الحار والملح.

حين رأى "عارف" الطعام، قال لنفسه بأنه لا يوجد طبق يضاهي في لذته الـ"ليتي" بسلطة الباذنجان. سال لعابه لمنظر الطبق المغطى بالسمن. ولأن "عارف" لم يساعد بشيء في إعداد الطعام، فقد تولى غسل الأطباق والأكواب، وملأ إبريقًا من ماء الفلتر.

تناولوا الطعام في ثلث ساعة. تجشأ "آناند" بتلذذ، واعتدل على مقعده المريح، قائلًا:
- بعد وجبة طعام ساخنة، مليئة بالتوابل الحارة، يحتاج الإنسان إلى فيلم ساخن وحار أيضًا.
قام بتشغيل التليفزيون. ظهر عنوان الفيلم على الشاشة "بنات جائعات".
ظهرت ثلاث فتيات أجنبيات، جميلات، بصدورٍ كبيرة ومؤخرات مستديرة، على الشاشة. تخلَّصن من ملابسهن بسُرعة. ثم ظهر رجل بشعر بُني، وإمكانيات جسدية عالية، وبدأ بمعاشرتهن جنسيًا، واحدة تلو أخرى.
كانت التجربة بأكملها جديدة تمامًا على "عارف". سمع بالطبع عن الأفلام الإباحية، لكنه لم يدرك أنها لا تترك شيئًا للمخيلة. أحسَّ بجفافٍ في حلقه، وأن جسده يحترق. لاحظ أن عينا "مريتونجاي" مثبتتان على الشاشة، وأن جبينه يتصبب عرقًا. تابع "آناند" الفيلم، وقد فاضَ وجهه بالبهجة.
بعد عشر دقائق تقريبًا، تبادل الرجل والفتيات الأوضاع، وبدؤوا يمارسون الجنس بأفواههم. سألهما "عارف" بدهشة:
- ما هذا؟
ضحك "مريتونجاي" وأجاب:
- حركة تُدعى ٦٩ يا صديقي.
لكن المشهد أثار اشمئزاز "عارف". أحس بغثيانٍ شديد. سارع بالتوجه إلى الحمام. تقيأ الطعام الذي تناوله قبل قليل. تمضمض وغسل وجهه، ثم قام بتنظيف آثار القيء.
قال لصديقه بأنه سيعود إلى البيت. قبل أن يرد "مريتونجاي"، فتح الباب وغادر الشقة. سمع الباب وهو يغلق وراءه. خلال سيره، راح يردد بصوتٍ هامس:
- أستغفر الله.. أسألك التوبة يا رب.. أستغفر الله..
في تلك الليلة، حلم بـ"سوميترا". كانت تستلقي إلى جواره، عارية، على الفراش. مارسا معًا كل ما شاهده في الفيلم.
صباحًا، كان إزاره مبلَّلًا. شعر بالذنب لأحلامه القذرة. أحسَّ بصداعٍ شديدٍ، وبانسدادٍ في أنفه. قام بتسخين بعض الماء، وغلى فيه شايًا مع قطع الزنجبيل، وتناوله. كان بحاجة لاستنشاق مرهم "فيكس".
كانت الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق. الشمس في الخارج حارقة. حرَّكت مروحة السقف هواءً دافئًا. فوق الطاولة، كتاب مفتوح، حول الإدارة العامَّة. كان "عارف" ينوي قراءة فصل حول تسلسل "ماسلو" الهرمي للاحتياجات، من الحاجات الفسيولوجية، وحاجات الأمان، والحاجات الاجتماعية، والحاجة للتقدير، والحاجة لتحقيق الذات. ساءل نفسه فجأة: "ما الذي جعلني أشتهي جسد سوميترا؟" قال لنفسه بأن اشتهاءه لها يدخل

ضمن احتياجاته النفسية. كان مشتتًا، وفشل في التركيز، فأغلق الكتاب في نهاية الأمر.

أخرج الراديو الأسود الصغير، وضبط مؤشِّره على محطة "فيفيد بارتي"، التي كانت تذيع "حِل عُقَد قلبك ولا تصمت.. غَنِّ أغنية"، الرائعة الكلاسيكية للمطربة "لاتا منجشكر". رفع الصوت. كانت الأغنية التالية من فيلم "آرادانا". "جسدك يُسكرني.. حبك جنَّني.. وأخاف أن أأثم معك". استعاد "عارف" مشهد الأغنية من الفيلم، حين يعانق البطل "راجيش كانَّا" حبيبته "شارميلا تاجور"، شبه العارية. تداخلتْ صوَر "شارميلا" و"سوميترا". رأى "عارف" "سوميترا" وهي تقترب منه بأقل القليل من الثياب.

أغلق الراديو، وتناول الرواية التي يقرأها منذ عشرة أيام، "الحب في زمن الكوليرا". بعد صفحتين، توقف لإعادة قراءة أحد المقاطع:

"خلعت عنها البلوزة التافتا، المطرزة بالخرز، وألقتْ بها عبر الحجرة. على المقعد الكبير في الرُكن، قذفتْ بالصديري الداخلي، فوق كتفها، على الجهة الأخرى من السرير. بحركةٍ واحدةٍ، أزالت تنورتها الطويلة المكشكشة، ومشد الجوارب، الساتان، وجوارب الحداد السوداء. رمتْ كل شيء على الأرض، إلى أن صارت الأرض مغطَّاة ببقايا وآثار حِدادها. فعلت ذلك باستمتاعٍ شديدٍ، وبوقفاتٍ محسوبة، حتى بدتْ قذائف القوَّات العسكرية، في الخارج، التي ترجُّ المدينة رَجًّا، وكأنها توجِّه لها التحيَّة. حاول "فلورنتينو آرثيا" معاونتها في حَلِّ خيوط المشد الداخلي، لكنها تحاشت ذلك بحركةٍ حاذقة، فخلال السنوات الخمس الماضية من التفاني الزوجي، تعلَّمت الاعتماد على نفسها، في جميع مراحل الحُب، بما في ذلك المراحل التمهيدية، دون اللجوء إلى أحد. ثم خلعت سروالها المصنوع من الدانتيل. انزلق فوق ساقيها بحركاتٍ سريعةٍ تليق بسبَّاح؛ أخيرًا، كانت عارية تمامًا".

انتابته رغبة محمومة، وهو يقرأ الفقرة، إلى أن بدأ يشعر بالاختناق. كان هو "فلورنتينا آرثيا"، أما الأرملة "ناثاريت" فهي "سوميترا".

أعاد قراءة الفقرة من جديد. خلعتْ "سوميترا" الساري وقذفت به فوق المقعد الخشبي في الركن. رمت بالبلوزة، عارية الأكمام، إلى الجهة الأخرى من الفراش. وبحركةٍ واحدةٍ، خلعت التنورة الداخلية التي تلبسها تحت الساري. حاول "عارف" معاونتها في خلع الصدرية. خلعت سروالها الداخلي، القطني الأسود. انزلق على ساقيها بسرعة، وكانت عارية تمامًا.

فجَّر هذا المشهد من رواية "ماركيز" بركانًا من الرغبات داخله. انسابت الحمم البركانية داخل عروقه وشرايينه. أحس بصعوبةٍ في التنفس. شرب كوبًا من الماء. صبه في جوفه، دفعة واحدة.

بعد ساعة، كان يقف أمام منزل "سوميترا". دق الجرس. فتحت "سوميترا" الباب. بدت منتعشة، وتفوح منها رائحة الصابون. داعب عبير الليمون في صابون "ليريل" أنف "عارف".

- هل أنتِ بمفردك؟
أجابت، بابتسامة:
- نعم.
قبل أن تنطق كلمة أخرى، اندفع "عارف" داخل شقَّة "سوميترا"، وأقفل الباب بالمزلاج. طلب منها دخول الحجرة. هناك، أمسك بيدها، وقال لها:
- أحبك.
بحركةٍ خاطفةٍ، أمسك بها من كتفها، وطبع قبلة على خدها. حاولت أن تخلِّص نفسها من قبضته، وقالت:
- لا.
تجاهل مقاومتها الواهية، وتشبَّث بها أكثر. دفعها على الفراش. ذكَّر نفسه: "إنها خطيئة يا عارف". لكن رائحة جسدها المُسكِرة أخرست ضميره. سرعان ما استسلمت "سوميترا" للمساته، وتوقفت عن المقاومة كُلِّيًا، وبدأتْ تُظهِر استمتاعها. أغمضتْ عينيها، ولم تتحرَّك. التصق بها. لم يسبق له الاقترابَ من أيِّ امرأة، لهذه الدرجة. خلال دقيقة أو اثنتين، كان قد قذف داخل سرواله.
أفلتَ أصابعه عنها. وقف وغادر المنزل على الفور، دون أن يقول شيئًا لـ"سوميترا". لم يملك الجرأة للنظر إليها.
سمع الأذان وهو يقود درَّاجته، بسرعةٍ بالغةٍ، عائدًا إلى البيت. أدرك أنه أذان صلاة الجمعة. شعر بالذعر.. "يا الله! لقد ارتكبت هذه الخطيئة في يومٍ مقدَّس". بعد دقائق، أوقف درَّاجته أمام البيت، وصعد السلم ركضًا.
كان بحاجةٍ للاستحمام، وتغيير ملابسه، قبل الذهاب للمسجد، لأداء صلاة الجمعة.
على بوَّابة المسجد، قبل الصلاة، رأى "عارف" زميل والده "تيمور علي"، الذي سأله عن "ذاكر". قال له بأن شقيقه ليس في "باتنا". أجابه:
- "ذاكر" يتغيَّب دائمًا عن صلاة الجمعة. لا أراه في هذا المسجد، أبدًا. سمعتُ أنه التحق بإحدى الفرق المسرحية. المسرح والأفلام والموسيقى حرام. لقد ضَلَّ. ألا يمنعه والدك من هذه الممارسات غير الإسلامية؟ وأنت، ألستَ شقيقه الأكبر؟ ألا ينبغي عليك توجيهه وتعليمه الفرق بين الحلال والحرام؟
لم يقل "عارف" شيئًا. لم يكن في مزاج يسمح له بالجدال، رغم عدم ترحيبه بأن ينتقد شخص غريب شقيقه، وبخاصَّة أنه لم يضل، كما يدعي هذا الرجل. "ذاكر" ليس خطَّاءً أو كافرًا، كل ما في الأمر أنه لا يرى أي جدوى للمظاهر الدينية. لكنه، في الوقت ذاته، لا يرفضها كلها، بدليل أنه أول مَن يحضر صلاة الجنازة دائمًا.
فكَّر "عارف" وهو يتوضأ داخل المسجد: "أنا مَن ضللت وأذنبت. أولًا، أحببتُ امرأة متزوجة، وأم لاثنين، مُدعيًا أنه حب مقدَّس، والآن تخطَّيتُ كافَّة

الحدود الأخلاقية في علاقتي بها".
شعر باحتقارٍ لنفسه. ملأته أجواء المسجد المقدَّسة بأحاسيس الفضيلة والخير. بعد قليل، أرعبته خطبة الإمام، وشعر بخوفٍ شديدٍ من الله. خاف من فكرة الاحتراق بنار جهنم الخالدة. استرسل الإمام في خطبته..
- لنواصل الحديث عن النفس الأمَّارة بالسوء. يخبرنا القرآن أن عقل الإنسان يحثَّه على ارتكاب الذنوب والخطايا، لكن وحدهم مَن يخضعون لإغواء النفس الأمارة بالسوء، وينفِّذون تلك الرغبات، هم من يُخَلَّدون في النار. تذكَّروا أن أخفَّ عذاب في جهنم هو أضعاف مضاعفة من الآلام والعذابات التي نعرفها على الأرض.
ثم عرج في حديثه على الزنا. قال بأن الزناة في الدرك الأسفل من النار. هناك، حيث تنتظرهم أخطر وأبشع الثعابين.
أحسَّ "عارف" بالذعر من الحديث عن جهنم وعذابها. أحسَّ بأنه يُشوى في السعير، وأن النيران تحرق جلده. أحسَّ بندمٍ شديدٍ على ما فعله، وقرَّر التوبة، وعدم تكرار ذلك. في البداية، كان يطمئن نفسه بأن علاقته بـ"سوميترا" طاهرة، وقائمة على المشاعر وحدها؛ لكنه حطَّم هذا الادعاء بيده وبلغ مرحلة حقيرة من الانحطاط.
كيف يمكنه مواجهة "سوميترا" الآن؟
حمدًا الله أن العملية الجنسية بينهما لم تكتمل.
في الأسابيع الثلاثة التالية، أغلق "عارف" على نفسه باب غرفته، وحاول التركيز في المذاكرة فقط. كان قد أهمل دراسته في الأشهر الماضية. عليه أن يعوِّض ما فاته. وضع لنفسه جدولًا، وحاول الالتزام به. أنهى كتاب الإدارة العامَّة لـ"آفاستي" و"ماشواري". تعمَّد عدم زيارة "مريتونجاي"، خوفًا من أن يلتقي "سوميترا" بالصدفة.
كان الامتناع عن زيارة صديقه تمامًا مسألة صعبة التنفيذ، ولذلك قرَّر أن تقتصر زياراته له على فترة الليل فقط. سار "عارف" على الطريق المغطَّى بالحصى، داخل "مستعمرة البنك". كان قد اقترب من منزل "مريتونجاي"، حين شاهد "راهول" متجهًا نحوه. عندما وصل إليه، انفجر "راهول" في البكاء، وقال له:
- ماما مريضة جدًّا، وبابا ليس في البيت. ذهب إلى "رانتشي".
- هل "مريتونجاي" في البيت؟
- ذهب الجميع إلى حفل زفاف ابنة العمِّ "شارما" في فندق "تشاناكيا".
- حسنًا، لا تبكِ. هيَّا بنا.
فكَّر "عارف" بتركيز، إلى أن تذكَّر الدكتور "ديفاشيش جانجولي"، ثم تذكَّر أنه يرفض القيام بزياراتٍ منزلية، لكنه اتصل به على كل حال. توسَّل له، إلى أن وافق الطبيب على القدوم، مُرغَمًا، ليتخلَّص من إلحاحه.

لم تكن فكرة قضائه الليل في منزل "سوميترا" فكرة جيدة. لو سمع أحد بذلك، ستكون فضيحة كبيرة. لكنه لا يملك خيارًا آخر. نصحه الطبيب بالبقاء معها وملاحظتها حتى الصباح. لم يكن بوسعه تركها بمفردها. لو حدث لها أيُّ مكروه، فلن يسامح نفسه أبدًا.

أخيرًا، قرَّر البقاء. "فليحدث ما يحدث. سوف أرعاها الليلة". بالنسبة له، "سوميترا" أهم من سُمعته بكثير. اتصل بمنزل جيرانه، ليبلغوا أمه أنه سيمضي الليل في المستشفى لرعاية صديق مريض.

أعدَّ "عارف" بيض أومليت وشرائح من الخبز المحمص لـ"راهول". طلب منه أن يتناول عشاءه وينام. جلس بجوار "سوميترا" على الفراش. كانت نائمة. تحسَّس جبينها بظاهر يده، لقياس حرارتها. لا تزال تعاني من سخونةٍ شديدة. أخذ يمسح وجهها وجبينها بالكمَّادات الباردة، كما أوصاه الطبيب. كان قد طلب منه أيضًا أن يسجِّل درجات حرارتها، بين الحين والآخر. إذا استمرت في الارتفاع، عليه أن ينقلها للمستشفى.

لم تكن في وعيها. خاف أن يضع مقياس الحرارة داخل فمها، خشية أن تضغط عليه بأسنانها، فينكسر داخل فمها. عليه أن يضعه تحت إبطها. سيتعين عليه إدخال يده داخل بلوزتها. بعد ما حدث بينهما يوم الجمعة، لم يعد يثق في نفسه، وفي قدرته على التحكم في مشاعره وتصرفاته. كان يخشى الإثارة المحتملة عند لمس صدرها. فكر في إيقاظ "راهول" للقيام بالمهمة، لكنه تراجع عن فكرته. راح يردد بالعربية:

- قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها .

بعدها، راح يتلو الفاتحة.

أبعد "عارف" نظراته عنها، وفتح أول زرَّين في البلوزة. بسُرعة، وضع مقياس الحرارة تحت إبطها. لامست أصابعه حواف ملابسها الداخلية. هبطت الحرارة إلى ٣٧.٧ درجة.

كانت الساعة الثانية والنصف صباحًا حين تقلَّبت "سوميترا" وغمغمت بشيء. تنبَّه "عارف" الذي كان ينعس بجوارها. نادى اسمها بحنان، لكنها كانت تغط في نومٍ عميق.

حين تسلل نور الفجر للغرفة، استيقظ "عارف"، فوجد نفسه نائمًا بجوار "سوميترا"، وملتحفًا ببطانيتها. كانت تضع ذراعيها على صدره، وغطَّت بعض خصلاتها وجهه. ميَّز عطرها. تسحَّب من جوارها برفق، حتى لا يوقظها. تحسَّس جبينها بخفَّة، وشعر بالارتياح عندما وجد أن السخونة فارقتها. كانت تتعرق بغزارة، في إشارة لانتهاء الحمى. غسل وجهه في المطبخ، وأعد لنفسه فنجان شاي، وحمَّص بعض الخبز لـ"راهول". اتصل بالطبيب، الذي قال له:

- الوضع على ما يرام. واصل إعطاءها الدواء، ودعني أراها في عيادتي بعد ثلاثة أيَّام.

أنهى المكالمة، وذهب ليطمئن على "سوميترا". على الرغم من شحوب وجهها البالغ، كانت لا تزال جميلة. لم يستطع منع نفسه، فاقترب منها وقبَّلها على جبينها. لم تتحرَّك.

أعطى تعليماته لـ"راهول" بأن يجلس بجوارها، وأن يعطيها أدويتها في موعدها. أضاف:

- دعها تأكل شيئًا، بسكوتًا أو خبزًا، قبل الدواء. متى سيعود والدك من "رانتشي"؟

- ظهر اليوم.

- حسنًا. سأعود إلى البيت الآن.

ناوله ورقة كتب عليها رقم تليفون جيرانه، في حال احتياجه للاتصال به.

- هاك. اسمع، لا تخبر أحدًا بأنني أمضيت الليل هنا في شقتكم. ولا حتى والدك.

سأله الولد ببراءة:

- لماذا؟

- افعل ذلك فحسب. هذا كل ما في الأمر. وعد؟

- وعد. حسنًا.

حين خرج "عارف" إلى الشارع، كانت الطرقات خاوية. لمح رجلًا بدينًا يستحم في الطريق، من مضخة ماء يدوية، وهو يدندن بأغنيةٍ مرحةٍ، ويصب الماء على رأسه من إبريقٍ في يده.

11

كان "عارف" في غرفة المذاكرة، يقرأ رسالة جديدة من "سوميترا"، جلبتها له بنفسها، كما في المرَّة الماضية، إلا أنها لم تقبِّله هذه المرَّة. الرسالة أقصر، ومكتوبة على ورق مُسَطَّر. شكرته فيها على مساعدته، وأفصحت عن رغبتها في لقائه بشكلٍ متكرر.

أحسَّ بمزيجٍ من السعادة والاضطراب. ساوره الشك والقلق. لم يعرف ما الذي يريده منها تحديدًا. لن توافق على هجر زوجها وأطفالها من أجله. حتى لو فعلت، هل بإمكانه أن يتحدَّى عائلته ويتزوجها؟ كان يدرك عدم استطاعته فعل ذلك. "لماذا أطاردها إذًا؟".. سمع صوت خطوات تقترب من الغرفة، فطوى الرسالة ووضعها أسفل كتاب فوق الطاولة.

دخل "مريتونجاي":

- أهلًا "عارف"!

كان يعلِّق مضرب تنس فوق كتفه. جاء ليدعوه ليشاركه مباراة تنس في نادي "نيو باتنا". وافق "عارف" بسرعة. لم يكن قد أمسك بمضرب تنس منذ سنوات. تحمَّس بشدة، كما لو كان شخصًا يقابل حبيبة أوشك على نسيانها. مرَّ وقت منذ أن كان مغرمًا بهذه اللعبة. نجح "آجيت"، أحد زملاء "مريتونجاي" القدامى، في امتحانات الخدمة المدنية، وتأهَّلَ للوظيفة، وسوف يشاركهما اللعب اليوم. قرَّر "عارف" أن يطرح عليه بعض الأسئلة عن الامتحان والمقابلة الشخصية.

لعب "عارف" و"مريتونجاي" ضد "آجيت" وابن عمٍ له. واجه "عارف" صعوبة في التركيز على ضرباته، وارتكب أخطاءً عديدة، متوالية. ارتطمت كُراته بالشبكة، عدة مرات، لدرجةٍ أفقدت "مريتونجاي" حسن الخلق أعصابه. واضطر للصراخ أكثر من مرة. خسرا المباراة في وقتٍ قصير.

جلس "عارف" على مصطبة معدنية ملحقة بالملاعب. بدا واجمًا وحزينًا. قال له "آجيت" مواسيًا: - "عارف"، إنها مباراة ودية، لا تأخذ الأمور بهذه الجدية.

ابتسم "عارف" وأجابه:

- كلا، كلا! لستُ مستاءً.

انضم إليهما "مريتونجاي" وابن عم "آجيت". سأل "مريتونجاي": - ما هي أفضل وسيلة للاستعداد للامتحان والمقابلة الشخصية؟

- إن امتحانات الخدمة المدنية لا تختلف في شيء عن لعب التنس. إما أن تلعب بقوة، أو أن تصد الكرات بمهارة. إن لم تكن ماهرًا في شيء، وليكن قذف الكرات مثلًا، فعليك أن تكون ماهرًا في صدها. قياسًا على ذلك، يجب

أن يكون لديك مادة اختيارية تبرع فيها وتتميز، ويمكنك أن تنجح فيها بنسبة ٦٥٪ أو ٧٠٪.
أبدى "عارف" و"مريتونجاي" إعجابهما المشترك بهذا التشبيه. سأله "عارف": - وماذا عن المقابلة الشخصية؟
- اجمع بعض المعلومات عن بلدتك، وعن التقسيم الإداري الذي تتبعه البلدة، وهيِّئ نفسك للحديث عن هواياتك واهتماماتك، وغيرها؛ أما الباقي فيعتمد على الحظ تمامًا.
قال "مريتونجاي":
- أنوي السفر إلى "دلهي"، الفترة القادمة، فالدروس الخصوصية لهذا الامتحان ضعيفة في "باتنا".
أجابه "آجيت":
- هذا قرار صائب.
شعر "عارف" بالإحباط. كان يدرك أن والده لا يستطيع إرساله إلى "دلهي".
لمح "عارف" في الجانب البعيد من النادي "راميش كومار" وهو يلعب مع رجل متوسط العُمر، على ملعبٍ عُشبي.
بعد قليل، غادر "آجيت" وابنُ عمه في سيارة "أمباسادور"، الأكثر شهرة وركوبًا بين مسؤولي الهند. قال "مريتونجاي" لـ"عارف": - والد "آجيت" يعمل مأمورًا إداريًا.
شعر "عارف" بإعجابٍ حقيقي، وصاح:
- رائع!
كان على "مريتونجاي" أن يذهب إلى منطقة "بوستال بارك" للقاء أحد معارفه. ركب الموتوسيكل وانطلق إلى وجهته. وقف "عارف" بمفرده خارج النادي، في انتظار مرور أيِّ توكتوك.
أوقف "راميش كومار" سيَّارته بالقرب من "عارف" ودعاه للركوب. رفض "عارف" بتهذيب. أحس بغرابة التعامل مع الرجل الذي يقيم علاقة غرامية مع زوجته؛ لكن "راميش" أصر على موقفه. قال له: - حين كنتُ في الجامعة، كنتُ شديد الإعجاب بـ"رود ليفر" و"چون نيوكومب"، وبالطبع بطلنا "فيجاي آمريتراج". لم يعد لديَّ متسع من الوقت للعب بعد العمل هذه الأيام. لكنني ألتقي أصدقائي كلما سنحت الفرصة لنلعب معًا.
- هذا جيد.
- أخبرتني "سوميترا" منذ بضعة أيام أنك متفوق في الرياضيات واللغة الإنجليزية، وأنك وافقت على تدريس هاتين المادتين لـ"راهول".
كانا قد تجاوزا "راجا بازار"، وعلى وشك الوصول لـ"آشيانا مور".
لم تكن "سوميترا" قد تحدثت مع "عارف" في مسألة الدروس الخصِوصية، لكنه فهم السبب الذي جعلها تقول ذلك لزوجها. قال لنفسه

محذِّرًا: "لا توافق يا عارف. إيَّاك. إنك تقترب من النار بقدميك".
- فيمَ تفكر يا "عارف"؟
- لا شيء يا عمي.
أمسك بمؤخرة عنقه، وكأنه يعاني من ألمٍ ما. سأله "راميش": - متى إذًا ستبدأ الدروس الخصوصية مع "راهول"؟
تردَّد قليلًا، ثم قال متلعثمًا:
- من الـ.. إثنين، غالبًا.
غمره الارتباك لفكرة لقائه بـ"سوميترا" بشكلٍ شبه يومي.
- عظيم!
أنزله "راميش كومار" قريبًا من البوابة الرئيسية للمستعمرة. لمح "عارف" مساعد مفتش شُرطة يجلس على مقعد بلاستيكي أحمر، أسفل شجرة مانجو، على بُعد خطوات قليلة من البوابة، التي وقف أمامها أربعة عساكر يحملون في أيديهم عصي غليظة.
بسبب لون قبعاتهم، أدرك "عارف" أن الضابط والعساكر ينتمون لقطاع "شُرطة المنطقة"، التابع للشُرطة العسكرية لـ"بيهار"، التي يعمل فيها والده. تُعَد الأولى أكثر نفوذًا وقوة، لأنها المسؤولة عن الحفاظ على قوانين الحياة اليومية للمواطنين، وعن إجبارهم على دفع الرشاوى المختلفة؛ أما الثانية فمهمتها الرئيسية هي الحفاظ على الأمن بشكلٍ عام.
نظر الضابط الجالس تحت الشجرة نحو "عارف" بكسل، وأشار له بيدٍ متخاذلة تحمل سيجارة، إشارةً تعني "ممنوع الدخول". سأله "عارف": - ما الأمر يا سيدي؟
أجابه باستعلاء:
- هناك اجتماع لكبار الضباط في القاعة الداخلية. تم إغلاق الطريق لأسبابٍ أمنية.
- لكنني أعيش في هذه المستعمرة. والدي مفتش شُرطة هنا.
- استخدم البوابة رقم ٢.
قال "عارف" بغيظ:
- لكن بيتي هنا، على بُعد خطوات، فلماذا أسير ميلين كاملين لأصل إليه؟
تجاهل الضابط، وواصل السير نحو البوابة. أمسك به الضابط من ياقة قميصه، وقال محذِّرًا: - إياك وأن تتذاكى عليَّ!
التفتَ إليه "عارف" وأمسك بياقته هو أيضًا. ظهر "ذاكر" فجأة، صائحًا: - كيف تجرؤ على أن تمسك بأخي بهذه الطريقة؟
قال ذلك، وصفع الضابط على وجهه. "ذاكر" أقوى وأطول من الضابط القصير، ذي الجسم الممتلئ. عندما شاهد العساكر الضابط وهو يتشاجر مع شابين، تركوا البوابة وهرعوا إليه. حاول "عارف" إبعاد "ذاكر" عن الضابط. أحس بألم حادٍّ في كتفه، وقبل أن يظهر أي رد فعل، رفع العساكر عصيهم

لضرب شقَيقه. صرخ "عارف" حين رأى "ذاكر" يرتمي على الأرض، والدم يسيل من رأسه، ويغطي خصلاته الطويلة. دون تفكير، هجم "عارف" على العساكر ذوي القبعات الحمراء، وأسقط أحدهم أرضًا. لمح بطرف عينه عددًا من الضباط ذوي القبعات الخضراء يقتربون منهم. قال أحدهم متعجبًا: - يا إلهي! إنهما ولدا السيد "خان"!

أضاف آمرًا:

- أحضروا السيارة الچيب حالًا. هؤلاء الأوغاد من شرطة المنطقة! كيف يجرؤون على ضرب أبنائنا، داخل المستعمرة الخاصة بنا؟

استحال الشجار إلى معركة بين قطاعين من الشُرطة. كان الاحتقار المتبادل بين الطرفين معروفًا للجميع. ضرب شيء "عارف" على رأسه، فغامت الرؤية في عينيه.

حين فتح عينيه، وجد نفسه على سريرٍ داخل مستشفى. أحس بألمٍ شديدٍ في رأسه الملفوف بالضمادات. وقف الأب بجوار السرير، وقد ارتسم القلق على ملامحه. سأله "عارف" عن شقيقه. أجاب الأب: - إنه في العناية المركزة، يخشى الطبيب أن يكون مصابًا بنزيفٍ داخلي.

أحس "عارف" بشعورٍ عظيمٍ بالذنب، بالإضافة إلى الألم الشديد. قال لنفسه أنه لولاه، لما تورط "ذاكر" في هذا الشجار. "لو حدث له مكروه، فلن أسامح نفسي، أبدًا".

قبل سنوات، في "جمالبورا"، صفع "ذاكر"، ابن الخامسة، المعلم في كُتَّاب القرية، لأنه قرص أذن "عارف" بقوَّة، لعدم أدائه الواجب المنزلي. صفعه ووجَّه له سبابًا فاحشًا، وهو يصيح: "لماذا تؤذي أخي؟ سأقتلك!". حينها، اضطر "عارف" لجره بعيدًا عن المعلم.

وقفت الأم بعينين دامعتين. قال لها:

- أنا بخير يا أمي. ادعي لـ"ذاكر".

كانت الجدة أيضًا موجودة. تتلو آيات من القرآن. رأى شقيقاته وهن يدخلن من باب الجناح، بوجوهٍ شاحبة. لم تقل أيًّا منهن شيئًا. أغمض عينيه واستسلم للنوم. في الحلم، رأى نفسه وهو في السادسة، يلعب "عسكر وحرامية" مع شقيقه في ساحة مسجد "جمالبورا". فجأةً، ركض "ذاكر" بعيدًا"، وأخذ "عارف" يناديه.

قال له صوت مألوف:

- ما الأمر؟ ماذا تريد؟

فتح عينيه، فاكتشف أنه في صباح اليوم التالي، وأن والده إلى جواره. سأله: - كيف حال "ذاكر" يا بابا؟

- يقول الطبيب إنه أفضل الآن.

- الحمد لله. هل عرفتم اسم الضابط يا بابا؟

أجاب الأب وقد انعكس غضب شديد في عينيه:

- لقد تقدَّمتُ بشكوى رسمية في قسم شُرطة "شاستري نجر". فور أن يخرج "ذاكر" من المستشفى، سأتابع المسألة بنفسي. سوف ألقِّن ابن الحرام درسًا. كيف يتجرَّأ على لمس أولادي؟

بعد نصف ساعة، توجه الأب والأم والبنات للاطمئنان على "ذاكر"، بينما بقيت الجدة معه. كانت تؤدي الصلاة. من الاستراحة المجاورة، سمع "عارف" صوت نحيب مرتفع. هل ذلك صوت أمه وشقيقاته؟ أحس "عارف" بالفزع. قفز عن سريره، وسار بخطواتٍ مترنحة نحو الاستراحة.

وقفت امرأتان تبكيان بصوت مرتفع على جثة مغطاة بملاءةٍ بيضاء. وقف عامل المستشفى قريبًا منهما، بملامح باردة. تنهَّد "عارف" بارتياح، لكنه شعر بالأسى حيال المرأتين. التفت ليعود إلى حجرته، فشاهد أباه في صالة الاستقبال القريبة، يتحدَّث في التليفون. شاهد أيضًا "سوميترا"، مع شقيقاته. رآه الأب، فجاءه مُسرِعًا: - ما كان عليك مغادرة فراشك.

- أريد رؤية "ذاكر".

- سآخذك إليه عندما يخرجونه من العناية المركزة لغرفةٍ عادية.

ساعده في الوصول إلى السرير. بعد دقائق، دخلت "سوميترا" مع شقيقاته، وآثار البكاء في عينيها. بعث وجودها السكينة في روحه، كما لو كانت دواءً مُسَكِّنًا.

بعد دقائق أخرى، دخل "بريم براكاش باندي"، والد "مريتونجاي". رجل قصير، ممتلئ، بلحيةٍ خفيفةٍ، أنيقة. جلس على المقعد المجاور لسرير "عارف"، وسأله عن صحته، ثم أخبره بأن "مريتونجاي" قد سافر إلى "دلهي" من أجل الدروس الخصوصية للامتحان، وأنه سيتصل به عند خروجه من المستشفى.

بعد مرور شهر، عصر يومٍ بنسماتٍ باردة، جلس "ذاكر" على الفراش، برأسٍ تغطيه الضمادات. كانَ "عارف" قد شفي تمامًا. جلس بجوار شقيقه، فيما جلست الجدة على الأريكة الخيزران قريبًا من السرير. قال لها "ذاكر": - جدتي، احكِ لي حكاية.

صارت هذه عادته الجديدة، منذ أن غادر المستشفى. ابتسم "عارف". قالت الجدة: - بسم الله الرحمن الرحيم. خلال فترة حُكم الحاكم المغولي، السلطان الأعظم "أكبر"، وصل "دلهي" شاب قوي يدعى "بختيار"، قادمًا من أفغانستان. فور وصوله المدينة، زار قبر الصوفي "حضرة نظام الدين أولياء"، ليُصلي هناك. عند خروجه من الضريح، شاهد رجلين مُقنَّعين، يضربان رجلًا مُسِنًّا له لحية بيضاء طويلة، بمنتهى القسوة. أمسك "بختيار" بالرجلين، وألقى بهما أرضًا. تصرَّف كما يليق برجلٍ من الـ"باتان". رجلٌ قويٌ وشجاع. ضرب المهاجمين بلا رحمة، فهربا بسرعةٍ واختفيا داخل أزقَّة "نظام الدين". كان الرجل المُسِن في حالةٍ سيئةٍ جدًّا، وقد امتلأ جسده بالجروح. طلب "بختيار" العون من المارَّة، ونقلوه إلى حكيم يعالجه. بعد

ذلك، استأجر عربة بحصان، وقام بتوصيله إلى منزله. كان المنزل كبيرًا وفخمًا، ويقع في وسط المدينة. فيما بعد، اكتشف "بختيار" أن الرجل مسؤول كبير لدى السلطان الأعظم، في إدارة "دلهي". أعجِب الرجل المُسِن بشجاعة "بختيار"، وساعده في الحصول على وظيفةٍ هامَّة في جيش "أكبر"، كما زوَّجه ابنته الوحيدة. سرعان ما أنجب "بختيار" طفلًا، سماه "جمالُ الدين خان". أراد "بختيار" أن يصبح ابنه قائدًا للجيش، في المستقبل، وأن يمتلك سطوة "بيرم خان"، الذي كان هو القائد حينها. لكن اهتمام "جمال الدين" كان منصبًّا على الجوانب الروحية وعلى الصوفية، وليس على الجوانب الدنيوية إطلاقًا. صار تلميذًا لأحد أقطاب الصوفية المعروفين في "دلهي"، وراح يقضي بصحبته معظم أوقاته، إما في الصلاة وإما في خدمة الفقراء والمساكين. ورغم الإلحاح المتواصل من والديه، فإنه رفض الانصياع لرغبتهما في تزويجه. حين بلغ الثانية والأربعين، توفي والده في حادث مركب. بعد بضعة أسابيع، وفي غمرة حزنها البالغ، توفيت والدته خلال نومها. أحسَّ "جمال الدين" بالأسى، ولجأ للصلاة للتخلص من أحزانه. بعد أن أدَّى صلاة قيام الليل، في إحدى المرَّات، نام وحلم برجلٍ صالحٍ، لا يعرفه، له وجه مُضيء يشع نورًا. طلب منه الرجل الصالح التوجه إلى شرق البلاد لنشر رسالة الإسلام. بدأ رحلته في اليوم التالي. بعد أشهرٍ طويلةٍ من السفر، وصل إلى "موتيهاري". جاءه الرجل في الحلم، ثانيةً، طالبًا منه مواصلة الرحلة. كان يجهل وجهته، لكن قوى خفية كانت تقوده، ولذلك واصل الارتحال، إلى أن بلغ مكانًا مهجورًا، به قصر متهدم. قرر قضاء ليلته هناك. نظف السطح، ووضع متعلقاته القليلة في أحد أركانه؛ إبريق ماء من النحاس وسجادة صلاة وملاءة وبعض حبات التمر. فرش حصيرًا من الخوص على الأرضية الحجرية للسطح، واستلقى عليه. في تلك الليلة، ظهر له الرجل الصالح مرة أخرى، طالبًا منه البقاء في ذلك المكان لبقية حياته. عندما استيقظ صباحًا، وجد نفسه محاطًا برجالٍ من القرى المجاورة. تعجب القرويون من رؤية شخص غريب، تحيط برأسه هالة براقة، لامعة، راقدًا فوق سطح قصر مسكون. امتلأ المكان بالأرواح والأشباح، التي قيل إنها هناك لحماية كنوز أحد الملوك القدامى. كل مَن ذهب إلى القصر ليلًا، مات بطرقٍ غامضة. قبل ذلك بخمسين سنة، أرسل ملك المنطقة عشرين رجلًا مُسَلَّحًا، للبحث عن الكنز المزعوم. عُثِر عليهم ميتين، في اليوم التالي مباشرةً. بعد تلك الواقعة، لم يجرؤ أحد على دخول القصر. آمن القرويون بأنه رجل صالح، لقدرته على البقاء في المبنى المسكون، دون أن يتعرَّض لأيِّ أذى. عند رؤيتهم للحيته، والقبعة الصغيرة على رأسه، أدرك الناس أنه قديس مسلم، صوفي، ولذلك أطلقوا عليه لقب "بير" المبجل. بعد فترة قصيرة، تردد عليه الكثير من الرجال والنساء، من أماكن بعيدة، لينالوا بركته. وصلت أنباؤه إلى أحد الإقطاعيين الكبار من طائفة "الراجبوت"

الهندوسية، من أصحاب الأراضي الشاسعة، والذي كانوا يلقبونه بـ"زاميندار". جاء الرجل لزيارته. كان طويلًا ووسيمًا، وله شارب كبير. أعجِبَ بالـ"بير"، وصار من مُريديه. لاحقًا، اعتنق - هو وكامل أفراد أسرته - الإسلام. فُتِنَت ابنته الوحيدة بشخصية حضرة الشيخ "جمال الدين"، وأقسمتْ بأنها لن تتزوَّج غيره. حين ذهب الإقطاعي إلى الشيخ ليعرض عليه الزواج من ابنته، وافق بعد تردد. بنى الـ"بير" كوخًا من الطين والقش أمام القصر القديم. أنجب الزوجان ثلاثة أبناء. تضاعفت سلالات أولئك الأولاد الثلاثة وانتشرت. نشأت قرية "جمالبورا" حول ذلك الكوخ. عقب وفاته، دُفِن الشيخ داخل كوخه، الذي صار ضريحًا ومزارًا، بمرور الوقت. بعد أعوام طويلة، قام أحد أحفاده بإعادة بناء الضريح، وحوَّله إلى مبنى فسيح، له أربع منارات، وقبَّة خضراء كبيرة. لا يزال المبنى قائمًا حتى اليوم.

أضافت الجدَّة:

- إن حضرة "جمال الدين بير" ليس شيخًا من الأولياء فقط، ولكنه أحد جدودنا العظام، ونحن من سلالته.

اختتمت حكايتها بالقول:

- سُمَّيت قريتنا على اسمه.

كان "عارف" قد سمع تلك الحكاية من قبل، لكنه أحبَّ إضافة جدَّته هذه المرَّة، وإصرارها أنهم من سلالة وعائلة الولي الصالح. للجدة موهبة عجيبة في تحويل قصة عادية إلى حكايةٍ أسطوريةٍ بديعةٍ وساحرة.

نظرتْ إلى ساعة الحائط، ثم قامت من مكانها، وخرجت من الحجرة، معلنةً: - حان وقت صلاة العصر.

استلقى "ذاكر" على السرير، كي ينام قليلًا. تناول "عارف" ملاءةً من الحرير الأصفر، من فوق حبل الغسيل، وغطى بها شقيقه.

استغرق الشفاء التام لـ"ذاكر" نحو ثلاثة أشهر أخرى. بعدها، عاود "ذاكر" الذهاب إلى محاضراته في الجامعة. في الفترة ذاتها أيضًا، بدأ "عارف" في إعطاء الدروس الخصوصية لـ"راهول"، كما اتفق مع والد الصبي.

في اليوم الأول، فتحت "كافيتا" الباب لـ"عارف". كانت "سوميترا" على مقعد بلاستيكي داخل الشرفة، تقوم بتفصيص حبات البسلة الطازجة. عندما رأته، وقفت وجرَّت كرسيين خشبيين ومنضدة، من أحد أركان الشرفة، ثم نادت ابنها: - "راهول"، الأستاذ "عارف" هنا لتدريسك.

في المرة التالية، لم يرَ "عارف" "كافيتا". سأل عنها، فأجابته "سوميترا": - عادت إلى مدرستها في "هازاريباج". ستعود إلى "باتنا" عقب انتهاء امتحاناتها.

سوف يقوم "عارف" بتدريس "راهول" ستَّة أيَّام في الأسبوع، في فترة العصر. بعد انتهاء الدرس، يذهب "راهول" للعب الكريكيت مع أولاد الحي. تجلس "سوميترا" مع "عارف" في غرفة الصالون. يلقي كل منهما الأبيات

الشِعرية التي يحبها على الآخر. في أحيانٍ أخرى، يلقيان القصائد التي نظمها كل واحدٍ منهما، في حبِّ الآخر. في بعض الأوقات، يمسك "عارف" بيد "سوميترا" ويطبع عليها قبلاته. في أوقاتٍ ثانية، تغمض "سوميترا" عينيها، وتدعه يقبلها على خديها برقة.

في بعض الأيام، يتناقشان في الكتب التي يقرآنها.

في أحد تلك الأيام، وجَّه "عارف" سؤالًا لـ"سوميترا" حول فوائد الوقوع في الحب. أجابته بالبيت الشِعري الشهير: - تسألني عن فائدة الوقوع في الغرام

وأسألك أنا عن جدوى الاستفادة من أي شيء؟

فكر "عارف" مبتسمًا: "لا أحد يُجري دراسة جدوى قبل الوقوع في الحب". لمرةٍ أو اثنتين، شهريًا، يتواجد "راميش" في المنزل وقت الدرس، ويدعو "عارف" للبقاء بعد انتهائه، كي يلعبا الشطرنج، ويشربا القهوة معًا. يوافق "عارف" في بعض الأحيان، مُجبَرًا، لكنه يعتذر عن ذلك عندما يستطيع، متعللًا بأسبابٍ مختلفة. في تلك الأوقات، يشعر "عارف" بالارتباك، لاضطراره للتظاهر بعدم الاكتراث بزوج "سوميترا"، ولعدم قدرته على النظر إلى وجهها.

12

تعجَّب "عارف" عندما دعاه "ذاكر" للصعود إلى السطح، لمناقشة أمر هام. تزايدت دهشته عندما وجد "رابية" و"نَزنين" بانتظاره هناك. سألهم: - ما الأمر؟

أجابه "ذاكر":

- تريد "رابية" أن تخبرك شيئًا.

قالت "رابية" بارتباكٍ وحرج:

- أخي.. "نَزنين".. تحدثي أنتِ.

قال "عارف":

- أخبريني. لا تترددي.

- حسنًا. لديَّ صديقة في "مستعمرة البنك". تقول بأن أحدًا أخبرها أنك على علاقة بالخالة "سوميترا". قالت أيضًا إنها امرأة مُريبة، وإن...

شحب وجه "عارف"، وقاطعها:

- مَن هي؟

- أعتذر منك يا أخي، لا يمكنني ذِكر اسمها. اسمع، نحن متأكدون بأنك لن تفعل شيئًا كهذا، أبدًا. ونحن لا نصدِّق أن الخالة "سوميترا" تتصرَّف بهذه الطريقة أصلًا. أنا شخصيًا أحبها؛ لكنك أخونا ومن واجبنا إبلاغك.

- لا تعتذري. كان عليكم إبلاغي فور سماعكم هذا الكلام.

- حاولتُ يا أخي. حاولتُ التلميح أكثر من مرَّة، وفي أكثر من مناسبة.

أضافت "رابية":

- عليك التوقف عن الذهاب إلى بيتها، فورًا. فكِّر في سُمعة عائلتنا. فكِّر في سُمعتها هي أيضًا.

- هل يعلم بابا وماما شيئًا عن هذه المسألة؟

- كلا، لحُسن الحظ.

- على كل حال، سأتوقف عن التدريس لـ"راهول"، ولن أذهب إلى منزلهم، ثانيةً.

لكن صوته كان يفتقر إلى الثقة والإقناع.

أتاهم صوتٌ مرتفعٌ من الشقة:

- "رابية"، "نَزنين".. أين أنتما؟ على السطح؟

- ماما تنادي. سننزل إليها الآن.

ما إن غادرت الفتاتان، حتى سأله "ذاكر" بحزم: - هل بإمكانك أن تخبرني الحقيقة؟

- أية حقيقة؟

- هل الخالة "سوميترا" هي المرأة التي حدثتني عنها قبل بضعة أعوام؟
- نعم.
- يا إلهي! غير معقول! ظننتُ أنك نسيتها، ولذلك تعمدتُ عدم فتح الموضوع مرة أخرى، خوفًا من تذكيرك بها.
- لقد حاولتُ ذلك فعلًا، ولكنني..
صمت "عارف"، ولم يقل المزيد. سأله "ذاكر": - وماذا بعد؟
- لا شيء. لم أفعل شيئًا. المسألة كلها تعلَّق عاطفي، لا أكثر. أعدك بأن أتخلص من هذه العلاقة سريعًا.
- أعرف بأنك لا تستطيع ارتكاب أخطاء، ولكن تذكر لو أن أحدًا من أقاربنا عرف الحكاية، فسوف يكون من الصعب العثور على أزواج لأخواتنا. فكر كذلك في بابا وماما. سوف تُميتهما الصدمة.
- أفهم هذا جيدًا يا "ذاكر". دعنا ننسى الأمر. أعدك بأن أقطع كل علاقة تربطني بها. لنتحدث في أي شيء آخر.
أحس "عارف" بصدمةٍ شديدةٍ للكيفية التي لاحظ بها الناس علاقته بـ"سوميترا"، والأسوأ بالنسبة له هو معرفة شقيقاته بالحكاية. سأله "ذاكر"، محاولًا تغيير الموضوع: - ما الذي حدث بخصوص وظيفة مركز تدريب "جولدن" التعليمي؟
- قالوا بأنهم سيتصلون بي. أرجوك، لا تخبر أبي بنيتي في العمل مُدرسًا.
- لن أفعل.
- آه صحيح! نسيتُ أن أخبرك شيئًا مهمًّا! أعلن المنتج "جُلشان كومار" عن مسابقة لاختيار ممثلين لفيلمه الجديد.
- حقًّا؟
- لديَّ نسخة من عدد هذا الشهر من مجلة "بريا". قسيمة الاشتراك في المسابقة موجودة داخل العدد. إذا نجحت، ستكون البطل الجديد في الفيلم القادم لـ"جُلشان كومار".
قال "ذاكر" بحماس:
- إنها فرصة رائعة.
- هيا بنا، سأعطيك قسيمة الاشتراك.
نزل الشقيقان، وقد نسيا القلق والتوتر.
عادت ابنة "سوميترا" إلى "باتنا"، لتلتحق بكلية "باتنا" للبنات، بعد إنهائها المرحلة الثانوية. لم يعد لقاء "عارف" بـ"سوميترا" في منزلها ممكنًا.
في مدينةٍ مثل "باتنا"، يعد لقاء الأحباء والعشاق ببعضهم أمرًا محفوفًا بالمخاطر، يهدد سُمعتهم، بل وحياتهم ذاتها. يمكن رؤية العشَّاق داخل حديقة "سانجاي غاندي البيولوجية"، المعروفة بين الناس بحديقة الحيوان، في شارع "بيلي رود"، وهم يحاولون الاختباء وراء الأشجار وأسفلها، أو في حديقة الورود، محاولين اختلاس لحظات حميمية معدودة. تثير قبلاتهم

الخاطفة أو أحضانهم السريعة نظرات مستهجنة، وتعليقات فجة، وتدخلات رجال الشُرطة. هناك حديقة متحف "باتنا" أيضًا، بزواره القلائل. لكن سائقي التوكتوك يحبون اختصار الطريق، عبر المرور بجوار المتحف، وهو ما يزيد من إمكانية أن يراك أحد مع حبيبتك، وتحوُّل لقائكما إلى فضيحة. كل ما تحتاجه الفضيحة في "باتنا" هو رؤيتك بصحبة أي فتاة. "كومراهار" مكانٌ آخرُ يلتقي فيه الأحبة، تحت ظلال القلعة التي بُنيَت قبل الميلاد، على يد الإمبراطور "آشوكا"، ولكن بتوصيةٍ من إدارة الآثار، يطوف رجال الشُرطة بالمكان، لحماية الأثر من التشويه المحتَمَل من الزوار. ولذلك، فإن الأماكن الثلاثة كانت خيارات غير مناسبة لـ"سوميترا" و"عارف".

تواصلا عبر الخطابات الغرامية المكتوبة بالأردية. يضعانها داخل الكتب والمجلات التي يتبادلانها بانتظام. حين يسافر "راميش كومار"، مرة أو اثنتين شهريًا، خارج "باتنا"، تذهب "سوميترا" للقاء "عارف"، في محطة قطار المدينة، ومن هناك، ينطلقان في توكتوك يحملهما إلى الضفَّة الأخرى من نهر "الجانج"، حيث مدينة "حاجي بور". يتمشيان قريبًا من قاعة عرض "جانيش تشيترا ماندير"، ذات المبنى الكئيب. يسيران معًا، ويتهامسان، ويتشاركان زجاجة من مشروبٍ بارد، وبعض حبات السمبوسك الساخنة. تتلامس أيديهما، وقد غطَّت أصابعهما آثار الزيت.

كثيرًا ما قال لها "عارف":

- "سوميترا"، تمنحني رفقتكِ شعورًا بالراحة، كما لو كنتُ في الجنة. أتخلص من أي إحساس بالقلق وأنا معكِ.

تجيبه:

- أنا أيضًا أشعر بالسكينة والسلام، حين أكون بين ذراعيك، وأضع رأسي على كتفك.

13

ضربت قطرات المطر الكبيرة وجه "عارف"، خلال وقوفه في الشرفة. مال بجسده على حافة السور، ومدَّ ذراعه تحت المطر، متلقفًا حبَّات الماء الثقيلة. أحس بالانتعاش لملمس الماء البارد. كان المطر غزيرًا، لدرجة أنه شوش الرؤية. غرقت الشوارع المحيطة بالمنزل. شاهد رجلًا يسير مُسرعًا، باتجاه المنزل، حاملًا مظلة. عند اقترابه، أدرك "عارف" أنه "ذاكر".

فور دخوله، ألقى "ذاكر" بالمظلة على الأرض، وعانق شقيقه بقوة، معلنًا:

- أنا على القائمة القصيرة لاختبار الأداء، لفيلم "جُلشان كومار".

أخرج ظرفًا من جيب السترة، وهو يبتسم بسعادة. أحضر "عارف" فوطة من فوق مقعد الشرفة، وأخذ يجفف شعر "ذاكر" المبلل، ووجهه ويديه. تناول الخطاب من يد أخيه، وقرأه بحماس. لقد نجح "ذاكر" في الوصول لاختبار الأداء، رغم ضخامة عدد المتقدمين، الذي وصل إلى أربعين ألفًا.

العزيز "ذاكر خان"،

تم اختيارك من العشرين شخصًا الذين سيؤدون اختبار الأداء، في "مومباي"، من بين أربعين ألف متقدم.

تاريخ الاختبار: ١٢ أغسطس ١٩٩٥

الموعد: الحادية عشرة والنصف صباحًا

العنوان: إستوديوهات "محبوب"، "هيل رود"، "باندرا ويست"

لصالح شركة "سوبر كاسيتس إندستريز"

"ريتيكا أوبروي"

سأله "ذاكر":

- هل سيسمح لي بابا بأداء الاختبار؟

- لا تقلق، سأتحدث إلى بابا وأقنعه بذهابك إلى "مومباي".

- كلا! لا تقل له شيئًا. لقد اتخذتُ قراري بالفعل. سأسافر مساء الجمعة، طلبتُ من أحد زملائي في المسرح أن يحجز لي تذكرة. أخبر أبي بالمسألة، عقب ذهابي.

قال "عارف" باستسلام:

- كما تريد يا أخي.

أحس بالقلق، لم يكن واثقًا من رد فعل أبيه. قال له: - لكنك ستحتاج لبعض المال في تلك المدينة الكبيرة.

- لديَّ ألفي روبية، من الجائزة التي فزت بها في مهرجان المسرح للجامعات، الشهر الماضي. يمكنني تدبر الأمر بذلك المبلغ، لبعض الوقت.

أضاف بثقة:

- لو لم يتم اختياري للفيلم، فسوف أبحث عن وظيفة مؤقتة.
صباح الجمعة، وضع "عارف" ألفيَّ روبية إضافية في يد "ذاكر"، الذي سأله: - كيف تدبَّرتَ هذا المبلغ؟
تهرَّب "عارف" من الإجابة، وقال له: - ولماذا تشغل نفسك بهذه المسألة؟
أصرَّ "ذاكر" على معرفة مصدر المال. قال "عارف": - يبدو أنك نسيت أنني بدأتُ التدريس في مركز "جولدن" للتدريب.
- آه صحيح! لكنك بحاجةٍ للمال من أجل دروس الأدب الهندي.
- سأتدبَّر الأمر. على كل حال لقد اكتمل العدد لدى الأستاذ "بالرام تيواري". سألتحق بدروسه العام المقبل. عندها، ستكون أنت نجمًا لامعًا، وستعينني في تسديد مصروفات دروس الأدب!
ابتسم "ذاكر"، وقال:
- إن شاء الله.
- أين ستقيم في "مومباي"؟
- أحد زملائي في المسرح سبقني إلى هناك. سيرتب لإقامتي مع أسرة تنتمي لولاية "ماهاراشترا"، مقابل مبلغ مالي أدفعه لهم.
- عندما وصولك "مومباي"، اتصل بي على تليفون منزل "مريتونجاي". سأكون هناك في السابعة.
- حسنًا يا أخي.
في تلك الليلة، لم يعد "ذاكر" للمنزل. انتاب الأم القلق. سألت "عارف" عنه، فأخبرها ببعض التردد. أحسَّتْ بالصدمة، لكنها تمالكت نفسها، وتمكَّنت من إبلاغ الأب. لدهشة الجميع، لم يغضب الأب بتاتًا، بل طلب عنوان "ذاكر" في "مومباي"، لكي يرسل له حوالةً مالية.

حزنٌ عميق

14

نزل "عارف" من الميني باص في "نايا مور"، وبحث عن توكتوك يُكمِل به طريقه للمنزل، لكنه لم يجد واحدًا.

كانت ظهيرة أحد أيام الصيف في عام 1996. بدا الهواء خارجًا من فرنٍ شديد الحرارة. تطايرت ذرات الغبار في دواماتٍ صغيرة. تحركت الأكياس البلاستيكية الملقاة على الأرض، وأوراق الشجر الجافة، في دوائر. ترتفع عن الأرض قليلًا، ثم تهبط ثانيةً. جميع الدكاكين مغلقة، ولا أحد في الطرقات، مطلقًا. الطريق المؤدِّي إلى البوَّابة رقم ٢ في "مستعمرة الشرطة" يشع بسخونةٍ غير مُحتَملة.

كان مضطرًا للسير لأكثر من نصف ساعة للوصول إلى المنزل. قرَّر "عارف" انتظار أي توكتوك عابر، أسفل شجرة "بيبال" كبيرة. جلس على الرصيف الأسمنتي، تحت ظل الشجرة، وفتح صفحات جريدة "هندوستان". تصدَّرت الصفحة الأولى صورة "أتال بيهاري فاجبايي" وهو يؤدِّي يمين الولاء، بصفته رئيس الوزراء الجديد للهند.

فجأةً، سمع "عارف" صرخة فتاة. التفت بحثًا عن مصدر الصوت. على بُعد خطوات قليلة، شاهد رجلًا يحاول جَرِّ فتاة شابة نحوه. وقف "عارف" ليستطلع الأمر، كانت الفتاة مستمرة في الصراخ. رأى "عارف" وجهها بوضوح.

كانت "كافيتا"!

صاح "عارف" بغضب:

- يا ابن الحرام!

تناول حجرًا كبيرًا من أرضية الممر الحجري، وسارع بالركض نحوهما. رددت "كافيتا" اسمه، بشيءٍ من الاطمئنان، رغم خوفها. حين وصل إليهما، كان الرجل قد ركب الموتوسيكل الـ"ياماها"، الذي أوقفه على ناصية الطريق، وانطلق به مبتعدًا. قذفه "عارف" بالحجر، لكنه لم يصبه.

التفت إلى "كافيتا"، التي كانت تبكي بشدة. قال لها: - لا تبكي، أنتِ بأمانٍ الآن يا "كافيتا".

أحسَّ بالعطف عليها. حملت مشاعره تجاهها نوعًا من الأبوة.

كانت "كافيتا" لا تزال تبكي، حين لمح توكتوك وأوقفه.

سألتهما "سوميترا" وقد لاح الخوف على وجهها:

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

نقلت نظراتها بينهما. بقيت "كافيتا" صامتةً للحظات، ثم احتضنت أمها وهي تبكي.

وصف لها "عارف" ما حدث، باختصار.
رددت "سوميترا":
- يا إلهي!
احتضنت ابنتها بقوة، وقالت:
- نشكر الإله الذي أرسل "عارف" في الوقت المناسب.
بعد ثلاثة أو أربعة أيَّام من حادث "نايا مور"، وبينما كان "عارف" يجلس مع شقيقاته في حجرة المعيشة، دخلت "كافيتا" عليهم، وفي يدها كتاب "مبادئ الكيمياء العضوية". كانت ترتدي تنورة طويلة وبلوزة، بدرجاتٍ متفاوتة من اللون البيج. قالت بابتسامةٍ، وهي تزيح خصلة شعر عن وجهها: - جئتُ لتدرِّسني الكيمياء.
ابتسم بدوره وقال:
- حسنًا. تعالي معي إلى غرفة المذاكرة.
ما الذي أتى بها فجأةٍ؟
الأم، التي كانت تقطِّع الخضروات في الحجرة ذاتها، سددت إليهما نظرات نارية، فيما امتقع وجه "رابية". لعلها كانت تحاول تحليل زيارة "كافيتا". لاحظ "عارف" ما حدث، فقال على الفور: - غرفة المذاكرة ضيقة، من الأفضل أن نجلس في الشرفة.
منذ ذلك اليوم، صارت زيارات "كافيتا" منتظمة ومتكررة.
فكر "عارف": "تشك ماما في وجود علاقة بيني وكافيتا". التزمت الأم الصمت، ولم تقل شيئًا، بتاتًا، لكن "عارف" أحس بارتيابها يحاصره. كان متيقنًا أن "سوميترا" أيضًا تشك في طبيعة علاقتهما. بل إنها لمحت بذلك بضع مرات، بعباراتٍ مُبهَمة. لم يعرف كيف يلفت نظر "كافيتا" للمسألة. هو نفسه لم يفهم سبب وجودها المتكرر في بيتهم، لكن قلبه لم يطاوعه على صدها أو التعامل معها بجفاء.
بعد أشهر قليلة، في عيد "راكشا باندان"، وهو عيد هندوسي لتقديس العلاقة الأخوية، تقوم فيه الأخت بعقد رباط حول معصم شقيقها، ويتعهد هو بحمايتها دائمًا، ويقدم لها الحلوى. زارت "كافيتا" منزل "عارف"، وعقدتْ رباط الأخوة حول معصمه، معلنةً بذلك أنه أخ لها.
منذ ذلك اليوم، تغيرت معاملة الأم لها، وصارت تخاطبها بكلمة "ابنتي". "رابية" كذلك بدأت تعاملها بلطفٍ أكبر. لم يعد هناك مجالٌ للشك والريبة.
أحس "عارف" بالاستغراب، حين صارت "كافيتا" تخاطبه بكلمة "أخي". كيف يمكن لابنة المرأة التي يحبها أن تكون أخته؟ شعر بأنه شخصية داخل مسرحية إغريقية.
مرت أشهر عديدة منذ أن توطدت الصداقة بينه و"كافيتا"، وبدأت تكاشفه بأمورٍ شخصية.

في أحد الأيام، صارحته بارتباك بأنها تحب فتى مسلمًا، اسمه "منذر علي". أخرجت له صورة فوتوغرافية لشابٍّ أبيض البشرة، ممتلئ الجسم، يرتدي بذلة سوداء. طلبت من "عارف" أن يقابله. فكر "عارف" في ردِّ فعله لو أن إحدى شقيقاته صارحته بأنها تحب شابًّا هندوسيًا.

أحس "عارف" بأن اسم "منذر علي" مألوفٌ بالنسبة له، والشكل كذلك. ولكن متى وأين التقى هذا الشخص؟

في تلك الليلة، استلقى على فراشه وواصل التفكير في المسألة. بغتةً، تذكره جيدًا. تردد اسم "منذر علي" في صحف العام الماضي، بكثرة، واحتلت صورته الصفحات الأولى. كان على علاقة غرامية بفتاةٍ من أصلٍ "مارواري"، تنتمي لعائلة من كبار رجال الأعمال في "باتنا"؛ وعندما حملت منه، هجرها وتخلى عنها، وانتهى الأمر بانتحارها. التقطت الصحافة المحلية الحدث، وتم تقديم شكوى رسمية ضده، لكن والد "منذر علي" له علاقات شتى، مع كافة الجهات السياسية المناسبة، كما يمتلك جيوبًا عامرة بالأموال. خرج "منذر" من القضية بسلاسةٍ تامة، دون أن يمسَّه أي عقاب. كان "عارف" متأكدًا من أنه الشخص نفسه الذي تحبه "كافيتا". امتلأ قلبه بالهواجس، فقرر لقاءه دون تأخير.

اتفقوا على أن يكون اللقاء في مطعم "مايُر"، داخل حديقة "سانجاي غاندي البيولوجية". جاء "منذر" مرتديًا ثيابًا بيضاء، وحذاءً جلديًا من اللون ذاته. متوسط الطول، منتفخ الخدين، شديد البياض، كما لو كان إنجليزيًا. حيَّا "عارف" بحرارة: - السلام عليكم، أخي الحبيب.

شعر "عارف" بنفورٍ شديدٍ تجاهه. هناك شيءٌ شيطانيٌ شرير في هذا الشخص.

قال "عارف" لـ"كافيتا":

- انتظرينا هنا.

- حسنًا يا أخي.

جلست "كافيتا" على مقعدٍ معدني داخل المطعم. سار "عارف" و"منذر" معًا. قال الأخير ضاحكًا: - حين أخبرتني "كافيتا" بأنني سأقابل أخاها، شعرتُ بالقلق؛ ثم شرحت لي المسألة، فأحسستُ بالسعادة.

أضاف:

- سيكون عملًا عظيمًا لو ساعدتني في الزواج من "كافيتا". أولًا، ستكون قد أديتَ واجبك كأخ، وثانيًا، ستكسب ثوابًا لأنك ستُدخِل إنسانة غير مؤمنة إلى الإسلام.

- وكيف تظن بأنني سأسمح لك بأن تتزوج "كافيتا" أصلًا؟

- لماذا؟ هل يعيبني شيء؟

- كل الناس في "باتنا" يعرفون سُمعتك جيدًا. هل أنت بحاجة لأخبرك المزيد؟

- يا أستاذ "عارف"، الناس يحبون اختلاق الحكايات. أنا نفسي سمعتُ الكثير عنك، أنت ووالدة "كافيتا".
مَرَّرَ أصابعه في شعره، وأردف:
- صحيح، لديَّ صديق في "مستعمرة البنك".
صمتَ وحدَّق في "عارف"، متمعنًا، وهو يبتسم ابتسامة عريضة، ثم قال بهدوء: - لم أخبر "كافيتا" شيئًا عن هذا الموضوع، لأنني لا أحب الشائعات والقيل والقال.
أحسَّ "عارف" كما لو أن أحدًا سكب عليه ماءً مغليًا. فكَّر في غيظ: "كيف يجرؤ على التحدث إليَّ بهذه الطريقة؟".
قال له بغضب:
- لا أريد التحدث معك. انصرف من هنا، وافعل ما يحلو لك.
ابتعد "عارف" بخطواتٍ سريعة. فوجئ بـ"كافيتا" وراءه. سألته: - ما الذي حدث يا أخي؟
تمنى ألا تكون سمعت شيئًا من حواره مع "منذر". قال بحزم: - لنعد إلى البيت. لديَّ ما أقوله لكِ عن "منذر".
سارا معًا في صمتٍ ثقيل. أخيرًا، قالت له بخوف:
- لا تقل شيئًا لبابا وماما عن "منذر"، من فضلك.
- بشرطٍ واحد.
- ما هو؟
- بشرط ألا تقابلي هذا الوغد ثانيةً.
- لماذا يا أخي؟
- لأنه نذل، دمَّر حياة العديد من الفتيات.
- لكنني لا أصدِّق أنه..
قاطعها "عارف"، وقد نفد صبره:
- إذا كنتِ على استعداد لتدمير حياتك، فاذهبي وتزوجيه.
قال ذلك، وأوقف توكتوك، ركبه بمفرده، وغادرها.
مساء اليوم ذاته، أخبر "عارف" "سوميترا" عن علاقة "كافيتا" بـ"منذر". ظهر الرعب على وجهها. قالت: - لا أصدِّق أن ابنتي على علاقة بولدٍ مُسلم! ليس ذلك فحسب، بل ولد سيئ السُمعة.
وضعت رأسها بين يديها، وتساءلت: "ترى هل تقابله فقط، أم أن الأمر تجاوز ذلك وهناك أشياء أخرى؟".
فهم "عارف" ما تقصده بـ"أشياء أخرى". واصلت حديثها إلى نفسها، بصوتٍ مرتفع: "ولمَ لا؟ إذا كانت الأم، نفسها، صاحبة التاسعة والثلاثين سنة، على علاقة غرامية؟ لم لا تفعل هي الشيء ذاته؟".
أعلنت: "عليَّ أن أتحدَّث إلى راميش".

دخلت لتتصل بزوجها. سمع "عارف" صوتها وهي تتحدث معه. حين عادت إليه، سألها بحذر: - ما الذي ستفعلانه الآن؟ هل ستتحدثان مع "منذر علي"؟
- وما الذي سأقوله لهذا الولد؟ وما الذي سأقوله لـ"كافيتا"؟ لقد لوَّثتْ اسم عائلتنا بهذه العلاقة الغرامية مع شخص مسلم. جميع المسلمين سواء. يقومون أولًا بإغواء واستدراج البنات الهندوسيات، ثم يجبرونهن على اعتناق الإسلام.
- كيف تقولين ذلك؟ ليس كل المسلمين سيئون.
- لماذا إذن تهرب الفتيات الهندوسيات مع الشُّبَّان المسلمين، وليس العكس؟
- الواقع أن البنات المسلمات أيضًا يهربن مع الفتيان الهندوس، طوال الوقت.
أضاف:
- لا بد إذًا أنكِ تعتقدين أن علاقتنا نوعٌ من المؤامرة، وأنني مجاهدٌ إسلاميٌ جاء لتدنيس سيدة هندوسية!
أجابته على الفور:
- مَن يدري؟
أحس "عارف" كأن أحدًا ضربه على رأسه بسيخٍ حديديٍ ساخن. لم يصدق ما قالته "سوميترا" للتو. سكتَ، شاعرًا بجرحٍ عميق، محاولًا البحث عن ردٍ مناسب على إجابتها المستهزئة، ولما لم يجده، غادر بيتها ببساطة.
مرَّ شهر على حواره مع "سوميترا"، لكن كلماتها الجارحة لا تزال تلدغه - كلما تذكرها - كالعقارب. "كيف تظن بي ذلك؟". شعر بحزنٍ عميقٍ، لقد انتهت قصة حبه مع "سوميترا". هل سيراها مرة أخرى؟
وقف "عارف" منتظرًا دوره في مقهى إنترنت "يانج بيهار"، مقهى الإنترنت الوحيد في منطقة "راجا بازار". سيطر شقيقه على تفكيره، كما هو الحال في الشهرين الأخيرين، فقد توقف "ذاكر" عن الاتصال وإرسال الإيميلات لثلاثة أشهر متتالية. مرَّت سنة كاملة منذ أن غادر إلى "مومباي". اتصل "عارف" بصاحبة البيت، فأخبرته بأنه انتقل لمسكنٍ آخر، وأنها لم تره منذ ذلك الوقت. قالت أيضًا إنه لم يترك معها عنوانه الجديد أو أي رقم تليفون للتواصل معه. أحس الجميع بقلقٍ بالغ. قرر "عارف" السفر إلى "مومباي"، إذا لم يتصل "ذاكر" خلال العشرة أيام القادمة.
اعتاد "ذاكر" عدم التواصل مع الأسرة كلما سافر خارج "باتنا"، لكن ثلاثة أشهر كاملة فترة طويلة لهذا الغياب التامّ، حتى بمقاييس "ذاكر".
ولما كانوا لا يملكون تليفون في منزلهم، ويتعين عليهم استخدام تليفون الجيران، فإن "ذاكر" يفضل دائمًا كتابة الخطابات على الاتصال تليفونيًا.
كتب لـ"عارف" مرة: "لماذا نزعج عائلة "فيرما" دون داعٍ؟".

وصلت رسالته الأولى عقب شهر من استقراره في "مومباي". لم ينجح في اختبار الأداء. سخر منه مساعد المخرج، ومن لكنته، وقال إنه لا يصلح إلّا لمسرحيات السِيَر الشعبية التي تقدم في القرى.

كتب "ذاكر" خطابات أخرى لأخيه، يصف فيها تفاصيل معاناته للعثور على فرصة جيدة كممثل، في تلك المدينة الضخمة. اتصل بـ"عارف" أربع مرات، لكن المكالمات كانت قصيرة ومختصرة، واقتصرت على عبارات سريعة مثل "كيف حالك؟ وكيف حال جميع أفراد الأسرة؟".

بعد عام من سفر "ذاكر"، افتُتِح مقهى إنترنت، أو ما يُعرَف بالـ"سايبر"، في "راجا بازار"، وتحوَّلت الخطابات إلى إيميلات. لكن استخدام الإنترنت كان شيئًا جديدًا في "باتنا"، ولذلك كانت الخدمة مرتفعة السعر، واضطر "عارف" للذهاب إلى "السايبر" مرَّة واحدة كل أسبوع، أو اثنتين، على الأكثر، معظمها في ظهيرة أيام السبت. يدفع "عارف" عشرين روبية لكل ربع ساعة، وهو المبلغ ذاته الذي يدفعه في المواصلات حول المدينة، طوال أسبوعٍ كامل.

ليس هناك إيميل جديد له، اليوم، عدا بعض الإيميلات الإعلانية، عن حقيبة يد من دار أزياء شهيرة، وكتبٍ من قوائم الأعلى مبيعًا، وعلاجٍ للعجز الجنسي، وغيرها.. أعاد قراءة بعض إيميلات "ذاكر" القديمة.

من: zakirkhan_actor@hotmail.com التاريخ: ٢١ يونيو 1997
إلى: "Arif Khan" arif1970@rediffmail.com
أخي العزيز: السلام عليكم..

أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام في "باتنا". لديَّ فرصة للعمل مع مسؤول إحدى شركات عروض الأزياء، ويُدعى "مالكاني". وعدني بدورٍ في أحد أفلام "ياش تشوبرا". أنا متحمس حقًّا للقاء هذا المخرج العظيم.

سأكتب لك المزيد عن ذلك في الإيميل القادم.

سلامي لجدتي وبابا وماما. محبتي لـ"رابية" و"نَزنين" و"هوما".

أخوك.. "ذاكر".

التاريخ: ١١ يوليو ١٩٩٧
أخي العزيز.. السلام عليكم

استمعتُ إلى نصيحة أصدقائي العاملين في مجال التمثيل، وبدأتُ أتردد على مسرح "بريتفي" بانتظام. أنت تعلم أن هذا المسرح تابعٌ لعائلة "كابور" الفنية. يقول الجميع إنه المكان الذي يتردد عليه مشاهير المخرجين والمنتجين، وأنه المكان الأفضل لكي يلمحك أحدهم وتلفت انتباهه.

لنرى ما سيحدث بعد ذلك.

أخوك.. "ذاكر".

الإيميل التالي، والأخير، كان بتاريخ ٢٤ فبراير، وفيه يبلِّغه "ذاكر" بأنه بدأ العمل في وظيفةٍ بنظام الدوام الجزئي، في إحدى الشركات، وأنه لا داعي

لإرسال المال له.
خلال إعادته لقراءة الإيميلات القديمة، وصله إيميل جديد من "راجيب موهانتي"، أحد أصدقاء "ذاكر" الجُدُد في "مومباي". في إحدى المرات، أرسل "ذاكر" إيميل واحد لأخيه وثلاثة من أصدقائه الجدد، عن مقولات حول النجاح في الحياة. حين استبد القلق بـ"عارف" على شقيقه، أخذ تلك العناوين الثلاثة وأرسل لأصحابها إيميل يسأل عنه. ها هو أحدهم يرد عليه، أخيرًا. فتحه "عارف" بمزيجٍ من الخوف والحماس: من: rajeeb.mohanty@yahoo.com التاريخ: ٢٣ أبريل ١٩٩٨
الموضوع: "ذاكر"
إلى: "Arif Khan "arif1970@rediffmail.com
تحياتي الأخ العزيز "عارف"،
المرَّة الأولى التي التقيتُ فيها "ذاكر" كانت حين أتى للإقامة في منزل عائلة "تيرودكار" كمستأجر. أنا أيضًا كنت هناك، بالصفة ذاتها. أنا سيناريست مبتدئ من "أوريسا".
عمل "ذاكر" بدوامٍ جزئي في محلٍ للهدايا، نظير ألفي روبية شهريًا. لكن هذا المبلغ غير كافٍ بتاتًا للحياة في هذه المدينة. بعد سداد الإيجار لصاحبة المنزل، لم يكن يتبقى لديه ما يكفي للمواصلات التي يحتاجها للوصول إلى إستوديوهات الأفلام ومكاتب المنتجين. أخبرني بأنه لا يريد أن يكون عبئًا على أسرته، ولذلك كذب عليكم بخصوص حصوله على أدوارٍ صغيرةٍ في أفلامٍ دعائيةٍ، وأن دخله يكفي لتغطية نفقاته الشخصية. الحقيقة أن "مالكاني" غشَّه واستولى منه على مبلغ عشرة آلاف روبية. شعر "ذاكر" بندمٍ بالغٍ على ضياع ذلك المبلغ، لأنه كان قد استلفه من ثلاثةٍ من أصدقائنا الممثلين، واضطر لتحمُّل عبء إعادته إليهم.
قبل شهرين، فقد وظيفته في محل الهدايا كذلك، بعد أن أغلق المحل أبوابه. كان بحاجةٍ ماسَّةٍ للعمل. سدَّد لصاحبة البيت مستحقاتها، من راتبه الأخير، وأخلى حجرته.
لا يزال "ذاكر" يحلم بالتمثيل والنجومية. لطالما تحدَّث عن حياته معك في "باتنا"، وأدركتُ من حكاياته أن علاقتكما تشوبها صداقة عميقة، وليست أخوة فقط. كان يشعر بالقلق عليك، ويفكِّر بك طوال الوقت.
المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان بصحبة "أسلَم"، وهو مسؤول كبير في جمعية الفنانين الصِغار. أوشك "ذاكر" على البكاء، وهو يخبرني باضطراره للعب أدوار صغيرة جدًا في الأفلام. أتى هنا ليصبح نجمًا مثل "ديليب كومار" و"أميتاب باتشان" و"شاروخان"، وانتهى به الحال لتمثيل أدوار شحاذ أو مريض بالجذام أو صديقٍ أحمق، بل إنه في الأغلب يظهر ضمن المجاميع والحشود كـ"كومبارس". يتلقَّى بين مئتي وخمسمئة روبية لكل وردية عمل مدَّتها ثمان ساعات.

شعرتُ َبالأسى حياله، ولكن ما الذي يمكنني فعله؟ أنا نفسي أعاني الأمرَّين لأتمكن من كسب بعض المال، في مدينة الأحلام هذه. تخادع المدينة الكثيرين من أمثالنا، وتعدهم بالحظ والثروة، ثم تلقي بنا في مزبلة التاريخ.

لم أرَ "ذاكر" منذ شهر ونصف. إذا قابلته في أيِّ مكان، سأطلب منه الاتصال بك.

إذا اتصل بك، أرجو أن تطلب منه العودة إلى "باتنا". أنا بدوري وعدتُ أبي بالعودة إذا لم يحدث شيء جديد في عملي خلال الأشهر الثلاثة القادمة.

أرجو أن تكون رسالتي قد منحتك شيئًا من الراحة والاطمئنان.

تحياتي..

"راجيب"

15

صباح أحد أيام صيف ١٩٩٨، استلقى "عارف" على الأريكة القديمة في الشرفة، يقرأ الصفحات الرياضية في جريدة "تايمز أوف إنديا"، مستمتعًا بنسماتٍ لطيفة. سمع دقًّا على الباب، وقبل أن يتوجه لفتحه، سبقه والده، الذي كان يجلس قريبًا منه، مستغرقًا في قراءة ملفٍ رسمي.

وقف رجلٌ شديد السُمرة، بالباب، له أسنان داكنة من أثر التبغ، ويلبس ثيابًا قطنية بيضاء. حيَّا الرجل والده، مُلصِقًا كفَّيه ببعضهما، ثم همس له بشيء، مشيرًا باتجاه الشارع.

قال الأب لـ"عارف"، وهو ينزل السلم بصحبة الرجل:

- حضِّر أربعة أو خمسة أكواب من شراب "روح إفزا"، وهاتها لنا في الأسفل.

وقف "عارف" يستطلع الأمر، فرأى ثلاث سيارات. واحدة "تاتا سومو" بيضاء، والثانية "ماهيندرا كوماندر چيب" زرقاء، والثالثة "ماروتي 800" بيضاء. وقف الأب بجوار السيارة الـ"سومو"، يتحدث مع أحد داخلها.

نزل "عارف" بأكواب شراب الورد، كما أمره والده، وقدَّمها للرجال داخل السيَّارة. في المقعد الخلفي، جلس رجل بدين، له لغد كبير، ويضع سلسلة سميكة من الذهب حول رقبته، ونظارة شمسية "ريبان" لها عدسات خضراء على عينيه. تناول كوبًا، ارتشفه ببطء، وهو يتحدث مع والده. قال له:

- هل تدرك يا سيد "خان" أن السبب الرئيسي في عدم إيذائك حتى الآن هو كونك مسلمًا، ولك أصول ريفية؟ لكن دعني ألفت نظرك أنك إذا واصلتَ التعامل بهذه الطريقة الاعتباطية، العشوائية، فإنك ستورط نفسك في مشكلة كبيرة.

أضاف وهو يحكُّ رأسه بتمهلٍ واستمتاع:

- تذكر أن "دادان روي" ليس صديقي فحسب، لكنه يملك أيضًا علاقات وطيدة مع رئيس الوزراء.

ميز "عارف" لهجة تهديد واضحة في كلامه. لاح القلق والتوتر على وجه أبيه. مرت عشر سنوات على تعيينه في إدارةٍ هامةٍ في الشُرطة، يُشار إليها اختصارًا ب- NGO، ومن مهامه متابعة تقارير المخابرات حول الأنشطة المعادية للقومية داخل الولاية، والبحث في الادعاءات الموجهة ضد كبار الضباط، وتنسيق عمليات نقل الضباط. الأخيرة تحديدًا عمليةٌ مُربِحةٌ لكل من لا يملك ضميرًا حيًّا، ويرضى بتلقي الرشاوى، مقابل ترشيح أحد الضباط للخدمة في مكانٍ معين، يتيح له بدوره تلقي المال والإكراميات. قد يدفع أحد الضباط الصغار مبلغًا في حدود خمسين ألف روبية، مقابل نقله إلى

الأقسام القريبة من مناجم الفحم في جنوب "بيهار"، لأنه يدرك جيدًا أن بإمكانه الحصول على ضعف المال الذي دفعه، خلال أسبوعين فقط.

لا يوافق الأب على مبدأ الرشوة، إطلاقًا، في القسم الذي يرأسه. كان حريصًا على أن تتم جميع عمليات النقل وفقًا للضوابط التي أرستها الحكومة. يكرهه الكثير من مرؤوسيه، لمنعه إياهم من تلقي أي مبالغ مالية، من أي نوع. حتى فترة قريبة، كان رئيسه في العمل ينتهج السلوك نفسه، ولكن مع قدوم الرئيس العام الجديد لقطاع الشرطة، تغيرت الأوضاع؛ إذ جلب "دادان روي" كمفتش عام مساعد، بناءً على توصية من أحد كبار وزراء الولاية. منذ اليوم الأول، تعامل "دادان" مع الأب بكراهيةٍ ونفور، لأنه أدرك أن كسب مال إضافي وسريع من وظيفته مسألة صعبة في وجوده. أراد "دادان" التخلص من الأب. من جانبه، أبقاه الأخير تحت الملاحظة، طوال الوقت.

غادر الزائر، برجاله، ورغم إحساس الأب ببعض التهديد، إلا أنه قرر التمسك بمبادئه.

في الخميس التالي، نُقِل الأب من رئاسة القسم إلى الكتيبة الخامسة من شُرطة "بيهار" العسكرية، فرع "باتنا"، فيما احتل "دادان روي" منصبه السابق. في المساء نفسه، باشر الأب عمله في منصبه الجديد، وبدأه بتقديم تقرير لرئيسه المباشر. عقب ثلاثة أيام، تلقى الأب خطاب انتداب للعمل في منطقة تشهد محاولات مستمرة للسيطرة، من قِبَل أعضاء الحزب الشيوعي الهندي (الماوي)، تقع قريبًا من "جيهان آباد". قبل شهرٍ واحد، قام هؤلاء الماويون بمهاجمة رجال الشُرطة المكلفين بحراسة المنطقة. بعد أن وصلت أعداد كبيرة من رجال الأمن، عقب ساعات، تفاجأت بجثث خمسة من رجال الشرطة الذين تعرضوا للنحر، واختفاء بقية الجثث. لا تزال التفاصيل المرعبة للحادث تسكن عقول الناس. توسلت الأم للأب كي يرفض الذهاب، وشجعته على تقديم استقالته، لو لم يستطع الامتناع عن السفر.

لم يكن في مزاجٍ يسمح له بالاستماع إلى توسلاتها، قال بحسم:

- "حميدة"، أنا رجل تعود أصوله إلى الـ"بتان"، لا يمكنني التهرب من مسؤولياتي بهذه البساطة، كما لو كنت جبانًا. الآلاف من رجال الشرطة يؤدون مهامهم في مثل هذه الأماكن التي يسيطر عليها الشيوعيين.

أضاف متلطفًا، بنوعٍ من الفلسفة العميقة:

- اسمعي، الحياة والموت في يد ربِّ العالمين.

خلف ذلك القناع من الفلسفة، والأصول العريقة، وقف رجل يعاني من مشكلةٍ وحيدةٍ، هي إطعام أسرته وتدبير متطلباتها، حتى لو كان ذلك على حساب حياته.

بعد أسابيع قليلة من مغادرة الأب لجهة عمله الجديدة، شاهد "عارف" أمه وهي تذرع الشقة ذهابًا وإيابًا، والمسبحة في يدها اليمنى. كانت قد رأت غرابًا على حافة نافذة حجرتها، صباح ذلك اليوم. أطلق الطائر صيحات متكررة، دون توقف. حكت الموقف لـ"عارف"، وقالت له بأن ذلك فأل سيئ. فردت سجادة الصلاة، وقبل أن تقف عليها، همهمت:

- يا رب، احفظ لي أسرتي من عين الحسود.

لم يتصل "ذاكر"، ولم يرسل أي إيميل. أرسل صديقه "راجيب" إيميل جديدًا، مؤكدًا لـ"عارف" أن شقيقه بخير؛ لكن ذلك لم يطمئن "عارف"، إلا قليلًا. تساءل عن السبب الذي يجعل "ذاكر" يستمر في مقاطعته لهم، على هذا النحو. قرر أن يستأذن والده، فور عودته في أول إجازة، كي يسافر إلى "مومباي". تذكر والده، وعاوده القلق عليه، من تواجده في قلب منطقة يسيطر عليها الماويون.

لم تحظَ الأم بنوم جيدٍ وعميق، منذ سفر والده، ولجأت إلى صلاة التهجُّد كل ليلة، مع حماتها. كان "عارف" يدرس في إحدى الليالي، حين لمحهما تصليان معًا. دقَّت ساعة بعيدة، ١٢ مرَّة، محطِّمةً سكون الليل.

حين رآهما، فكَّر: "اضطر بابا للمخاطرة بحياته، لأن له ولدين فاشلين. لو كنَّا نعمل في وظائف جيدة ونكسب مالًا يعين الأسرة على الحياة، لما تردَّد في تقديم استقالته. رغم عملي لثمان ساعات يوميًا في التدريس، فإنني لا أحصل إلا على أقل القليل. عليَّ أن أبذل جهدًا أكبر هذه المرة في امتحان الخدمة المدنية، وأن أنجح مهما كلفني الأمر، من أجل بابا وماما".

تناول "عارف" كتاب "مفكرون إداريون"، وقرر إنهاء فصل "اتخاذ القرار" لـ"هيربيرت سايمون"، ذلك النهار.

دخل المطبخ ليعد لنفسه كوبًا من الشاي. كشف الغطاء عن إناء الحليب، فوجد أنه فسد. في هذا الجو الحار، يصعب الحفاظ على الحليب طويلًا دون ثلاجة. ولكن كيف ينبغي على الأم أن تتصرَّف؟ تواصل غلي الحليب ثلاث أو أربع مرات في اليوم الواحد. لا تتحمل الميزانية شراء ثلاجة.

لمح نصف ليمونة، فقرر أن يعصرها على الشاي، وأن يتخلى عن فكرة الشاي بالحليب.

حين فرغ من شرب الشاي، كانت جدته قد انتهت من صلاتها، وعادت إلى حجرتها. ظلت الأم جالسةً على سجادة الصلاة، مغمضة العينين.

فور عودته إلى حجرته، رن جرس الباب مرتين متتاليتين. تساءل في دهشة عمن يكون الطارق في هذه الساعة؟ أسرع ليفتح، لكن أمه سبقته. وقف عسكري بالباب، أخبرهما أن كتيبة الأب في "جيهان آباد" تعرضت لهجوم من الماويين. قال إن عدد وأسماء القتلى والجرحى لا يزال مجهولًا.

تحدث العسكري بشكل روتيني بارد. تثاءبَ كثيرًا وهو يتكلم، محاولًا أن يظل مستيقظًا. بقيت الأم صامتة، إلى أن غادر العسكري. أطلقت بعدها

صرخة قوية، أيقظت كل مَن في المنزل. انضمت إليها الجدة والبنات، وهن يبكين بحرقة.
وقف "عارف" مشدوهًا. لم يستطع الكلام لبعض الوقت، ثم سالت الدموع على خديه. توافد الجيران على المنزل. ارتفعت أصوات العويل والبكاء من بيوتٍ أخرى. قال لأمه:
- لا تبكي، أرجوكِ. بابا بخير. سأذهب إلى مركز الشُرطة لأعرف مستجدات الوضع.
التفت إلى جدته، التي كانت تنتحب في ألم:
- كثِّفي الدعاء يا جدَّتي، ليعود ابنكِ سالمًا.
في الطريق، داخل المستعمرة، تبادل الكثير من الرجال والسيدات تفاصيل الهجوم، بأصواتٍ هامسةٍ، خائفة. استعدَّ اثنان من الجيران لركوب سيارة "چيب"، والتوجه إلى مركز الشُرطة. انضم "عارف" لهما. رغم محاولاته لطمأنة أسرته، إلا أنه شعر برغبةٍ في التقيؤ، من فرط القلق والتوتر. أخذ يدعو الله في سِره: "يا رب، ليَكُن أبي بخير".
عاد للمنزل بعد ساعتين، وأخبرهم أن الأب واحد من الخمسة الناجين، لكنه أصيب برصاصةٍ في كتفه. سوف يعيدونه للعلاج في مستشفى "باتنا" الجامعي. سجدتْ الأم على الفور، شكرًا لله. لحقت بها الجدة والبنات، اللاتي فردن سجادات الصلاة، ورحن يصلين ويدعين بخشوع.
رغم سعادته بنجاة والده، إلا أن أصوات النحيب في البيوت المجاورة، أثارت حزنه وألمه.
عليه أن يحضر عدة جنازات في الغد.
سألته الأم:
- متى سنذهب إلى المستشفى يا بُني؟
أضافت:
- لا تنسَ إبلاغ "ذاكر".
وصل الأب المستشفى في اليوم التالي. انشغل "عارف" بالانتقال المتكرر بين البيت والمستشفى، ولم يتمكن من الكتابة لـ"ذاكر" إلا بعد ثلاثة أيام. راجع الإيميلات الواردة في اليوم التالي، وأحسَّ بالارتياح حين رأى ردًّا من شقيقه. سوف يعود إلى "باتنا" يوم الأحد.
قبل بضعة أشهر، لمح "عارف" شقيقه في أحد أفلام "شاروخان". كان شحَّاذًا، في ثيابٍ ممزقة. لم يظهر إلا لدقيقة واحدة على الشاشة. شاهده "عارف" ثانيةً، في فيلم آخر، أخبره "مريتونجاي" عنه. في الفيلم الثاني، ظهر "ذاكر" كصديقٍ للممثل الذي أدى دور الشرير. هذه المرة، ظهر لخمس دقائق على الشاشة. كان "راجيب" على حق. لقد تحول "ذاكر" إلى "كومبارس"، ممثل ثانوي في أدوار متناهية الصغر. كلما فكر "عارف" في الأمر، أحس بحزنٍ بالغ.

لا بد أن "ذاكرً" نفسه يشعر بالأسى. تخيل "عارف" نفسه كعسكري مراسلة لأحد الضباط. فهم ما يشعر به "ذاكر"، وتفهم عدم اتصاله بهم. ربما كان يشعر بالحرج لفشله في "مومباي"، ولم يرغب في العودة إلى "باتنا" خالي اليدين.

بعد ساعتين كاملتين من التأخير، وصل القطار أخيرًا. لوهلة، لم يتعرف على شقيقه. صار جسم "ذاكر" هزيلًا، وغارت عيناه.

احتضنه "عارف" ولم يوجه له أي سؤال.

بعد أسبوعٍ في المستشفى، عاد الأب إلى بيته. لازمه ألم في كتفه، لكن الطبيب أخبرهم أن الجرح بحاجةٍ لبعض الوقت، كي يلتئم.

بعد الحادث، كان "عارف" متيقنًا من أنهم لن يرسلوا والده إلى أماكن تشهد صراعات مع الماويين، لكن في اليوم ذاته الذي كتب فيه الطبيب تقريرًا يفيد بإمكانية معاودته العمل، صدرت أوامر عُليا بإرساله إلى "بالامو"، وهي منطقة أخرى تشهد صراعًا عنيفًا مع الشيوعيين. بعد توسلات من الأم، توجَّه الأب إلى رئيسه في العمل، مصطحبًا معه "عارف"، طالبًا تغيير وجهته.

استقبله السيد "شهزاد علي" بالقول:

- "رشيد"، لم أكن أرغب في إرسالك إلى إحدى مناطق الماويين، مرة أخرى، لكنها أوامر نائب المفتش العام الجديد. عليك أن تتحدث معه شخصيًا.

- نعم سيدي.

كان "عارف" يدرك السبب الرئيسي في تخاذل "شهزاد علي" عن مساعدة والده، فقبل بضع سنوات، اتُّهم بالتحرش الجنسي، خلال عمله في "هازاريباج"، ولجأ إلى الأب كي يتولَّى هو ملف القضية، ويساعده، لكنه رفض التدخل، لمعرفته بسوء أخلاق زميله.

"شهزاد علي" يحاول تصفية حسابه مع الأب.

في نهاية الأمر، وتحت ضغط شديد من زوجته وأمه، اضطر لتقديم استقالته.

أحس الأب أنه يرتكب خطأً بذلك، فراتبه الشهري كان يكفي مصروفاتهم بالكاد، فكيف سيتصرف الآن بنصف ذلك الراتب؟ والعثور على وظيفة، وهو في منتصف الخمسينيات، أمر مستحيل.

أسرَّ لـ"عارف" في أحد الأيَّام: "لو أنني قُتِلتُ على أيدي الشيوعيين، لكان أفضل من رؤية أسرتي وهي تتضور جوعًا". لم يدرِ "عارف" بمَ يجيبه، فلم يقل شيئًا. لم يرغب في ذهابه إلى "بالامو".

فكر الأب في سحب استقالته، لكن "شهزاد علي" كان قد وافق عليها، بالفعل، بسرعةٍ خارقة.

وقفت الأم مستندةً إلى سور الشرفة، وقد استبدَّ بها القلق. انتزعها "عارف" من شرودها حين سألها:

- ما الأمر يا أمي؟ لماذا أنتِ قلقة لهذه الدرجة؟

- لا أعرف كيفية تدبير ميزانية البيت بالمعاش التقاعدي لأبيك. كما أن "نَزنين" ترغب في تقديم أوراقها للدراسات العُليا ونيل شهادة الماجستير. أظن أن البكالوريوس شهادة كافية للفتيات.

صمتت للحظة، ثم أضافت:

- و"رابية" في الخامسة والعشرين، علينا أن نفكر في تكاليف زواجها. يا الله! علينا أن نتدبر مسألة الانتقال إلى مسكن جديد، ودفع إيجاره. يجب أن نُخلي هذه الشقة خلال شهرين أو ثلاثة على الأكثر.

- لا تقلقي، سأقوم بتدريس حصص إضافية، كما أن "ذاكر" يبحث عن عمل حاليًا.

- لكن هذا سيؤثر على استعدادك لامتحان الخدمة المدنية. أنت تقضي نصف اليوم في التدريس.

- سأتمكن من القيام بالأمرين معًا. لا تقلقي.

قال ذلك وهو يدرك أن وظيفته في مركز التدريس والتدريب تستهلك جزءًا كبيرًا من وقته وطاقته. تنتظره المحاولة الرابعة والأخيرة في امتحان الخدمة المدنية. عليه أن ينجح هذا العام، مهما كلفه الأمر. قال لنفسه، مُذكِّرًا: "إن شاء الله".

ماذا لو سقط هذا العام أيضًا؟

بعد أن تكرر فشل أحد أبناء المستعمرة في اجتياز الامتحان، عُثِر على جثته المنتفخة في مياه النهر، بعد ثلاثة أيام من اختفائه.

هل يسير "عارف" نحو المصير ذاته؟

سألته أمه:

- فيمَ تفكر يا ولدي؟

هزَّ كتفيه، وكأنه لا يبالي، وقال:

- لا شيء.

نظر إليها، وأزاح فكرة الانتحار من رأسه، على الفور. رغم وجود الجدة بالقرب منهما، فإنها لم تتدخل في حوارهما مطلقًا. استغرقت في قراءة كتاب بالأردية عن صحابة النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد استندت نظارة القراءة على طرف أنفها الدقيق. بعد قليل، أغلقت صفحات الكتاب، واتجهت للداخل.

رنَّ جرس الباب.

- هل "عبد الرشيد" في المنزل؟

ميز "عارف" صوت الزائر. إنه "شميمُ الله خان"، أحد أقارب والدته. شغل منصب كبير مُحاسبين في حكومة "بيهار" قبل تقاعده. يسكن في

“سامانبورا”.
غطت الأم رأسها بطرف الساري، وقالت مُرحِّبة:
- تفضل يا أخي، تفضل.
- أين “عبد الرشيد”؟
- ذهب “أبو عارف” إلى “راجا بازار”.
جلس “شميمُ الله” على الأريكة البُنية في الشرفة. سألته الأم:
- هل ترغب في بعض الشاي بالليمون يا أخي؟
- كلا يا أختي. لا شاي. مرض السُكري بدأ يزعجني ثانيةً، وأنا لا أستسيغ طعم الشاي غير المحلى. لا تتعبي نفسك.
عبث بظرفٍ أصفرٍ في يده. كان بداخله صورة فوتوغرافية لشاب. سألته الأم باهتمام:
- مَن هذا الولد الوسيم؟
- اسمه “آزاد خان”. إنه الابن الوحيد لصديقي “قاسم خان”. يعمل “آزاد” موظفًا تحت التمرين في “البنك المركزي الهندي”. شاهدت والدته ابنتكم “رابية” في حفل زفاف ابنتي، الشهر الماضي، وترغب في تزويجها لولدها.
همست الأم بارتياح:
- يا كريم يا رب.
سمعها “عارف”. سألتْ ضيفها:
- وكم يطلبون مِنَّا مهرًا؟
- كلا يا أختي! إنهم يخافون الله، سيقبلون أي شيء تقدِّمونه.
ابتسم “عارف” وهو يتأمَّل وجه أمه الذي أضاءته السعادة، فجأة.
جلب هذا الخبر المفاجئ سعادة هائلة لجميع أفراد الأسرة. أعلن الأب بفخر أنه سيعد مأدبة زفاف فخمة، تليق بزوج ابنته. لم تفارق الابتسامة وجهيَّ الأم والجدة. اكتست ملامح ونظرات “رابية” بتعبيراتٍ حالمة، واحتفظتْ بصورة الشاب، ما أثار سُخرية ومزاح أختيها.
مع اقتراب موعد عقد القران، توافد الأقارب على المنزل، وازدحمت الشقة بهم. استأجر الأب منزلًا من طابقين، خارج المستعمرة مباشرةً، لمدة أسبوع، لبقية الأقارب والضيوف.
قبل أربعة أيام من الزفاف، وقف “عارف” مع والده وشقيقه في الشرفة لمناقشة الأطباق التي ستقدم في المأدبة، حين جاءهم زائر يطلب مقابلة الأب. ناوله خطابًا في ظرفٍ أبيض، معلنًا أنه من والد العريس. أصر على المغادرة، رغم إلحاح الأب عليه كي يتناول الغداء معهم.
فض الأب الظرف، وقرأ الخطاب، وقد تجهمت قسماته، ولاح الذعر في عينيه.
كان الخطاب عبارة عن قائمة طويلة للمهر، ضمت سيارة أيضًا.

انقطع الغناء، وتوقفت النساء عن مسح جسد "رابية" بالكركم ومسحوق الصندل، وتبادلن الهمسات والنظرات الحائرة. امتلأت عينا الأم بالدموع، وصمتت الجدة في ذهول.

استبد الغضب الشديد بالأب، وأعلن أمام جميع الأقارب والضيوف بأن الزيجة لن تتم. قال بصوتٍ هادر:

- لو استجبتُ لطلباتهم فإنني سأضطر لصرف كل مدخراتي. لديَّ ابنتان أخريان، عليَّ أن أزوجهما.

أردف قائلًا:

- كما لأنني لا أرغب في مصاهرة عائلة تتصف بالطمع والجشع.

لم تقل الأم شيئًا، لكنها نظرت إلى الجدة بعينين راجيتين، تتوسلان إليها في صمت أن تبادر بالتدخل.

قال "عارف":

- ولكن يا بابا ليس من الصائب أن نحل هذه الأزمة بفسخ الخطبة وإلغاء الزواج. في هذا التصرف إساءة بالغة لسُمعتنا، كما أننا لن نجد زوجًا مناسبًا لـ"رابية" بسهولة بعد ذلك.

أيَّد "ذاكر" رأي أخيه. قال الأب بتردد:

- نعم، ولكن..

قاطعه "ذاكر":

- ثِق في ولديك يا بابا. سنتدبَّر مصروفات زواج البنتين الأخريين. في أسوأ الظروف، سنضطر إلى بيع الأرض ومنزل العائلة في القرية.

تدخلت الجدة، وقالت:

- نعم يا "رشيد". الولدان مُحِقان. نحن نتحدَّث عن مستقبل "رابية". يجب أن نتصرَّف بتعقُّل.

وافق الأب أخيرًا على إتمام الزفاف. مسحت الأم دموعها، وابتسمت في سعادة. علقت الجدة:

- الله كريم يا ولدي. لقد منحنا ثلاث بنات، ولا بد أنه قسم الرزق لكل واحدة منهن.

اضطر الأب للموافقة. هدأت الأمور، وعادت إلى طبيعتها، وتوجهت الأم لأداء صلاة شُكر.

بعد عشرة أيام من زفاف "رابية"، جلس "عارف" على كرسي خشبي يقرأ كتابًا يحلل قصيدة "للقمر ابتسامة مائلة" للشاعر "موكتيبود". كان مستغرقًا في القراءة، حين سمع ضحكة "نَزنين" المرتفعة. التفت نحوها، فرآها تجلس على السرير، وهي تضحك بشكلٍ متواصل. جلست الأم و"هوما" بجوارها، تنظران إليها في حيرة. واصلت ضحكاتها الارتفاع، كما لو أنها جُنَّت. ثم انخرطت في البكاء، بغتةً. أمسكت بها الأم من كتفيها، وأخذت تهزها وتناديها:

- "نَزنين".. نَزنين".. ابنتي!
سألتها "هوما" بخوفٍ وارتباك:
- ماذا بكِ يا أختي؟
استمرّت "نَزنين" في النحيب. ألقى "عارف" الكتاب على الأرض، وهرع إليهن. ربت على وجه شقيقته، بلطف، وهو يسألها:
- ما الأمر؟ ما الذي حدث؟
واصلت البكاء. قالت الأم:
- "عارف"، اذهب الآن وأحضر لنا طبيبًا.
حين عاد "عارف" بصحبة طبيب من مستشفى الشُرطة، كانت "نَزنين" قد توقفت عن البكاء. استلقت على الفراش في إغماءة، وهي تتنفس بصعوبة. أمسكت الأم بمجلة، وراحت تهوِّي بها ابنتها، فيما كانت الجدة تقرأ عليها آيات من القرآن وتنفث عليها بأنفاسها.
أمسك الطبيب برسغها، يستطلع نبضها، ثم كشف عليها بسمَّاعته. أعلن أخيرًا:
- تبدو على ما يرام. ليس هناك ما يستدعي القلق. إنها منزعجة من شيء ما على الأغلب.
تناول كوب ماء من فوق الطاولة القريبة، ورش وجه "نَزنين" بقطراتٍ منه. فتحت عينيها. نظرت حولها بحيرةٍ ودهشة، وسألت:
- ماذا حدث يا ماما؟
- لا شيء يا حبيبتي، تعرَّضتِ لإغماءة بسبب حرارة الجو.
حين أوصلت الأم و"عارف" الطبيب إلى الباب، نصحهما قبل المغادرة بمراجعة طبيب نفسي، مستخدمًا الكلمة الإنجليزية Psychiatrist. سألت الأم ابنها في حيرة:
- ومن يكون الـ"ساتريسيت" هذا؟
حين شرح لها "عارف" الأمر، فقدت أعصابها، وسألته بغيظ:
- كيف يجرؤ على اتهام ابنتي بالجنون؟
تدخلت الجدة بهدوء، وقالت:
- لكن الأمر بات يتكرر كثيرًا يا "حميدة". حين حدث هذا آخر مرة، كان شقيقكِ "حكيم" هنا، وشرح لي أنها تعاني من حالةٍ تدعى..
صمتت، محاولةَ استعادة الكلمة التي نسيتها. قال "عارف" مُذكِّرًا:
- "هستيريا" يا جدتي.
كان الخال قد قال: "الفتاة التي تعجز عن تحقيق احتياجاتها ومتطلباتها الجسدية، تستسلم لهذه الحالة. علاجها الوحيد هو الزواج".
يدرك "عارف" بأن الأطباء توقفوا عن اعتبار "الهستيريا" حالة مَرَضية.
تدخلت الجدة ثانيةً، وقالت:

- أظن بأن استشارة أحد المتخصصين في الطب الشعبي التقليدي أفضل من عرضها على دكتور مجانين.
أضافت الأم بأنها متيقنة من أن ابنتها الحبوبة، هادئة الطَبع، لا يمكن أن تكون مصابة بخلل عقلي، وأن أي مشكلة صحية تعاني منها يمكن علاجها على يد خالها "حكيم".
بعد يومين، زار الخال "باتنا". لم يختلف تشخيص السيد "حكيم" هذه المرة عن المرة السابقة، وتكرَّرت نصيحته بتزويج الفتاة، باعتبار ذلك الحل الوحيد. أيدت الأم رأي شقيقها، على الفور، لكن الشكوك ساورت الأب في جدوى هذا الحل، وتساءل إن لم تكن استشارة طبيب نفسي هي الخطوة الأكثر صوابًا.
أجابته الأم باستنكارٍ ورفض:
- كلا! علينا تنفيذ ما اقترحه "حكيم". على كل حال، "نَزنين" في الثالثة والعشرين، وحان موعد تزويجها.
تدخل الخال في حوار الزوجين، قائلًا:
- "حميدة" مُحِقة. ستتحسن حالة البنت عقب الزواج إن شاء الله. حتى يحدث ذلك، هاكُم هذا الدواء.
أخرج من حقيبته الجلدية السوداء برطمانًا زجاجيًا. قرأ "عارف" المكتوب عليه بالأردية. كان معجونًا من الأعشاب، لتهدئة الأعصاب.
حكَّ الأب خده بأظافره، وهو يفكِّر بعُمق، ثم قال:
- لقد صرفتُ معظم مدخراتي على زواج "رابية". أحتاج بعض الوقت لتدبير مَهر "نَزنين".
قالت الأم:
- اسمع يا "أبو عارف"، لن نقدر على قائمة مهر كبيرة، ولا حفل زفاف كبير هذه المرة. علينا أن نكون عمليين، ونبحث عن ولد محترم، من عائلة محترمة. لا أكثر.
أومأ الأب موافقًا، لكن "عارف" لمح القلق في نظراته. أدرك أن المشكلة الرئيسية التي يفكر فيها والده هي مسألة المهر. أحسَّ "عارف" بالقهر لعجزه عن مساعدة أسرته في هذا الموقف العصيب.
رغم الجهد الذي بذله ذلك العام، فإنه لم ينجح في الامتحان مرة أخرى. كان الأب متفائلًا، حتى اللحظة الأخيرة، قبل إعلان النتيجة. أخفت الأم والشقيقات خيبة أملهن وإحباطهن، والتزمن الصمت. حاولت الجدة مواساته. قالت له:
- كل شيء مقدَّر ومكتوب يا ولدي، وأسبابه عند الله وحده.
قال له "ذاكر":
- أتفهم شعورك، واضطرارك لوأد أحلامك وطموحاتك يا أخي.

لم يكن "عارف" في مزاجٍ يسمح له بالتدريس. انقطع عن العمل، ولم يغادر المنزل. أمضى معظم وقته إما في فراشه، أو وحيدًا في الشرفة، محدقًا في السماء. سيطرت عليه فكرة واحدة، هي أنه لم يبقَ لديه ما يستحق الحياة.. "لماذا لم أنجح هذه المرة؟ لقد أجبتُ على كل الأسئلة بشكلٍ جيد. حتى المقابلة الشخصية كانت جيدة". ارتاب في إنها مؤامرة ضده، لكونه مُسلمًا.

تجددت آلامه حين رأى صورة "مريتونجاي" في الصفحة الأولى من "تايمز أوف إنديا"، عقب احتلاله المركز السابع بين الناجحين. سوف يُعَيَّن مأمورًا، دون شك.

مساء ذلك اليوم، اتصل بـ"مريتونجاي" لتهنئته، وتحدَّثا طويلًا. اقترح "مريتونجاي" على صديقه أن يختصر المسألة، ويقوم بتقديم أوراقه للجنة الخدمة العامة في "بيهار". أضاف شارحًا:

- بعد سبع سنوات، أو عشر، على أقصى تقدير، ستترقى وتصبح موظفًا تابعًا للبرلمان.

تذكر "عارف" بمرارة المرَّات التي كان يساعد فيها "مريتونجاي" في المذاكرة، وفهم مادة الإدارة العامة. تضاعف إحساسه بالبؤس.

بعد مرور شهرين، وخلال سيرهما إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة، قال له الأب:

- لا تفقد الأمل يا بُني. إن النجاح في هذا الامتحان مسألة شديدة الصعوبة. يختارون واحدًا من آلاف المتقدمين. لقد أدَّيتَ الامتحان على نحوٍ جيد، رغم صعوبة الظروف. حياتك أكبر وأوسع من هذا الامتحان، وهذه الوظيفة. لديك مجالات أخرى للعمل.

نظر "عارف" إلى أبيه بامتنانٍ ومحبة، لكنه لم يقل شيئًا، لإدراكه أنه لم يعد لديه ولو قدر ضئيل من الطاقة، للإقدام على أي فعل جديد. لكنه - مع ذلك - قال لنفسه: "من أجل أسرتي، سأحاول الحصول على وظيفة من خلال لجنة الخدمة العامة للولاية".

16

طلبت الأسرة معلومات وصُور فوتوغرافية للشباب الراغبين في الاقتران من بنات مسلمات، من أحد مكاتب الزواج الخاصة بالمسلمين في "باتنا". اختار الأب ثلاثة منهم بشكلٍ مبدئي. الأول محاسب في أحد البنوك، لكن والده طلب مهرًا كبيرًا.

قال الأب:

- لا نستطيع تحمل نفقات هذه الزيجة. صرفتُ مكافأة نهاية الخدمة، بالكامل على زواج "رابية". حتى لو بعتُ بيت العائلة في "جمالبورا"، فإن ثمنه لن يغطي المبالغ التي تطلبها أسرة هذا الولد. على كل حال، من المعروف أن الناس الذين تعود أصولهم لـ"داربانجا" و"مظفربور" يتصفون بالطمع والجشع. المهر الذي يطلبه والد هذا المحاسب خيالي وغير معقول! يريد خمسمئة ألف روبية! لم يتكلف زواج "رابية"، بكافة بنوده، هذا المبلغ!

نحى الصورة جانبًا.

المرشح الثاني، فتى من "جايا"، يميل للبدانة، لكنه يتمتع بالوسامة وحُسن المظهر. موظف في مصلحة الرَي. لا يطلب والده الكثير. لكنه يعاني من مشكلة خطيرة، صحيحٌ أن والده من الـ"باتان"، لكن والدته من أصول متواضعة، تعود لطبقة النساجين.

قال "ذاكر" معترضًا:

- مَن الذي يفكِّر في هذه الأمور اليوم يا بابا؟ أظن أنه شابٌّ مناسب. رأيي أن توافق عليه.

أيده "عارف" بشدة. أجاب الأب، بضيقٍ وانزعاج:

- أنا جزءٌ من هذا المجتمع، أعيش فيه، وعليَّ تقبل قوانينه وأعرافه، وبخاصة أن لديَّ ابنة ثالثة ينبغي تزويجها هي أيضًا.

لم تتدخل الأم في هذا الحوار.

العريس الثالث من الـ"باتان". تعود أصول والده إلى الـ"يوسفزاي"، في منطقة "سيوان"، أما والدته فمن أصول شيروانية، في منطقة "داربانجا". يَعْرِف الأب جد العريس لأمه، الذي ينتهي نسبه إلى أصولٍ ملكية، من عائلة "داربانجي خان". يحمل الشاب شهادة في الحقوق، من معهد "بيهار" للحقوق، ويعمل محاميًا جنائيًا في المحكمة العُليا لـ"باتنا".

نطقت الأم أخيرًا. قالت بتردد، مخافة أن يظن زوجها أنها تعترض على اختياره:

- نعم، ولكنه.. أسمر بعض الشيء.

أجابها الأب بحسم:

- السُمرة لا تعيب الرجال أبدًا.
قال ذلك بشكلٍ صارم، ليمنع أي فرصة للنقاش. نظر "عارف" إلى الصورة، فأحس بصدمةٍ شديدة. الرجل دميم جدًّا، يعاني من صلعٍ في مقدمة رأسه، أسمر اللون، وله شاربٌ كَث وبطنٌ كبير. في أواخر الثلاثينيات، أو ربما أوائل الأربعينات.
ناول الصورة لـ"ذاكر"، الذي ما إن رآها حتى انفجر غاضبًا، قائلًا:
- ولماذا تتعبون أنفسكم بتزويج "نَزنين"؟ من الأسهل أن تلقوا بها في نهر "الجانجا"!
أجابه الأب بغيظ:
- لستَ المسؤول عن هذه الأسرة. الواقع أنك لا تساهم ولا بروبية واحدة في مهر أختك. ما الذي حققته حتى الآن، عدا إضاعة الوقت في محاولات فاشلة لتحقيق أحلام طائشة؟ وما معنى كلامك أساسًا؟ هل تقصد أنني لا أعرف مصلحة ابنتي؟ أنا أعرف شيئًا واحدًا على الأقل، وهو كيف ألزمُ حدودي وأدرك إمكانياتي. على عكسك تمامًا، أنا رجل واقعي، ولستُ حالمًا.
سكتَ "ذاكر" تمامًا، ولم يقل شيئًا. لم يتخيل "عارف" أنه يمكن لوالده أن يغضب لهذه الدرجة. غادر "ذاكر" الحجرة. أخذ الأب يسعل بقوة. نادت الأم "هوما" كي تجلب لأبيها كوبًا من الماء، وراحت تربت على ظهره برفق. جعلته يشرب رشفات قليلة. اندفعت "نَزنين" نحوهم من الغرفة المجاورة. لا بد أنها سمعت حوارهم. قرر "عارف" التزام الصمت. أعلنت "نَزنين"، بعينين دامعتين:
- لا يحق لأحد مراجعة بابا في قراراته، أبدًا. أدرك بأنه يفعل ما فيه مصلحتي، فقط. وأنا أوافق على أي شيء يراه.
ذهب "عارف" ليبحث عن "ذاكر". كان في غرفة المذاكرة، يستند إلى حافة النافذة، ناظرًا إلى الخارج. ربت "عارف" على كتفه، بلطف. قال له:
- سيكون كل شيء على ما يرام، يا أخي.
أجابه "ذاكر" بصوتٍ مختنق:
- بابا مُحِق. نحن مسؤولون عما يجري لـ"نَزنين".
احتضن "عارف" شقيقه، شاعرًا بالقهر. أراد أن يصرخ. ترتبَ على فشله كطالب فشله كأخ.
خلال أسبوع واحد، تقبَّل الشقيقان فكرة زواج "نَزنين" من هذا الشاب، وأخذا يساعدان والدهما في التحضير له. قبل سنوات، حين تزوجت "نجمة"، أجمل بنات "جمالبورا"، من أرملٍ يكبرها بكثير، لأن أسرتها لم تملك شيئًا تدفعه مهرًا لها، علق "عارف": "عيبٌ على إخوتها! كيف يوافقون على تزويج شقيقتهم لرجلٍ في ضِعف عُمرها؟ لو كانت أختي، لما سمحتُ بذلك أبدًا". وها هي "نَزنين" في وضعٍ مُشابِه، إن لم يكن أسوأ منه، وكل ما فعله هو مراقبة الموقف بصمت. أرقتْه العبارة التي قالها منذ سنوات.

قبل ثلاثة أيَّام من عقد قران "نَزنين" على المحامي الأصلع، وصل الأسرة إخطار من مكتب قائد شُرطة "بيهار" العسكرية في "باتنا". كان إنذارًا أخيرًا بضرورة إخلاء المسكن الحكومي. مضت أكثر من سنة على تقاعد الأب، ووفقًا للقواعد السارية، ينبغي على الأشخاص المتقاعدين مغادرة المنازل التابعة لجهة العمل، خلال ستة أشهر. كانوا قد تلقوا عدة إخطارات في الفترة السابقة.

تجاهل الكثيرون هذه القاعدة، لأنهم على علاقةٍ وثيقةٍ بالكبار. أحدهم هو "بابَّان ياداف"، المفتش المساعد، الذي لا يزال يقطن المنزل الحكومي، رغم تقاعده منذ ثلاث سنوات، لأنه يعرف عائلة رئيس الوزراء. هناك "راجنات سينج" أيضًا، الذي لم يُخلِ مسكنه في المستعمرة، منذ عام ونصف، رغم انتقاله للعمل في "مُنجر"؛ لكنه ينتمي إلى الـ"راجبوت"، مثل قائد الشُرطة.

لكن الأب لا يعرف أحدًا من عائلة رئيس الوزراء، ولا ينتمي للـ"راجبوت"، ولذلك تعيَّن عليه أن يذهب لمكتب قائد الشُرطة ليطلب السماح بالبقاء في الشقة لبعض الوقت. رافقه "عارف".

لم يستقبله القائد بالترحاب، بل بادره بالقول:

- كلما أرسلنا لك إخطارًا، خرجتَ علينا بعذرٍ جديد. في البداية، قلت إن زوجتك مريضة، وبعد ذلك مسألة زواج ابنتك، والآن ترغب في التأجيل حتى إتمام زواج ابنتك الثانية! يا سيد "عبد الرشيد خان"، دعني ألفت نظرك أن هناك قوانين وقواعد ينبغي على الجميع اتباعها. لقد قرَّرتُ ألا أمنحك مُهلة إضافية، إن لم تقم بإخلاء المنزل خلال يومين، طواعيةً، فسوف نضطر لفعل ذلك بالإكراه.

كان هذا هو الشخص الذي اعتاد مخاطبة الأب بلقب "أخي"، في مودةٍ واحترامٍ بالغين. وحين ظهرت بعض تُهَم الفساد الموجهة ضده، هرع إلى الأب كيً يساعده، لعلمه أن الكبار يحترمون رأيه.

قال له الأب:

- أرجوك يا سيدي.. أسبوع واحد فقط. سأغادر الشقة بعد زفاف ابنتي مباشرةً. أرجوك. من فضلك.

أحس "عارف" بأن قلبه يتفتت، وهو يشاهد والده يتذلل للقائد، الذي اكتفى بالقول:

- يجب اتباع القواعد.

استدار الأب كي ينصرف، وقد تمكنت منه خيبة الأمل. صاح القائد فجأة:

- توقف يا "عبد الرشيد"!

أضاف:

- سأمنحك ثلاثة أشهر، ولا تضطرني لإرسال إنذار جديد.

- أشكرك يا سيدي. ثلاثة أشهر مدة كافية جدًّا. سوف أخلي المسكن قبل ذلك بكثير.
غادر الأب مكتب القائد، وهو يكرر شُكره. قرأ "عارف" اللافتة المعلقة على باب المكتب: "ر. ب. سينج - الشرطة الهندية". أحس بوخزةٍ مؤلمة في قلبه، لو كان ضابطًا، أو مأمورًا، لما جرؤ القائد على مخاطبة والده بهذه الطريقة المخجلة. راح يفرك كفيه ببعضهما في حنقٍ وأسى.
خارج المبنى، وعلى مسافة خمسة وأربعين مترًا، تقريبًا، مر موكب استعراضي للمجندين المبتدئين. ضُرِبَت الأرض بخطواتٍ قويةٍ، متواكبة. تكررت صيحة "شمال، يمين" في الأجواء، وتداخلت مع تغريد آلاف الطيور والعصافير من الأشجار القريبة. أحس "عارف" بانزعاجٍ واضطراب. توقف والده لتحية أحد معارفه. واصل "عارف" السير بمفرده، بخطواتٍ سريعةٍ، نحو مساكن الضباط.
كما هو متوقع، لم يكن حفل زفاف "نَزنين" في فخامة عُرس أختها. باع الأب نصف أرضه في القرية، فيما استدان "عارف" عشرين ألف روبية من مقر عمله، على أن يُخصَم المبلغ من راتبه الشهري. دعا الأب أقرب المقربين فقط، لحضور الزفاف. وصلت "رابية" قبل يومين فقط من عقد القران، عرض زوجها "آزاد" المساهمة بمبلغٍ مالي، لكن الأب رفض الفكرة تمامًا، حفاظًا على كرامته.
حضر "مريتونجاي" الحفل، وحمل معه ساري فاخر من حريرٍ وقصبٍ، كهديةٍ للعروس. سعى معظم الحضور لتهنئته على نجاحه في الامتحان، وتأهله للعمل كمأمور، أو لتحيته. أحاط به عدد ممن ينوون التقدم للامتحان، علهم يستفيدون من خبرته. شاهد "عارف" أباه وهو يحتضن "مريتونجاي" ويشكره على قدومه. لاحظ التعبير الذي ارتسم على ملامحه، حين استدار مبتعدًا عن صديق ابنه. خيبةُ أمل، وشعورٌ طاغٍ بالهزيمة. أدرك "عارف" أن وجود "مريتونجاي" ذكره بفشل ابنه.
عقب عقد القران مباشرةً، انصرف "مريتونجاي". سار معه "عارف"، حتى سيارته. قال قبل أن يركب:
- هناك حفل الشهر القادم في فندق "موريا"، لمن نجحوا في الامتحان من أبناء "بيهار". يمكن لكل فرد اصطحاب صديق واحد معه. أرجو أن تحضر. سوف أخبرك بالموعد، حين يتحدد.
- أكيد. بالطبع.
في أحلامه، يطير "عارف" كالعصافير، لكنه، للغرابة، لا يملك أجنحة. القمر منير، كمصباح كهربائي ضخم، والنجوم عقود من مصابيح صغيرة، تضيء سقف قبة رحبة. فجأة، يسيطر عليه الجزع، ويصبح تنفسه صعبًا، ويبدأ يهوي من ارتفاعه الشاهق، ويكتشف أنه دون باراشوت. كلما اقترب

من الأرض، حاول البقاء طائرًا، ولكن دون جدوى. يسقط أخيرًا، ويرتطم بسطحٍ صلب.

استيقظ فَزِعًا، والعَرَق يتصبب منه. الغرفة مظلمة، عدا ضوء شحيح من عمود إنارة في الخارج، شقَّ لنفسه طريقًا داخل البيوت. أضاء النور، ونظر إلى المرآة. عيناه حمراوان، كما لو كان شخصًا أفرط في شُرب الخمور. اتجه نحو النافذة. ارتشف بعض الماء من الإبريق. حامت الحشرات حول عمود الإنارة.

زفر، ثم استنشق الهواء بقوة. ما الذي فعلوه بـ"نَزنين"؟ زوجوها من شخصٍ قبيح، يكبرها ب- 15 سنة على الأقل. درس قصَّة "الجميلة والوحش" في المدرسة، حين كان في الصف العاشر، ضمن مقرر اللغة الإنجليزية. حين قبلت البطلة الجميلة الوحش، تبدل إلى أميرٍ وسيم. لن يحدث هذا لأخته. استعادَ وجه والده الشاحب. بات القلق رفيق والده، لعجزه عن سَد احتياجات أسرته. أدى القلق الدائم لإصابته بعدة أمراض تتراوح بين ارتفاع ضغط الدم، والتهاب المعدة.

فكر "عارف" وقد استبد به الندم: "ليتني لم أجعل النجاح في امتحان الخدمة المدنية هدفي الوحيد. لو أنني سعيتُ لتحقيق أمور أخرى، في الوقت ذاته، لتمكنتُ الآن من مساعدة أبي".

نظر إلى الطاولة، فرأى صورًا فوتوغرافية من حفل زفاف "نَزنين". تأمل صورةً تجمعها بعريسها، قبل وداعها ومغادرتها. العريس سعيدٌ للغاية، تشع أسنانه ناصعة البياض من بين شفتيه السمراوين، الغليظتين. أحس بالغثيان، حين تذكر بأنها ستضطر لقضاء حياتها، بأكملها، بصحبة هذا الرجل. رأى صورة أخرى، تجمع بين "رابية" وزوجها "آزاد". الزوجان المثاليان. بدا "آزاد" كنجمٍ سينمائيٍ وسيم، في بذلته الأنيقة.

أحس "عارف" بانزعاجٍ شديد.

في صورةٍ أخرى، يجلس "مريتونجاي" بجوار "ذاكر". هل ما يراه على وجهه وطريقة جلوسه، ثقة بالنفس، أم شيءٌ أقرب للغرور؟

"لقد عاقبني الله، ونلتُ جزائي، على ارتكاب الخطيئة، والطمع في امرأة متزوجة".

في اليوم التالي، ذهب "عارف" للقاء "سوميترا". لم يكن قد رآها منذ اليوم الذي تبادلا فيه كلامًا حادًّا، عقب أن أبلغها بعلاقة ابنتها "كافيتا" بشابٍّ مسلم. قبل شهرين، سمع عن زواج "كافيتا" من عريس يقيم في الولايات المتحدة. أرسلت له دعوة للزفاف، عبر "مريتونجاي"، لكنه لم يذهب.

في زفاف "نَزنين"، لمح "عارف" "سوميترا" بين المدعوين. في لحظةٍ خاطفةٍ، اقتربت منه، ودست في يده ورقة كتبت عليها بحروفٍ كبيرة كلمة: "آسفة".

لم يملك إلا مسامحتها.

كان لا يزال منزعجًا وحزينًا لزواج أخته من ذلك المحامي الأصلع، داكن البشرة. أحس بأن لقاءه بـ"سوميترا" سيبهجه بعض الشيء. ذكر نفسه بالمفارقة الكامنة في شعوره بأن عواطفه نحوها هي السبب في فشله ومشكلاته، وسعيه - في الوقت نفسه - للقائها، لأن صحبتها تخفف عنه. قال لنفسه: "يا للعار!".

استعادت حواسه عبير جسدها، ونعومة شعرها الحريري، ودفء لمساتها اللطيفة. تخيل نفسه معها في الفراش. تخيل عناقهما وقبلاتهما.

"كلا! كلا! هذا ليس خطأ "سوميترا". لطالما شجَّعتني على الاجتهاد كي أنجح. لطالما أغدقت عليَّ بحُبٍّ غير مشروط. صُحبتها هي ملاذي الآمِن".

واصل طريقه على درَّاجته، وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيه.

عند وصوله "مستعمرة البنك"، تعرَّضت إحدى عجلتيَّ الدرَّاجة إلى ثقب. جرَّها إلى أقرب ورشة إصلاح درَّاجات. أخبره العامل بأنه مشغول، وأن عليه الانتظار لبعض الوقت. جلس "عارف" في محل الشاي القريب. طلب كوبًا من الشاي، وتناول صحيفة باللغة الهندية تشاغل بقراءتها لحين إصلاح العجلة.

- تلك الخالة امرأة لعوب.

ألقى "عارف" نظرة خاطفة إلى يساره، لرؤية صاحب الجملة الغريبة. كانوا ثلاثة فتية مراهقين، يجلسون متجاورين على أريكةٍ خشبيةٍ، منغمسين في تبادل النميمة.

قال الفتى البدين الذي يضع نظارة طبية سميكة، وهو يضحك بدهشة:

- حقًّا؟

أجابه صديقه، صاحب الشعر المجعد:

- نعم. كان هناك شاب مسلم يزورها بانتظام، لكنني لم أعد أراه في الأشهر الأخيرة.

- ربما اتخذت لنفسها عشيقًا جديدًا. ألا ترغب في تجربة حظك معها؟

ضحك الثلاثة بمرح. علق أحدهم، ساخرًا:

- وذلك المسكين، زوجها.. ما اسمه؟ آه، نعم، "راميش كومار". ذلك المسكين يجهل تمامًا "النشاط الاجتماعي" لزوجته، كلما غادر المنزل!

أحس "عارف" بالرغبة في قذفهم بكوب الشاي الساخن. فكر بغيظ: "كيف يجرؤون على التحدث عن سوميترا بهذه الوقاحة؟". واصل الأولاد النميمة والسخرية. قال أحدهم:

- لقد رأيتها مع رجال آخرين. اسمعوا، لقد شاهدت اليوم تحديدًا رجلًا يدخل شقتها.

ضحك الثلاثة، وعلق ولد منهم:

- لا بد أنه عشيقها الجديد!

أعلن أحدهم:

- علينا أن نغادر الآن، ستذاع مباراة الكريكيت بعد قليل.
حين مروا بجانبه، في طريقهم للباب، حرص "عارف" على إخفاء وجهه خلف صفحات الجريدة.
كلما استعاد عباراتهم، تزايد ضيقه وغضبه. ثم اتجه تفكيره لنقطةٍ أخرى؛ طالما أنهم يعرفون بحكايته مع "سوميترا"، وما ذكروه لا يخلو من الصِحة، فإن ما قالوه عن وجود رجال آخرين في حياتها، صحيحٌ أيضًا. هل "سوميترا" امرأة ساقطة، فعلًا؟ إذا كانت المرأة تستطيع خيانة زوج مُحِب ومحترم، فإنها تستطيع خيانة عشيقها كذلك.
تذكَّر "عارف" شيئًا سمعه منذ عدة أشهر. كان حوارًا بين والدة "مريتونجاي" وإحدى جاراتها. قالت الزائرة:
- أنا كنتُ جارتها في "جامشيدبور"، يا أختي. اعتادت "مايا" أن تزور "سوميترا" في منزلها، معظم الوقت. كل مَن في الحي كان يعرف أن "مايا" امرأة سيئة السُمعة، لكن "سوميترا" لم تهتم بذلك. أنا نفسي حذَّرتها من تلك الصداقة. لاحقًا، أدركتُ أنها هي أيضًا من النوع نفسه.
لكن "سوميترا" كانت قد قصَّت عليه حكاية "مايا". لم يشعر بالصدمة حين سمع ما سمعه.
غادر محل الشاي، واستلم دراجته. تأرجحت أفكاره بين الثقة في "سوميترا" ومشاعرها تجاهه، من ناحية، وشكه في وجود علاقات غرامية لها مع رجال آخرين، من ناحيةٍ أخرى.
وصل إلى بيتها بعد خمس دقائق. لم يكن باب شقتها مغلقًا. دفعه برفق، وألقى نظرة على الداخل. لمح ظرفًا ورديًا فوق أحد المقاعد، ومفكرة وخوذة.
أدرك من الخوذة أن هناك شخصًا بالداخل. تسلل إلى الصالة. سمع ضحكة رجل من الغرفة القريبة. لم يكن ذلك صوت "راميش". حدق في زجاج النافذة، الذي عكس صورة "سوميترا" وهي تعانق رجلًا. ترددت العبارات التي قالها الأولاد في محل الشاي داخل عقله. هذا إذًا هو الرجل الذي ترتبط به "سوميترا" هذه الأيام. احمر وجه "عارف" من شدَّة الغضب، وهو يغادر الشقة. وقف أمام المنزل، في انتظار خروج الرجل. كان الطريق خاليًا، لانشغال الناس بمتابعة المباراة بين الهند وأستراليا. ارتفعت صيحات تشجيع وفرح، عبر نوافذ البيوت. لا بدَّ أن الهند أحرزت أهدافًا ضد أستراليا.
بعد دقائق، خرج رجل أربعيني، له شارب كث وشعر مجعَّد، من بيت "سوميترا". كان طويلًا، وأبيض البشرة. سمعه "عارف" وهو يدندن بإحدى أغاني الأفلام، وهو يمر بجواره، في طريقه للموتوسيكل، الذي أوقفه تحت شجرة مانجو على الطريق.
تلاطمتْ أمواجُ الغيرة والغضب داخل "عارف"، وكادت تدفعه للجنون. "سوميترا" عاهرة، وهو واحد من عشاقها العديدين، لا أكثر. عليه أن يتحدث

إليها الآن. استدار ليدخل البناية، فسبقته امرأتان باتجاه شقتها. ظل واقفًا في الطريق، في انتظار مغادرتهما، لكنهما بقيتا لديها لوقتٍ طويلٍ جدًّا. استسلم أخيرًا، وغادر المكان.

في طريقه للمنزل، توقف أمام سنترال اتصالات. كان صاحبه مستغرقًا في متابعة المباراة، عبر جهاز تليفزيون صغير أبيض وأسود. وقف اللاعبان "أزهر" و"ماك جاريث" في مواجهة أحدهما الآخر. ضرب "أزهر" الكرة، فتصدى "ستيف ووه" لها، ببساطة ودون مجهودٍ يُذكَر. هتف "عارف" بغيظ:

- اللعنة!

قال صاحب السنترال، وهو يزفر بضيق، ويغلق التليفزيون:

- لا أمل في هذه المباراة.

قال له "عارف":

- اتصال محلي.

أشار الرجل إلى "كابينة" زجاجية صغيرة. دخلها "عارف" واتصل برقم "سوميترا". انساب صوتها ناعمًا، وهي تقول "آلو"، لدرجةٍ أنه أوشك على نسيان غضبه، ثم تذكر كل ما سمعه ورآه خلال الساعتين الماضيتين، فاسترد غيظه.

تفاجأ هو نفسه بكل ما قاله لها. رماها بأبشع الاتهامات، مستخدمًا سبابًا بذيئًا. لم يسألها من يكون الرجل الذي رآه في بيتها، ولم يشرح لها سبب غضبه العارم.

راحت تسأله: "لماذا؟" مرَّات عديدة، قبل أن تنفجر في البكاء. لكن ذلك لم يحرِّك داخله شيئًا، إذ كان يدرك أن الدموع سلاح المرأة، الذي اعتمدت عليه لقرونٍ طويلةٍ، كي تخدع الرجل وتنتصر عليه. قبل أن يضع السمَّاعة، قال لها كلمة أخيرة:

- عاهرة!

ضغط فكيه ببعضهما، في غيظ، وأحس بألمٍ شديدٍ في حلقه. قاد دراجته تحت الظلام الذي بدأ يغلف المدينة. وقف بجوار شجرة "البيبال"، ناظرًا إليها بغضب، وكأنه يتهمها بالمشاركة في خداعه. تناول محفظته، وأخرج من جيبها الداخلي صورتين لـ"سوميترا". قام بتمزيقهما إلى نتفٍ صغيرة، ألقى بها في مياه البِركة القريبة.

17

عاد "عارف" من عمله، مساء يوم جمعةٍ لطيف، من عام ٢٠٠٠، ليتفاجأ بضحكات "نَزنين" المَرحة، تستقبله على الباب. اعتقد "عارف" بأن "نَزنين" ستصبح امرأة حزينة، تعيسة، لزواجها من ذلك المحامي الأصلع. حين دخل الحجرة، طالعه وجهها السعيد وابتسامتها المُشرِقة. احتضنها، وقبل جبينها.

- كيف حال أختي الحلوة؟

- الحمد لله يا أخي.

تدخلت "هوما" في الحوار، وهي تقدم له علبة من حلوى الـ"لادو": - لدينا خبران رائعان.

سألها "عارف":

- وما هما؟

- أولًا، ستصبح خالًا عما قريب. "نَزنين" حامل.

- حقًّا؟

احمرَّ وجه "نَزنين".

استطردت "هوما":

- ثانيًا، تم اختيار زوجها عضوًا في هيئة محاكم "بيهار"، وهذا يعني أن "نَزنين" صارت زوجة قاضي!

ردَّد "عارف" بحماس، وهو يحتضن "نَزنين" مرة أخرى:

- ما شاء الله، ما شاء الله.

سالت من عينه دمعة، مسحها بيده، وقال لـ"زنين":

- تعالي لغرفة المذاكرة، لنتحدَّث قليلًا.

سارت مع شقيقها إلى غرفة المذاكرة، ليتبادلا الأخبار على انفراد. فور دخولهما، بادرته بالقول: - أعرف أنك تشعر بالذنب لزواجي من "شفيق"، وأنك تظن أنه غير مناسب لي. الحقيقة أن المظهر غير مهم، على الإطلاق. إنه رجل طيب. يعاملني والداه كما لو كنت ابنتهما. يستشيرني والده قبل اتخاذ القرارات الهامة. أما شقيقه "رفيق"...

واصلت "نَزنين" وصف سعادتها وارتياحها في زيجتها. شعر "عارف" بأن إحساسه بالذنب يتلاشى مع كل عبارة. حين فرغت، غمره شعورٌ مفاجئٌ بالخفة.

وقف زوجها بباب الغرفة، محييًا:

- السلام عليكم، أخي الحبيب.

كان قد فقد بعض الوزن، منذ يوم الزفاف، كما حلق شاربه الكث. بدا في هيئةٍ أفضل.

استقبله "عارف" بالترحاب:
- وعليكم السلام، وعليكم السلام!
احتضنه، وقال بامتنان:
- أشكرك جزيل الشكر على إسعادك لأختي.
جاءت "هوما" وبيدها تليفون محمول. سألها "عارف" بدهشة:
- لمن تليفون المحمول هذا؟
- أحضره زوج أختي لنا من "بنجالور".
كان التليفون المحمول على طراز "نوكيا 3515". قال له "عارف": - "شفيق" العزيز، إنها هدية غالية الثمن.
- ليست غالية على الإطلاق.
تناول "عارف" التليفون المحمول، وتأمل لونيه الفضي والأزرق. فكر بأن يتصل بـ"مريتونجاي"، لكنه تراجع عن الفكرة، على الفور.
كان فشله في الامتحان، واكتشافه لخيانة "سوميترا"، هما أكثر الأحداث إيلامًا في حياة "عارف"؛ لكن ما لم يدركه هو أن القدر يخبئ له أمورًا أشد قسوة بكثير، إذ شكل ذهاب "ذاكر" إلى "دلهي" بداية فاجعة ستعاني منها الأسرة بأكملها.
عقب فترة قصيرة من زواج "نَزنين"، أعلن "ذاكر" عن نيته الذهاب إلى "دلهي" للبحث عن عمل، حيث سبقه أحد أصدقاء طفولته، من "جمالبورا"، إلى هناك. وافق الأب. أحس "عارف" بأنها علامة جيدة على أن "ذاكر" تناسى أحلام النجومية في "مومباي"، وأنه بدأ التفكير بطريقةٍ عملية. كان يدرك أن شقيقه لا يحمل نبوغًا علميًا خاصًّا، ولذلك فإنه لا جدوى من دفعه للتحضير لدراساتٍ عُليا، والعمل في المجال الأكاديمي.
انتقل "عارف" للتدريس في معهد تدريب جديد، يمنح أجورًا أفضل، ولكن مقابل ساعات عمل أطول بكثير. أدرك أن واجبه يحتِّم عليه معاونة والده في المصاريف، باعتباره الابن الأكبر. مات حلم الطفولة في العمل كمأمور. والآن، وقد أتم أعوامه الواحدة والثلاثين، لم يعد لديه خيارات كثيرة للعمل.
كان "ذاكر" قد قال له:
- أظن أن شهادتي في تطبيقات الكمبيوتر، ستساعدني في الحصول على وظيفةٍ جيدة. أرغب في مساعدة بابا في تزويج "هوما". عليك ألا تنفق معظم وقتك في التدريس. عليك التركيز على الاستعداد لامتحان الخدمة المدنية لـ"بيهار". لديَّ حدسٌ قويٌ بأنك ستنجح هذه المرَّة.
بعد شهرين من وصول "ذاكر" للعاصمة، شهدت "دلهي" سلسلة من الانفجارات. انفجر موتوسيكل مفخخ في "غفَّار ماركِت"، محطمًا عشرات المتاجر، وحاصدًا أرواح أكثر من خمسين شخصًا. انفجرت سيارة متوقفة خارج محطة قطارات "نيو دلهي"، فأصيب خمسة وعشرين شخصًا، بإصاباتٍ متفاوتة. في "نهرو بليس"، توفي واحد وعشرين شخصًا. نجحت

الشرطَة في تفكيك عبوتين ناسفتين، إحداهما في صرح "بوابة الهند"، والأخرى في "باليكا بازار".

شعرت الأسرة بالقلق على سلامة "ذاكر". حاول الأب الاطمئنان عليه، عبر الاتصال بصديقه، لكن جميع محاولات الاتصال باءت بالفشل، لأن ملايين الناس كانوا يحاولون الاطمئنان على أقاربهم ومعارفهم في الوقت ذاته، ما أدَّى إلى انهيار الشبكة.

مساء اليوم نفسه، حين تمَّت إعادة تشغيل الشبكة بكفاءة، اتصل "ذاكر" بأبيه. قال له: - أنا في المنزل يا بابا. لا تقلق.

مع انتصاف الليل، رنَّ التليفون المحمول مرَّة أخرى. استيقظ "عارف" ليجيب. كان "ذاكر". قال بعجالة: - أخي، ألقت الشُرطة القبض عليَّ، مع رفاقي في المسكن، وأشخاص آخرين. يقولون بأننا وراء الانفجارات. نحن داخل بيت في مزرعة، في مكانٍ ما في منطقة "مِهرولي". سوف يقتلوننا يا أخي. قل لبابا أن يأتي لـ"دلهي" وينقذنا.

فجأةً، راح "ذاكر" يصرخ، وسمع "عارف" صوتًا غليظًا يتحدَّث بلهجة أهل ولاية "هاريانا". صاح صاحب الصوت، موجِّهًا كلامه لأحدٍ معه: - أنت يا أخي! هل فتَّشتَ هؤلاء الشُبَّان جيدًا، أم لا؟ ستورطنا جميعًا في مشكلة ضخمة، بسبب إهمالك. انظر! هذا الولد كان يتحدَّث في التليفون المحمول.

سمع "عارف" ضجيجًا حادًّا، أعقبه انقطاع المكالمة.

وقف "عارف" في جمود، وكأنه أصيب بشلل مفاجئ، رافعًا يده التي تحمل التليفون المحمول، جوار أذنه. انتظر الأب أن يقول ابنه شيئًا، دون جدوى. هزه أخيرًا، ليخرجه من ذهوله. انتحب "عارف" طويلًا، وأعاد عليهم ما قاله "ذاكر"، من بين دموعه وشهقاته. استيقظ بقية أفراد الأسرة على صوته. لم يقل الأب شيئًا، لساعات.

كيف يمكن اتهام شاب في رقَّة "ذاكر" بشيءٍ كهذا؟ إنه إنسان يمقت العنف والقسوة والتطرف الديني.

لكنك في الهند لا تحتاج لارتكاب جريمة بعينها كي يتم اتهامك بالإرهاب. يكفي جدًّا أن تكون شابًّا مُسلِمًا. كلما حدث هجوم إرهابي، تلقي الشرطة القبض على العديد من الشُبَّان المسلمين. يختفي بعضهم، بمنتهى البساطة، فيما تتم تبرئة عدد كبير منهم، بعد محاكمات ومعارك قضائية طويلة وبطيئة ومعقدة.

فكر "عارف" أن شقيقه ضحية تحامُل الشُرطة على المسلمين.

صباح اليوم التالي، غادر الأب و"عارف" إلى "دلهي"، في قطار "شرامجيفي إكسبريس"، بتذكرتين على قائمة الانتظار، دون مقاعد. داخل القطار المزدحم، فرش الأب ملاءة على أرضية القطار، في الممر المؤدي إلى الحمامات. خلال الرحلة المُرهقة التي استمرت ست عشرة ساعة، لم يتحدث أحدهما، إلا للضرورة.

فور وصولهما "دلهي"، توجها إلى عنوان مسكن "ذاكر" في "شاهين باج". البيت عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق، داخل زقاقٍ ضيق، تحيط به البالوعات المفتوحة من الجانبين، وأكوام القمامة في كل مكان.

يعيش صاحب البيت في الطابق الأرضي. لم يكن موجودًا. استقبلتهما زوجته. رحبت بهما، وأدخلتهما غرفة جلوس صغيرة، بعد أن عرفت من يكونان. أخبرتهما ما حدث منذ يومين. سمعتْ أصواتًا متداخلةً في منتصف الليل تقريبًا، عقب توقف سيارة بالقرب من المنزل. استيقظت، ورأت رجال الشُرطة وهم يصطحبون الأولاد الأربعة، الذين يقيمون في الطابق العلوي، داخل سيارة بيضاء. قالت: - كنتُ بمفردي تلك الليلة، مع بناتي. لم أغادر حجرتي.

تحدَّثت إليهما من وراء ستارة تغطِّي مدخل حجرة الجلوس. أضافت: - لكنني لمحتُ وجه أحد الضبَّاط. هناك ندبة واضحة على خده.

سألها الأب:

- إلى أيِّ مركز شُرطة أخذوهم؟

- لا أدري. لكنني سمعتهم يذكرون قِسم "جاميا نجَر".

أردفت، محاولةً طمأنتهما:

- "ذاكر" شاب لطيف. لا شكَّ في وجود خطأ ما، أتمنى أن يطلقوا سراحه بعد توجيه بضعة أسئلة له، إن شاء الله.

لم تنجح عبارتها في طمأنتهما. الأب مفتش شُرطة منذ نحو خمسة وثلاثين عامًا، ويدرك جيدًا السلطة التي يملكها رجال الشُرطة، ويعرف الطرق التي يبررون بها قتل الأبرياء، كما يفعلون مع شُبَّان القبائل الذين يدَّعون كذبًا انخراطهم في أنشطة الشيوعيين. يعرف كل الانتصارات الزائفة التي يرتكبونها بغية الحصول على ترقيات ومكافآت. قال لها: - هل يمكنني التحدث إلى زوجك؟

- سوف يعود الليلة. بإمكانك مقابلته صباح الغد.

- حسنًا، هل يمكنكِ اصطحابنا لرؤية حجرة "ذاكر"؟

- نعم، بالطبع.

دخلت غرفتها، وعادت بمجموعة مفاتيح. قادتهما على درجات سلم ضيق. وصلوا إلى سطحٍ مفتوح، ينتهي بحجرةٍ صغيرةٍ. فتحت بابها بأحد المفاتيح. بداخلها أربعة أسِرَّة خشبية ضيقة. كل شيء في مكانه، كما يبدو. لا أثر لصراعٍ أو مقاومة. بجوار أحد الأسرة، وفوق طاولة خشبية، صور لـ"عامر خان" و"سلمان خان" من فيلم "آنداز آبنا آبنا". أدرك "عارف" أنه سرير "ذاكر". جلس الأب عليه، وتأمَّل الأشياء الموضوعة فوق الطاولة، لكنها لم تكشف عن أيِّ شيء.

عُلِّقت على الحوائط لوحات ورقية من الخط العربي، حمل بعضها آيات قرآنية. كُتِب على أحدها: نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ . وقف الأب، فقالت

المرأة: - أخي الكريم، أرجو ألّا تغادرا قبل تناولَ الإفطار.
- أشكرك، أختي العزيزة، ولكن علينا الانصراف الآن.
بعد عشرين دقيقة، وصلا إلى قسم شرطة "جاميا نجر". حملت نظرات مأمور القسم تهديدًا للقادمين. في خده الأيسر ندبة واضحة. تصرف بطريقةٍ غريبةٍ، عندما سأله الأب عن "ذاكر"، الذي أُلقي القبض عليه منذ يومين. أخبره الأب أنه شرطي متقاعد، وأخرج له بطاقته، ليرى بنفسه. لكن ذلك لم يغير شيئًا. اضطر أخيرًا لأن ينقل له حواره مع صاحبة المنزل، وأنها أخبرته بأن لأحد الضباط ندبة في وجهه. دون تفكير، رفع الضابط يده، وغطى بها جانب وجهه. صاح بعصبية: - اخرج من هنا.
قال الأب لـ"عارف"، عقب خروجهما:
- عليَّ أن أستعين بالسيد "جين".
أوقف توكتوك، وركبا باتجاه "نويدا"، للقاء مدير الأمن السابق لـ"بيهار". عمل معه الأب لخمسة أعوام تقريبًا.
عاد الأب و"عارف" لقسم الشرطة، من جديد، ومعهما السيد "جين". عرَّف الأخير بنفسه لمأمور القسم، الذي تحدَّث باحترام هذه المرَّة، لكنه واصل إنكاره لمعرفة الشُرطة بمسألة اختفاء "ذاكر"، بل إنه رافق الثلاثة إلى مسكن "ذاكر". كان صاحب البيت قد عاد من جولته. رجلٌ ضئيلُ الحجم، بلحيةٍ خفيفةٍ مُرتبة. أنكر تمامًا أنه أو زوجته شاهدا رجال الشُرطة وهم يلقون القبض على "ذاكر"، أو أيِّ أحد آخر.
حين كرَّر الأب ما قصَّته الزوجة عليه، قال صاحب البيت:
- يا سيدي الفاضل، هناك التباس في الأمر، دون شك. زوجتي منقَّبة، ولا تتحدَّث مع الغرباء، مطلقًا.
صاح الأب بنفاد صبر:
- لماذا لا تقول الحقيقة؟ خاف الله وحده، ولا تخف من رجال الشُرطة!
انفجر في البكاء، فأحاط "عارف" كتفيه، مواسيًا.
التفت مأمور القسم إلى السيد "جين"، وقال:
- كنتُ واثقًا من ذلك، لكنني رافقتكم لإرضاء سيادتك، فقط.
التفت إلى الأب، مستطردًا:
- قلبي معك يا سيد "خان". دعني أقترح عليك أن تسجل بلاغًا في القسم باختفاء ابنك، وسوف نسعى للبحث عنه.
قال ذلك، ثم غادر المكان. خرج الثلاثة بعده. قال السيد "جين" للأب، معتذرًا: - عليَّ أن أعود لبيتي الآن يا "عبد الرشيد". سأتحدَّث إلى الوكيل. أنت تدرك أنني متقاعد، وسُلُطاتي باتت محدودة للغاية.
أشار إلى سائقه، الذي كان قد أوقف السيارة في الجهة الأخرى من الشارع.

أمضى الأب و"عارف" الأيام الأربعة التالية في زيارات متعددة لمكتب الوكيل، ودور الصحافة، ومقر حقوق الأقليات، والمنظمات غير الربحية؛ لكنهما فشلا في إقناع أي أحد بتورط الشُرطة في قضية اختفاء "ذاكر".

في اليوم الرابع، استيقظ "عارف" مبكرًا على صوت مؤذن الجامع الكبير، تبعته أصوات الأذان من مساجد المنطقة المختلفة. شاهد والده وهو يتوضأ. سأله الأب وهو يمسح عينيه بشاله القطني، ذي المربعات الحمراء والزرقاء:

- هل تود مرافقتي للصلاة؟

قال بصوتٍ مختنق، وهو يعض شفته، كي لا يبكي:

- نعم يا بابا.

نزلا الدرجات المرتفعة لسلم فندق "المدينة لودج"، الذي يقيمان فيه نظير خمسين روبية لليوم، قريبًا من الجامع التاريخي. يتردد عليه الأب يوميًا لأداء صلاة الفجر.

في طريق عودتهما للفندق، شاهد "عارف" أحد الباعة وهو يطبخ لحم الجاموس المفروم. سارع بإخراج منديل من جيب قميصه الطويل، وغطى به أنفه. توقف الأب أمام بائع صحف، وتناول جريدة هندية. نظر إلى الصفحة الأولى، مرتاعًا، وقد اتسعت عيناه في ذعر وصدمة. تم العثور على ثلاث جثث، في ثلاثة أحياء متفرقة في "دلهي"، ولم يحدد سبب الوفاة بعد. الضحايا هم: "ألطف" و"كميل" و"عبد الوهاب"؛ زملاء "ذاكر" في المسكن.

صاح الأب بلوعة:

- هل قتلوا "ذاكر" أيضًا؟

جلس في منتصف الطريق، وهو يبكي بحرقة. شعر "عارف" بأن العالم يتداعى من حوله. مزَّق الجريدة، وقذفها بعيدًا. أمسك بذراع والده. بكى الأب وابنه بمرارةٍ شديدة. راقبهما المارَّة في أسى.

مساءً، ذهبا إلى قسم شرطة "جاميا نجر"، مرة أخرى، لمواجهة مأمور القسم. هدَّده الأب باللجوء إلى وسائل الإعلام المختلفة، لإثبات كذب ادعاءات الشُرطة حول عدم تدخلها في مسألة اختفاء هؤلاء الأولاد.

فقد مأمور القسم أعصابه، وقال:

- اسمع يا سيد "خان"، ربما عليك أن تخاف على مصير ابنك الآخَر. هل تدرك عواقب الدخول في صراعٍ، غير مبرَّر، مع جهاز الشُرطة؟

سكت للحظة، ثم أردف قائلًا:

- أنا آسف. نسيتُ أنك شرطي متقاعد، وتدرك تداعيات الموقف أفضل مني.

لم يقل الأب شيئًا، وغادر في صمت.

- ماذا نفعل الآن يا بابا؟ أعرف أنه يخبئ شيئًا عنا.

- سأتصل بـ"شفيق"، حالًا.

دخل الأب سنترال عموميًا، كي يتحدَّث إلى زوج ابنته. انتظره "عارف" في الخارج. بعد عشر دقائق، جاءه الأب قائلًا: - "شفيق" ليس في "باتنا" حاليًا. وجَّهت لي "نَزنين" أسئلة عديدة حول اختفاء "ذاكر". تجاهلت أسئلتها، وطمأنتها بأنه سيعود إلى البيت خلال يومين.

- هل تحدَّثتَ إلى شخصٍ آخر؟

- نعم. محامي أعرفه في المحكمة العُليا لـ"باتنا". نصحني بالتواصل مع شخص يدعى "مَهْتاب عَلَم"، من المجلس القانوني الوطني لحقوق الإنسان. أعطاني عنوانه.

ركبا توكتوك للعنوان، الذي اتضح أنه مكتب صغير، داخل أحد المباني المتداعية، في جنوب "دلهي". تبيَّن أن "مَهْتاب" بدوره من "بيهار". رجلٌ في أواخر الثلاثينيات، بلحيةٍ قصيرة ومرتبة، وملامح وجه متوترة طوال الوقت. أنصت إلى الأب و"عارف" باهتمامٍ كبيرٍ، وراح يدون التفاصيل بدقة. حين فرغا من قص الموقف، أكد لهما بأنه سيبذل قصارى جهده لمعرفة مكان "ذاكر"، ثم رافقهما إلى الباب، مودعًا.

مساءً، اتصل بهما "مَهْتاب" في الفندق. أخبر الأب بأنه ذهب إلى القسم، وأنه والمأمور تبادلا حوارًا حادًّا. قال بأنه يميل إلى تصديق تورط مأمور القسم في اختفاء "ذاكر". أضاف أيضًا بأنه بحاجة لمناقشة الخطوة القادمة لهذا الموضوع مع زملائه في المجلس.

بعد المكالمة، غادر "عارف" الفندق لشراء بعض الطعام. لم يكد يسير خطوات قليلة، في الشارع العمومي، حتى توقفت سيارة بجانبه، ونادى أحد ركابها اسمه. تلفتَ مندهشًا، فرأى رجلًا طويلًا، يغطي عينيه بنظارةٍ شمسية.

آخر ما يتذكره من هذا الموقف هو أن أحدًا جره عنوةً داخل السيارة، وأن أحدًا ضغط شيئًا على فمه بقوة. عندما فتح عينيه، وجد نفسه داخل حجرة صغيرة، لها حمام، وبداخلها سرير خشبي، عليه ملاءة ووسادة. باب الحجرة موصد من الخارج. شعر بالذعر، وراح يدق الباب بعنف، دون أن يستجيب له أحد. لاحظ وجود نافذة. حاول فتحها، ودفع درفتيها بقوة، دون جدوى. أحسَّ بالهزيمة. انهار على الأرض، باكيًا. بعد ساعة، فُتِح الباب، ودفعت يدٌ من الخارج طبقًا معدنيًا، عليه ثلاثة أرغفة، وبعض البطاطس والقرنبيط.

توالت الأيَّام على المنوال نفسه. أحسَّ "عارف" بأنه يفقد عقله، في هذا الحَبس الانفرادي. لم يعد يعرف ساعات اليوم وفتراته. لم يدرِ إن مضى عليه في هذا المكان أسبوع أو شهر.

في أحد الأيام، فُتِح الباب بمساحةٍ أوسع من مساحة إدخال الطبق المعدني المعتادة. دخل الحجرة رجلان ملثَّمان. فزع "عارف" لرؤيتهما وتأهب لمقاومتهما، والصراخ بصوتٍ مرتفع، لكنهما سارعا بتغطية وجهه بمنديلٍ من القماش، مبلل بسائل كريه الرائحة. استحال كل شيء إلى سواد، في لحظة.

حين استعاد "عارف" وعيه، وجد نفسه على أحد الأرصفة. الليل هادئ، والشارع يخلو من المارة. رأسه ثقيل للغاية. يغشى الضباب عينيه. هناك رائحة بشعة عالقة بأنفه. بذل جهدًا كبيرًا كي يتمكن من قراءة لافتة متجر قريب. إنه محل بيع النبيذ في "فريزر رود" في "باتنا". غير معقول! لكن هذا ما قرأه "فريزر رود – باتنا – 800001".

لمح صنبور مياه عمومي، على مسافة غير بعيدة. تمالك قواه، وسار نحوه بخطى مترنحة، على ساقيه الضعيفتين. غسل وجهه، وتمضمض، واستنشق الماء محاولًا إزالة الرائحة الكريهة من منخريه. كيف وصل هنا؟ أين أبوه؟ ما الذي حدث لـ"ذاكر" يا تُرى؟ آلمه التفكير. نظر حوله، وقد استبدَّت به الحيرة، والرغبة في البكاء. لمح توكتوك، ينام سائقه داخله. هزه "عارف" بعنف، ليوقظه، لكن الرجل رفض الذهاب إلى أيِّ مكان. وعده "عارف" بمئة روبية كاملة، مقابل أن يأخذه إلى "راجا بازار"، فوافق أخيرًا.

وقف "عارف" أمام شقتهم في المستعمرة، حين تعالى صوت مؤذِّن المسجد القريب، رافعًا أذان الفجر. وقف سائق التوكتوك وراءه، في انتظار أن تدفع له أسرة الراكب أجرته. ما إن دقَّ "عارف" الباب، حتى فتحه شخص، في اللحظة ذاتها، وكأنه كان يترقب مجيئه. كان ذلك الأب.

فور رؤيته ابنه، عانقه بقوة وانهار باكيًا. جاءت الأم والجدة و"هوما". عانقنه، بدورهن.

وقف سائق التوكتوك صامتًا، ومتابعًا الموقف الأسري. ثم طرق الباب، بلطف، مُذكِّرًا إياهم بأجرته. طلب "عارف" من أبيه أن يدفع له مئة روبية. ناول الأب النقود للسائق، الذي أخذ نصف المبلغ فقط، وغادرهم متمنيًا لهم أيامًا أفضل. جعلتهم دعوته يستسلمون لنوبة بكاء جديدة.

بعد أن هدؤوا، جلسوا متجاورين على السرير، عدا الأم التي هرعت إلى المطبخ لتعد له بعض الطعام. أعلن عدم رغبته في تناول شيء، لكنها أصرَّت على ضرورة أن يأكل. ظل الأب صامتًا، يتأمَّل ابنه، دون أن يتمكن من إيقاف الرعشة التي هاجمت يديه فجأة. التصقت به الجدَّة، تمسح رأسه براحتها، والدموع تتساقط من عينيها. كانت "هوما" أيضًا تبكي، ممسكةً بيده.

تكلم الأب، أخيرًا. سأله:

- هل ضربوك؟ هل آذوك؟

- مَن يا بابا؟ كيف..

لم يُكمِل "عارف" سؤاله. عانى بشدة لينطق بضع كلمات. أجابه الأب بهدوء: - أعرف ما حدث. أخبرني فقط، هل آذوك بأية طريقة؟

- لا يا بابا. جرني شخص ما داخل سيارة، حين غادرتُ الفندق. خدروني بشيء. عندما استعدتُ وعيي، وجدتُ نفسي داخل حجرة، بباب مقفولٍ من الخارج. كانوا يفتحونه لإدخال طبق طعام، ويعاودون إغلاقه، على الفور. لم

أتمكن من رؤية أحد منهم. هكذا أمضيتُ الفترة.. كم مضى عليَّ هناك يا بابا؟
أشاح الأب بوجهه، متألمًا، وقال:
- خمسة عشر يومًا.
- هل تعرف مَن الذي اختطفني يا بابا؟ ما الذي يحدث لنا؟ أين "ذاكر"؟ متى عدتَ أنتَ إلى "باتنا"؟ وأين "ذاكر"؟
امتلأت عينا الأب بالدموع. راح يضرب صدره وجبينه، وهو ينتحب. انفجرت الجدَّة و"هوما" أيضًا في البكاء، لكنهما حاولتا تهدئة الأب. ركضت الأم من المطبخ. استسلمت الأسرة بأكملها للبكاء، من جديد. شاركهم "عارف" البكاء، شاعرًا بالحيرة، ومتسائلًا عن مصير أخيه. احتضن والده، إلى أن هدأ. قال له متوسلًا: - أخبرني ما الذي حدث يا بابا.
- بعد ربع ساعة من مغادرتك الفندق، اتصل أحد بغرفتنا. قال المتحدث أنهم يحتجزونك لديهم، وهددني بعواقب خطيرة إذا واصلتُ البحث عن "ذاكر". حذَّرني من طلب العون من "مَهْتاب". وعدني بإطلاق سراحك إن أوقفتُ البحث عن "ذاكر"، وعدتُ من فوري إلى "باتنا".
- وما الذي حدث بعد ذلك؟
- لم أعرف كيف أتصرَّف. فقدتُ ولديَّ، في مدينةٍ غريبةٍ عنِّي، لا أعرف فيها أحدًا. ترددتُ في الذهاب للشُرطة. اتصلتُ بـ"مَهْتاب". نصحني بتقديم بلاغ رسمي باختفائك، وبالمكالمة التي تلقَّيتها من المختطفين. توجهتُ إلى القسم، وحرَّرتُ محضرًا بما حدث، على الفور. لم أعرف أين أذهب بعد ذلك، فعدتُ إلى الفندق. قلتُ لنفسي بأن "مَهْتاب" سيتمكن من الاتصال بي هناك. فور دخولي الغرفة، تلقيتُ اتصالًا جديدًا من الشخص الغريب نفسه. هددني بقتلك إذا طلبتُ المساعدة من الشرطة. كانوا يراقبونني. اتصل بي "مَهْتاب" كذلك. قلتُ له بأنني سأتصل به لاحقًا، ووضعت السمَّاعة. لم أرغب في فقدان ابني الآخر. عدتُ إلى قسم الشُرطة، وادَّعيتُ عودتك، وسحبتُ البلاغ.
استطرد الأب قائلًا:
- عدتُ إلى "باتنا" من فوري. كلما مرَّ يوم، تزايد قلقنا من فكرة فقدان ابننا الآخر. فكَّرتُ في الاتصال بـ"مَهْتاب". لم أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعله. تساءلتُ إن كان عليَّ عدم سحب البلاغ الذي تقدَّمتُ به ضدهم؟ ما الذي فعلوه بولديَّ يا ترى؟ ما الذي فعلوه بـ"ذاكر"؟
- بابا. أنا هنا الآن. لا بأس. أين "ذاكر"؟ هل أخبرك ذلك الشخص الذي اتصل بك شيئًا عنه؟
أجابه الأب من بين دموعه:
- أظن بأننا فقدناه إلى الأبد، ولا أريد أن أفقدك أنت أيضًا.

بكي بحرقة، وهو يرتجف في ضعف. أحاط "عارف" كتفيَّ والده بذراعه، محاولًا هو نفسه وقف دموعه المتدفقة. تركت الأم مطبخها، واقتربت منهما، واحتضنتهما بين ذراعيها. قال لها الأب بصوتٍ مرتعش: - "حميدة"، لقد فقدنا ولدنا للأبد. لقد قتلته الشُرطة. لا عدالة في بلدنا. حرمونا من رؤيته للمرَّة الأخيرة. ليس في يدنا فعل شيء. الحمد لله أنهم أبقوا لنا على "عارف".

زمَّت الأم شفتيها، ولم تستسلم للبكاء. احتضنت زوجها بين ذراعيها، بقوة. جلست الجدَّة قريبًا منهم، وتشاغلت بقراءة القرآن، ودموعها تتساقط فوق صفحات المصحف. كانت "هوما" على الأرض، تبكي في صمت.

أحسَّ "عارف" بالغثيان. تصاعدت الحموضة في حلقه، واضطربت معدته. اندفع إلى الحمام، وتقيأ سائلًا أصفر، كريه الرائحة.

لمدَّة شهر كامل، توافد الأقارب على منزلهم. اقترح أحدهم إقامة صلاة غائب ومجلس عزاء لـ"ذاكر". عندما سمعت الأم ذلك، راحت تصرخ دون وعي، إلى أن حملها "عارف" ووالده إلى الحجرة الثانية. لم يتحدَّث أحد في هذه المسألة، مرة أخرى. راودهم جميعًا شعورٌ بأن "ذاكر" قد مات، لكن أحدًا منهم لم يرغب في تأكيد الأمر بإقامة جنازة له. عجزوا أيضًا عن الحداد، والتعامل مع غيابه بأنه فقدانٌ للأبد، حقًّا. ظلَّ الوضع مُبهَمًا.

اقترح "شفيق" رفع قضية على جهاز شُرطة "دلهي"، لكن الأب لم يكن متحمسًا، بتاتًا. كان يدرك جيدًا بأن هذه القضية ستستنفد وقتهم وطاقتهم ومالهم، ولن تؤدي لنتيجةٍ ملموسة.

في أحد الأيام، وصلهم إخطار من مكتب قائد الشُرطة. كُتِبَ فيه: السيد "خان" المحترم،

يُسعِدنا إبلاغكم بأننا قمنا بتمديد فترة استئجاركم للشقة، لمدة ١٢ شهرًا إضافيًا. عليكم تسديد مبلغ مئة روبية شهريًا كإيجار. يُنصَح بإخلاء الشقة قبل ٣٠ أبريل ٢٠٠١.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

"ر. ب. سينج"

11 إبريل 2000

18

مرَّت أسابيع، وبعدها شهور طويلة، ببطءٍ وتثاقل. خيَّم غياب "ذاكر"، كسحابةٍ سوداءٍ، فوق رؤوس الجميع.

في نوفمبر ٢٠٠٠، انقسمت "بيهار" إلى ولايتين، إذ تكوَّنت ولاية جديدة منها، سُمِّيت "جاركاند"، وعاصمتها "رانتشي". احتفل الناس بهذه المناسبة، بالرقص في الشوارع. تابع "عارف" الاحتفالات، على شاشة تليفزيون بيتهم، الأبيض والأسود، متدثِّرًا ببطانيةٍ صوفيةٍ. فكَّر في "ذاكر"، الذي كان ضد فكرة تقسيم "بيهار"، تمامًا.

تذكَّر الصباحات الباردة في "جمالبورا"، عندما كانا صغيرين. كانا يتسللان من البيت، ويسيران إلى أطراف القرية، ليتأملا جبل "إفرست"، بقممه اللامعة في نور الفجر، شمالًا. في الواقع، الجبل بعيد عن القرية، لكن يمكن رؤية قممه العظيمة وهي تقبِّل خد السماء. كان "ذاكر" يسأله:

- لأي مدى هذا الجبل كبير، يا أخي؟

وقبل أن ينتظر الإجابة، يقول "ذاكر":

- لا شكّ في أن الله أكبر من "إفرست" بكثير، لأنه هو الذي خلقه.

تذكَّر "عارف" اليوم الذي تشاجر فيه "ذاكر" مع الشرطي أمام بوابة المستعمرة، دفاعًا عنه، مخاطرًا بحياته من أجله. لطالما كان "ذاكر" أكثر من أخ، وأكثر من صديق.

فتح "عارف" الدرج المجاور، وأخرج منه شريط دواء. أخذ منه حبة واحدة وابتلعها. بات يأخذ قرصًا كل ليلة، كي يتمكن من النوم.

اتخذت الجدة من الصلاة وتلاوة القرآن ملاذًا لها. تبكي كثيرًا، حتى وهي تقرأ القرآن. قل كلامها، وأصبح نادرًا. زهدت الطعام، وامتنعت عنه في بعض الأحيان.

التزم "عارف" بالصلاة، خمس مرات في اليوم. منحه التردد على الجامع بعض الراحة.

في أحد أيام الجمعة، ألقى الإمام خطبة مؤثرة عن الموت، وعن عدم فائدة الاستسلام للأحزان، عقب فقدان شخص عزيز. راح يذكِّرهم بالآية القرآنية كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .

حينما عاد "عارف" من المسجد، استلقى على فراشه وهو يفكر: "لقد رحل "ذاكر" للأبد، لكن الحزن عليه لن يحسن الأوضاع. عليَّ أن أفكر في بابا، وفي "هوما" كذلك. لقد بلغتْ سن الزواج، وسوف نحتاج مالًا لدفع مهرها. أنا بحاجة لوظيفة جيدة. سوف أقدم على الخدمة المدنية للولاية، وعلى وظائف أخرى كذلك".

شعر بالارتياح عندما توصل لهذا القرار. رفع عددًا قديمًا من "كومبيتيشن سَكسِس". زيَّنت صورة "عامر سُبحاني" غلاف العدد. كان قد نجح في امتحان الخدمة المدنية في عام 1986، محتلًا المركز الأول. شجَّع نجاحه مئات الشُبَّان المسلمين، مثل "عارف"، على التوسع في أحلامهم وآمالهم، دون خوف أو تردد. كان الأب يقول: "عامر سُبحاني أيضًا من أسرةٍ عاديةٍ، لكنه حقق نجاحًا خارقًا، لأنه بذل مجهودًا كبيرًا". لن تظهر صورة "عارف" على الأغلفة. تمنى لو كان بإمكانه العودة إلى الوراء، لتتاح له فرصة التقدم للامتحان، من جديد. تذكر شقيقه فجأة، واعتصره الألم. قال بخشوع: "يا رب، لم أعد أريد شيئًا في هذه الحياة، سوى استعادة أخي". رفع عينيه إلى البيت الشعري الذي يلصقه أمام طاولة مكتبه، للفيلسوف والشاعر "محمد إقبال". كان يحب هذا البيت، ويردده كلما شعر بالإحباط:

"إن خطمت الصعب قدت العالما

نافذ الأمر عليه حكما"

قرأه بصوتٍ عالٍ، لكنه لم يشعر بأي نوعٍ من الحماس والإلهام. قال لنفسه، مُذكِّرًا: "انسَ أحزانك. انسَ فشلك. انسَ أحلامك. عليك أن تحيا وأن تجاهد وتكافح من أجل أسرتك".

أجبر نفسه على الجلوس، والبدء في المذاكرة، من جديد. حين فتح أحد كتبه، عثر بداخله على منديل أبيض، بمربعات من البُني الغامق. كان هديةً من "سوميترا". تعكر مزاجه تمامًا، وأحس بالمرارة. قذف به من النافذة. هل بإمكانه قذف "سوميترا" من عقله؟ غمرته أشواقٌ مفاجئةٌ للقاء "سوميترا". أراد أن يبكي على كتفها.

عبر النافذة، لمح اثنين من الوزراء السابقين لـ"بيهار"، هما "لالو براساد يادافٍ" و"جاجانَّات ميشرا". كانا يسيران في حديقة بيت الضيافة التابع لجهاز الشُرطة، حيث يتم احتجازهما، لتورطهما في قضية الاحتيال الخاصة بصفقة العلف، والتي تلقيا خلالها 95 مليار روبية.

أغلق الباب، وعاد للجلوس إلى مكتبه. قرر أن يدرس حتى المساء. أراد أن يُخرِج "سوميترا" من ذكرياته. ما إن هَمَّ بالبدء، حتى سمع طرقًا متواصلًا على بَاب غرفة المذاكرة، تبعه صوت "هوما" المذعور:

- افتح الباب. جدتي في حالةٍ غريبة.

سمع عويل أمه. ركض مُسرعًا إلى غرفة الجدة. كانت على فراشها، دون حركة. راحت الأم تهز جسد حماتها بعصبية. أمسكت برسغها، لتتأكد من النبض. أخذت تصرخ:

- أمي.. أمي! لماذا رحلتِ عنا؟

شعر "عارف" بقلبه يحترق ألمًا. عاد الأب من السوق، جلس قريبًا من أمه، وأمسك بقدميها. حاولت زوجته مواساته، وأحاطت كتفيه بذراعها.

تجمع الجيران في منزلهم. جاءت سيدات هندوسيات، ليقدمن تعازيهن. فتش عن "سوميترا" وسطهن. فكر بأنه ينبغي عليها الحضور، مهما كان ما حدث بينهما.

لكنها لم تأتِ.

نظر إلى جدته. بدت هادئة ومستكينة، وكأنها تنام نومًا عميقًا. تأملها في هدوء، قطعه صراخ حاد من إحدى قريباتها التي وصلت للتو من "كاجبورا".

لم يعد "عارف" يدري إن كان لا يزال في اليوم ذاته، أم في اليوم التالي. المسائل مشوشة. أجروا اتصالات عدة، وتوافد الأقارب والمعارف على منزلهم، لتقديم العزاء والمواساة.

اقترب "جميل خان"، أحد زملاء الأب السابقين، وهمس قائلًا:

- "عبد الرشيد"، تحدثت إلى زملائنا في جهاز الشُرطة، وتمت الموافقة على دفن الخالة العزيزة في المقابر التابعة لهم.

أومأ الأب صامتًا. تدخلت الأم وقالت بصوتٍ غاضب:

- كانت حماتي قد أوصت بأن تُدفَن في "جمالبورا"، في مقبرة عائلتها. بجوار والدها وأجدادها.

- لا بأس يا أختي. لا عليكِ. سوف أرتب لمسألة نقل جثمانها إلى القرية.

مساءً، وصلت شاحنة ضخمة تابعة للشُرطة، أمام البيت. وُضِعت في أرضيتها ألواحٌ من الثلج، أرقدوا عليها الجثمان. داخل العربة ذات السقف المغطى بقماشٍ أخضرٍ زيتوني، ركب "عارف" وأسرته، بالإضافة لثلاثة من الأقارب البعيدين، واثنين من زملاء الأب القدامى. أحاطوا بجثمان الجدة. في المقعد الأمامي، بجوار السائق، جلس "مانجاني ماندال"، وهو أحد العساكر البسطاء الذين عملوا مع الأب. بعد عبور الشاحنة "هاجيبور"، بدأ الطريق يصبح شديد الوعورة. أمسك "عارف" و"هوما" بجثمان الجدة، من الجانبين، بقوة. إلى جانب الألم الجسدي الذي أحسَّ به "عارف" في جلسته غير المريحة تلك، شعر بآلام نفسية تنهشه من الداخل.

قال لنفسه بأن اختفاء "ذاكر" هو السبب في رحيل الجدة.. "ولماذا تعيَّن عليه السفر إلى "دلهي" للبحث عن وظيفة؟ أنا الابن الأكبر. أنا مَن كان عليه تحمل هذه المسؤولية، لكنني لم أفعل".

كانوا قد تخطوا "مظفربور"، وصار الطريق أفضل وأقل وعورة عما كان عليه. أسند رأسه إلى حافة أريكة الشاحنة، واستغرق في غفوةٍ قصيرةٍ، رأى فيها جدته بجانبه. كانت تسرد عليه قصص الرُسُل، وحكايات من التراث، وبعض المواقف العائلية المُحَبَّبة.

توقف السائق بغتة، فاستيقظ "عارف" على الفور. تجمَّعت الدموع في عينيه، من جديد. كانت "هوما" بدورها تبكي في صمت، وقد أسندت ذقنها إلى ركبتيها. الطريق مغلق أمام السيارات، بسبب إصلاحات في جسرٍ

صغير. غادر السائق الشاحنة، ليستطلع الأمر، وعاد ليخبرهم بأن الطريق سيُعاد فتحه في الرابعة صباحًا.

عاشت الجدة حياة مليئة بالشقاء والمعاناة. كانت الزوجة الثانية لجده، الذي اقترن بها بعد وفاة زوجته الأولى. فارق الجد الحياة، عقب الانفصال، حين كانت شابة صغيرة لا يتجاوز عُمرها ال- ٢١. لم تنجب سوى طفل واحد. اعتمدت في دَخلها على قطعة الأرض الزراعية الصغيرة التي نجحت في الحفاظ عليها، بعيدًا عن أطماع أقارب زوجها الراحل، الذين استولوا على بقية ممتلكاته. تولت تربية ابنها، وابن زوجها (العم الكبير) دون معاونةٍ من أحد، على الإطلاق. غادر العديد من أقاربها، بمن فيهم شقيقها الوحيد، إلى الدولة الوليدة باكستان. أحسَّ "عارف" بالسوء لأنه لم يحقق أمنيتها في أن تراه متزوجًا. آه يا جدتي! أمضى "عارف" الليل بطوله وهو يتحدَّث عنها إلى "هوما".

صباح اليوم التالي، وصلوا إلى "جمالبورا" في الحادية عشرة والنصف.

كانت القرية بأكملها، تقريبًا، في انتظارهم. استقبلهم العم راكضًا تجاههم، فور رؤيتهم. احتضن الأب، وانخرط في بكاءٍ حار. رغم أن الجدة كانت زوجة والده، فإنها لم تشعره بذلك، بتاتًا، طوال حياتها؛ بل إنها كانت تخصه بمعاملةٍ أفضل من صغيرها نفسه، خلال طفولتهما. احتضنت زوجة العم الأم و"هوما"، وانفجرن جميعًا في النحيب. بكى الكثير من الحضور كذلك. وقف "منير" قريبًا من "عارف"، بعينين دامعتين.

أجِّلَت المراسم الأخيرة للعزاء، لحين وصول "نَزنين" وزوجها إلى القرية. أما "رابية"، فكانت تنتظر عودة زوجها من "بنجالور"، ليحضرا معًا، ولن يكون ذلك قبل يوم أو نحو ذلك.

غُسِّلت الجدَّة وكُفِّنَت، ووُضِعت فوق لوح خشبي، حمله "عارف" و"منير" والأب والعم، باتجاه مثواها الأخير. بدأت النساء في العويل. تقرر أداء صلاة الجنازة أمام الجامع الكبير. توافد الأقارب من القرى المجاورة. طلب منهم الإمام الانتظام في الصفوف، لإقامة الصلاة.

بعد أن وقف الناس، صاح الخال "حكيم" معترضًا:

- كلا! كلا! ساووا صفوفكم بحيث يكون عددها فرديًا، وليس زوجيًا. أعني اجعلوها سبعًا، بدلًا من ستة.

شرح الإمام طريقة الصلاة، وبدأ بها مباشرةً.

عند المقبرة، حمل رجلان الجثمان، لإنزاله القبر، الذي وقف بداخله السيد "حكيم" والعم. أزاح الخال جانبًا من الكفن عن وجهها، ليلقي الناس عليها النظرة الأخيرة. بعد ثوانٍ معدودة، أعاد وضعه من جديد، وغطى وجهها تمامًا. انهار الأب باكيًا، وشاركه "عارف" البكاء بحُرقة، فيما حاول الرجال من حولهما مواساتهما.

خرج العم والخال من القبر. أمر الإمام الناس بوضع أعواد من الخيزران فوق القبر. فُرِدت فوقه حصيرتان من سعف النخيل، لمنع التراب من السقوط داخله. رُشَّت على القبر كميات من ماء الورد. طلب الإمام من الأب وضع ثلاث قبضات من التراب فوق القبر، باعتباره ابنها. فعل العم و"عارف" و"منير" الشيء ذاته.

تولى حفَّار القبور بقية المهمة، وقام بتغطية القبر بالرمل، ثم رشَّ عليه الماء، وساواه بالمجرفة. بعد ذلك، وزَّع على سطحه فروعًا من شجرة السمر العربي، لتقوم أشواكها الحادَّة بإبعاد حيوانات ابن آوى، ومنعها من نبش القبر.

لم يستطع "عارف" النوم تلك الليلة. أسند ظهره إلى أحد الأعمدة المسقوفة أعلى سطح بيت العائلة القديم. ألقى القمر حزمةً من ضيائه على قبَّة ضريح حضرة "جمال الدين خان" رحمة الله عليه، الذي كانت الجدة تشير إليه بالسيد "بير"، عندما تتحدث عنه. كثيرًا ما قالت عنه: "إنه ليس من الأولياء الصالحين، فقط، بل هو أحد أجدادنا". لم تطأ الجدة الضريح من الداخل، أبدًا، واكتفت بالصلاة في ساحته الخارجية. حين كانوا صغارًا، كانت تشرح الأمر لهم: "يُمنَع على النساء دخول الأضرحة، حيث يرقد الأولياء الصالحون في رحلتهم الأخيرة". حينها، كان "عارف" يمسك بيد "ذاكر"، ويدخلان الضريح معًا، لتقليد حركات الكبار من حولهما. عندما تذكر ذلك، ملأه حنين جارف لـ"ذاكر". أغمض عينيه، وسمح لدموعه بالتحرر. لطم جبهته، ليخرج نفسه من هذه الحالة. نظر إلى السماء، كي يبث همه وشكواه إلى الله. قال: "حرمتني من أخي، في بادئ الأمر، وها أنت تحرمني من جدتي الآن".

غادر المنزل، متوجهًا إلى الضريح. كانت الساعة الثالثة صباحًا. أنارت النجوم السماء.

جلس على درجات الضريح، مستعيدًا زيارته الأخيرة له بصحبة "ذاكر" والجدة. توالت الذكريات، واعتصر الألم والحسرة قلبه. سمع صوت جدته وهي تقصُّ عليه حكايتها المفضلة عن إنشاء هذا الضريح. رافقه طيفا جدته وشقيقه، حين استسلم لإغفاءةٍ في مكانه.

استيقظ على صوت أبيه:

- أبحثُ عنك منذ ما يزيد على الساعتين. عُد إلى البيت لتأكل شيئًا. لم تتناول أيَّ طعام منذ يومين.

تمخَّط في منديله، وابتسم لابنه. ابتسم له "عارف" أيضًا، ابتسامةً حزينة. قام واقفًا، واتَّجها إلى المنزل معًا.

عقب عودتهم من جنازة الجدة، انتقلت عائلة "عارف" إلى المنزل الجديد الذي استأجره الأب في "سامانبورا". كانت الشقة القديمة في المستعمرة، مليئةً بنسمات الهواء، لوجود شرفتين كبيرتين بها. أحاطت بالمكان أشجارٌ

ظليلةٌ. في الصباحات الصيفية، تسلل الهواء المنعش لداخل البيت، أما في الشتاء، فغمرت البيت أشعة الشمس الدافئة. لطالما استمتع "عارف" بقراءة الصحف في الشرفة، في نور الشمس، كما استمتع بقطرات الماء وهي تتساقط على وجهه في المواسم المطيرة. أما في "سامانبورا"، فالشقَّة مكوَّنةٌ من حجرتين فقط.

تكفي كل واحدة منهما لسريرين صغيرين بالكاد. للشقة شرفة ضيقة، غُطِّيت بستارة، كي تُستَخدم كحجرة استقبال للضيوف. أحاطت بالزقاق المؤدي للبيت بالوعات مفتوحة. تثير الرائحة المنبعثة من المجرى المائي العفن غثيانًا شديدًا للمارة. لصاحب البيت مدخل خاص لشقته، في الجهة الأخرى من المبنى، يطل على الشارع الرئيسي. على يمين البيت، مبنى من ثلاثة طوابق، يحجب أشعة الشمس، والهواء. تذمرت الأم من ضيق المسكن الجديد. أجابها الأب بصبرٍ نافد:

- هذا فقط هو المتاح في حدود ١٨٠٠ روبية.

رغم ضيق المساحة، إلا أن الشقة بدت خاوية، وفي انتظار المزيد من الناس. ملأ غياب "ذاكر" والجدة جميع الأركان. بات الأب يفقد أعصابه، لأتفه الأسباب. استسلمت الأم و"هوما" لأحزانهما، والتزمت كل واحدةٍ منهما الصمت. لم تعد "هوما" تسأل "عارف" عن الطعام الذي يرغب في تناوله مساءً. لم يعد الأب يؤنب "عارف" على إهماله للمذاكرة.

صار "عارف" يمضي وقتًا أطول في التدريس، في معهد التدريب في "راجا بازار".

19

في عام ٢٠٠١، انتهى شهر رمضان المبارك في ١٦ ديسمبر بثبوت رؤية هلال شهر شوَّال. احتفل الناس صباح اليوم التالي بعيد الفطر، بالسعادة والبهجة المعهودين، عبر البلاد؛ لكن العيد في منزل "عارف" لم يحمل معه أيَّ قدر من الفرح.

لبس "عارف" قميصًا طويلًا أبيض، وسروالًا فضفاضًا، وصديري من الصوف بكُمين قصيرين. لبس الأب طقمًا شبيهًا، اشتراه منذ عدة سنوات. الحقيقة أن "ذاكر" هو الذي اشتراه له من "سابزي باج". ظلت الأم و"هوما" بثيابٍ منزلية.

كان هذا هو العيد الأول الذي يمر عليهم عقب غياب الجدة و"ذاكر". هنَّأ "عارف" أفراد أسرته، بقلبٍ حزين. كانت عينا الأم حمراوين وأجفانها منتفخة. لا بد أنها بكت اختفاء ابنها، لساعاتٍ طوال.

قال الأب بصوتٍ خفيضٍ:

- عيد مبارك يا ولدي.

أخرج زجاجة صغيرة من العطر المركَّز، ووضع قطرة منها على سبَّابته، مسحها على معصم "عارف". وضع قطرات أخرى خلف أذنيَّ ابنه. لم يكن "عارف" يطيق رائحة العطور الشرقية الثقيلة، لكنه تغاضى عن ذلك لأن اليوم عيد، ولأن قلبه لم يطاوعه على إظهار رفضه للأب. لو كان "ذاكر" هنا، لرفض هذا العطر، بجرأة، ولأغرق نفسه بأي نوعٍ من ماركات الكولونيا الشهيرة. كانت الأم ستحذره من احتواء تلك العبوات البخاخة على الكحول، لكنه كان سيتجاهل تحذيرها، كالعادة.

أحس "عارف" أن "ذاكر" سيخرج من الحمام، بعد قليل، ملتفًّا بفوطة، وهو يصيح: - ماما، ناوليني ملابسي. بقيت نصف ساعة فقط على صلاة العيد. لن نجد مكانًا في ساحة الصلاة إذا تأخرنا.

كان "ذاكر" هو آخر مَن يستعد للصلاة في كل عيد. دمعت عينا "عارف". قال في نفسه: "عيد سعيد يا ذاكر"، وهو يمسح دموعه بيده.

جاءه الأب، وناوله طاقية بيضاء، وقال له:

- هيا، لنذهب يا ولدي.

بعد عودتهما من الصلاة، جلسا مع الأم و"هوما" لتناول إفطار العيد. أكلوا أرز الـ"بلاو" مع كاري الدجاج، وأطباقًا من الشعرية بالسُكر. رفضت الأسرة دعوات الجيران لقضاء الوقت معهم. استلقى "عارف" على سريره، عقب تناوله الطعام. جلس الأب في الشرفة، ممسكًا بصحيفة اليوم.

حلم "عارف" بـ"ذاكر"، وقد عاد إليهم. وقف جانبًا يراقب شقيقه وهو يعانقهم واحدًا تلو الآخر. ناداه أبوه. انتبه "عارف" من حلمه، ليكتشف أن والده يناديه فعلًا. فرك عينيه، وغادر فراشه. تحسس الأرض بقدميه، باحثًا عن نعليه.

حين ذهب إلى أبيه، وجده جالسًا مع "جانداران جوبتا"، أحد زملائه القدامى في جهاز الشُرطة. للسيد "جوبتا" بشرة بيضاء وبطن بارز. على الطاولة البلاستيكية أمامه، سلطانية خزفية، فرغ من تناول ما بها، وكوب ماء، كان قد شرب نصفه.

ضم "عارف" كفيه إلى بعضهما، مُحييًا:

- "برانام" يا عمي.

- عيد سعيد يا بُني. ما أخبار الدراسة؟

- جيدة.

- هل ستقدم على امتحانات وظائف "بيهار" هذا العام؟

- نعم يا عمي.

- جيد. جيد. ابني أيضًا سيمتحنها للمرة الأولى.

حَكَّ "عارف" مؤخرة رأسه. لم يعرف بمَ يعلق. قال أخيرًا: - آه، نعم.

قال الضيف للأب:

- أستأذنك الآن في الانصراف يا سيد "خان".

مدَّ يده مصافحًا، وغادرهما. أشار الأب لـ"عارف" كي يجلس بجانبه. ناوله ظرفًا أزرق، وقال: - ما هذه الرسالة؟ لا أدري أين وضعت نظارتي.

مزَّق "عارف" طرف الظرف، وأخرج خطابًا قرأه بصوتٍ مسموع: السيد العزيز "خان"

ابنك "ذاكر" بخير. سوف يعود إلى المنزل في ظرف ستّة أو سبعة أشهر، بمشيئة الرحمن. لا يمكنني إخبارك سبب اختفائه المفاجئ. أرجو ألا تطلع أحدًا، خارج نطاق الأسرة، على محتوى هذا الخطاب.

- فاعل خير

لم تكن الرسالة مؤرَّخة، أما الختم على الطوابع، فغير واضح. دقَّق "عارف" النظر، وخمَّن أن المكتوب هو "هوزخاس"، المنطقة التي تقع في "دلهي". بدا من شكل الظرف، الذي فقد رونقه، أنه قد مرَّ على إرساله عدَّة أشهر.

تهلَّل وجه الأب، وصاح في سعادة، مناديًا زوجته وابنته.

ظلَّ "عارف" واجمًا. لم يدرِ ما الذي ينبغي عليه فعله. حكَّ طرف أنفه وجبينه، حائرًا.. "ماذا لو كان أحدهم يتسلَّى بإرسال مثل هذه الخطابات؟ مَن الذي أرسله أصلًا؟ كيف يعرف أن "ذاكر" سيعود؟" لكنه لم يستطع منع بعض الأمل من التسلل إلى قلبه.

تابعت الأم و"هوما" ضحكات الأب المتواصلة في حيرةٍ ودهشة. أخبرهما "عارف" بمحتوى الرسالة.

ابتسم أخيرًا، وتأمَّل أسرته. كانت وجوههم مستبشرة، وأعينهم دامعة. سمع صوت خطوات متميزة، من الشارع. أطلَّ ليرى صاحبها. كان رجلًا في الستينيات، له لحية شعثاء، يعلَّق حقيبة متسخة من كتفه، ويسير في الزقاق المؤدِّي لمسكنهم. صاح المتسول: - سيحقِّق الله أمنياتكم. سيملأ الله بيتكم بالفرحة.

بحث "عارف" في جيبه، فوجد ثلاث عملات معدنية من فئة الخمس روبيات. قذفها نحو السلطانية الألومنيوم التي يحملها الرجل. رنَّت القطع المعدنية وهي تسقط تباعًا داخل السلطانية. صاحت به الأم: "انتظر!". عادت بعد قليل بطبقٍ من الأرز وكاري الدجاج، وكوبٍ من الماء. جلس الرجل على الأرض، داخل الشرفة، والتهم الطعام في دقائقٍ معدودة. تجشَّأ، قائلًا في رضا: "الله". قبل مغادرته، دعا للأسرة بالخير والسعادة.

تمنى "عارف" أن يستجيب الله لدعاء هذا الفقير.

ابتسم لوالدته، التي بادلته الابتسام من بين دموعها. جلب هذا الخطاب، مجهول المصدر، الكثير من السعادة للأسرة، عقب شهور طويلة من الأحزان والآلام. أشعل الخطاب شمعةً صغيرةً من الأمل، داخل صدر "عارف".

منذ ذلك اليوم، صار "عارف" يترقَّب عودة شقيقه. شاركته الأسرة الانتظار.

قَـدَر

20

مرَّت أربع سنوات كاملة، دون أن يعود "ذاكر". فقد "عارف"، وبقية أفراد الأسرة، أيَّ أمل في رجوعه. كان "عارف" متيقنًا أن الخطاب الذي وصلهم بهذا الشأن لم يكن سوى دعابة سخيفة.

تعلمت الأسرة التعايُش مع هذا الأسى الضخم. تعلموا الابتسام، حتى في اللحظات التي أرادوا فيها البكاء. تعلموا تخبئة أحزانهم في الزوايا البعيدة من قلوبهم.

سمع "عارف" عبارة "الزمن يُنسينا الأحزان"، مرات عديدة؛ ولدهشته، اكتشف أنها عبارة صائبة. لن يختفي ألمه على فقدان "ذاكر"، ولن ينسى جدته أبدًا، لكن شيئًا آخر حل محل تلك الأوجاع، وهو الرغبة الشديدة في الحصول على وظيفة محترمة، للوفاء بالمتطلبات المادية لأسرته.

عقب فشله في اجتياز امتحان الخدمة المدنية لولاية "بيهار"، ثلاث مرات، لم يبقَ لديه سوى فرصة واحدة، أخيرة، للنجاح. لكنه فقد الشغف، والقدرة على الدراسة لساعاتٍ طوال. مع ذلك، أجبر نفسه على المذاكرة.

ولمَّا كان قد تجاوز الثلاثين، بعدَّة أعوام، فقد فاتته فرصٌ كثيرةٌ للالتحاق بعددٍ كبيرٍ من الوظائف الحكومية. يكسب "عارف" خمسة آلاف روبية، شهريًا، من التدريس في معهد التدريب في "راجا بازار"، في الفترة الصباحية؛ أمَّا مساءً، فيعطي دروسًا خصوصيةً لأربعةٍ من أولاد الحيِّ. يكفي دخله، ومعاش والده التقاعدي، لتدبير الاحتياجات الأساسية للمنزل والأسرة، والحياة كبقية عائلات الطبقة الوسطى الدُنيا في "باتنا".

لكن هناك نفقات أخرى، ينبغي التفكير فيها، والتخطيط لها. انقطعت "هوما" عن الدراسة، لفشلهم في تدبير مصروفاتها. وحين مرضت الأم، منذ سنتين، اضطروا لبيع ما تبقَّى من حُلِيها، ليتمكنوا من علاجها في أحد المستشفيات الخاصَّة. وهناك أيضًا مسألة تزويج "هوما". إنهم بحاجة إلى ثلاثين أو أربعين ألف روبية، على الأقل، لإقامة حفل زفاف معقول لها.

فكَّر "عارف"، وهو يقرأ إعلانات الوظائف الخالية، أنه بحاجة لتدبير مهر "هوما". واصل قراءة الإعلانات، في مجلَّة "راهول سنتر"، في مساء أحد الأيَّام الحارَّة من شهر مايو ٢٠٠٥.

توقف "عارف" عن التصفح، حين لمح إعلانًا يطلب محاسبين في المجلس المحلي لـ"باتنا". العدد المطلوب تعيينه هو خمسة أفراد فقط. دفع "عارف" روبيتين لشراء قسيمة التقدم للوظيفة، أرسلها في اليوم التالي مباشرةً.

قال له الأب، بنبراتٍ مُتعَبة:

- لا أظن أن لديك أي فرصة في التعيين بإحدى هذه الوظائف، يا ولدي. سألتُ أحد معارفي ممن يعملون في وكالات التوظيف، وأكَّد لي بأن المتقدم يحتاج إلى توصيةٍ من أحد الوزراء، أو إلى دفع عشرين أو ثلاثين ألف روبية كرشوة.

كان "عارف" قد عاد للتو من معهد التدريب، حاملًا في يده صحيفة "هندوستان". أجابه:

- يمكننا دومًا المحاولة يا بابا. لنأمل في الأفضل.

ناول الصحيفة لأبيه. تباطأت حركة مروحة السقف، ثم توقفت عن الدوران، تمامًا. تأفَّف "عارف"، وقال متذمِّرًا: - ها هي الكهرباء تنقطع من جديد!

خلع قميصه وعلَّقه. قال الأب بحماس:

- اقرأ هذا الخبر يا "عارف"!

تناول "عارف" الصحيفة منه. تمَّ تعيين صديقه القديم "مريتونجاي" مأمورًا إداريًا في "باتنا"، بعد أن أمضى فترة في "آرَّاه". استطرد الأب: - إنه صديقك. اذهب للقائه. سوف يساعدك.

لم يقل "عارف" شيئًا. هل ينبغي عليه لقاء "مريتونجاي"؟ ماذا يقول له لو سأله عن وظيفته؟ كيف سيقدِّمه "مريتونجاي" إلى زوجته؟ "هذا صديقي عارف، العاطل عن العمل"؟

كانت المرَّة الأخيرة التي رآه فيها قبل خمس سنوات، حين لبَّى دعوته لحضور حفل الناجحين، في فندق "موريا". لا يزال يتذكَّر تفاصيل تلك الليلة، بوضوح، إذ انتهت على نحوٍ مُحرِج للغاية.

ذهب "عارف" إلى ذلك الحفل، مرتديًا بنطال چينز، وقميصًا كلاسيكيًا. وصل الفندق في الموعد المتفق عليه. داخل قاعة الاحتفالات، اكتشف تأخر "مريتونجاي". لم يكن قد وصل بعد. شعر ببعض التوتر، وهو يتأمَّل الناس من حوله. الرجال في ملابس رسمية أنيقة، والسيدات في أثواب سارِي غالية الثمن. تبادل الجميع الكلام والضحك، وهم يرتشفون كؤوس النبيذ. شَذَّ "عارف" عن جميع الحاضرين، ببنطاله الچينز القديم، وقميصه المربَّعات، وصندله الرخيص.

سار الجرسونات بين الناس، يوزعون الشراب والمأكولات الخفيفة، في قمصانٍ بيضاء، وصديريات سوداء. تناول من أحدهم كوبًا من عصير البرتقال. ارتفع صخبٌ وفوضى من أحد الأركان البعيدة، إذ تم اكتشاف وجود شخصين غير مدعوين للحفل. كان كل واحد منهما يمسك بكأس ويسكي. عوملا بعنفٍ شديد، وتعرَّضا للصفع من المسؤول عن الحفل. ألقى العمَّال بهما خارج الفندق. لاحظ "عارف" أن الرجل الذي يقف بجانبه ينظر إليه في ريبة، ثم رآه وهو يهمس بشيء لأحد الجرسونات.

سرعان ما اقترب منه شخصان، وسألاه بتهذيب:

- أيُّ دفعة يا سيدي؟
أجابهما "عارف" في حيرة:
- دفعة؟
- ألستَ واحدًا من إدارة الخدمات الهندية؟
- لا.
صاح رجل، له جسد قوي، يرتدي بدلة زرقاء:
- انظروا إلى ثيابه! لا بدَّ أنه متطفل، اقتحم الحفل دون دعوة. القوا به خارجًا!
بسرعة، اقترب منه اثنان من الجرسونات، وأمسكا به من كتفيه. قال "عارف":
- لقد قام "مريتونجاي باندي" بدعوتي.
حاول التحرُّر من قبضتيهما بقوَّة، إلى أن اختلَّ توازن أحدهما، وسقط أرضًا. سدَّد إليه الرجل القوي نظراتٍ غاضبة، لكنه قبل أن يفعل شيئًا، اقترب أحد من الجرسون الآخر، وشده من ياقة قميصه، ثم أوقعه على الأرض. كان "مريتونجاي" الذي صاح بصوتٍ هادر: - كيف تجرؤون على لمس صديقي؟
دنا من الرجل القوي، لكن رجالًا آخرين أبعدوه عنه. قال رجلٌ مُسِنٌّ يرتدي بدلة بُنية: - هناك لَبسٌ في الموضوع يا "مريتونجاي". لم يعرف الجرسون أنه صديقك.
قام الرجل القوي من على الأرض، واعتذر لـ"عارف". لكن "عارف" لم يرغب في البقاء، وغادر الفندق من فوره.
صباح اليوم التالي، زاره "مريتونجاي"، طالبًا منه أن ينسى أحداث الليلة السابقة. أخبره أيضًا بأنه تعيَّن في "هازاريباج"، وأعطاه رقم تليفون مكتبه.
بعد ثلاثة أشهر، نُقِل للعمل في "رانتشي".
في العام التالي، تلقَّى "عارف" دعوة لحضور حفل زفاف "مريتونجاي"، الذي تزوج من ابنة مسؤول كبير في "لاكنو". وصلت بطاقة الدعوة على عنوان عمل والده القديم، في مركز الشُرطة.
أقيم الحفل في "دلهي". حاول "عارف" إقناع نفسه بحضور الحفل، لكنه لم يشعر بأدنى رغبة في الذهاب. لم يكن لديه المال لشراء هدية تليق بمأمور، ولم يكن متأكدًا من أن عروس "مريتونجاي" سترحِّب بوجوده. كيف سيتعامل مع زملاء "مريتونجاي"؟ جميعهم يشغلون مناصب مهمة.
بعد كل هذه السنوات، لم يعد متأكدًا ما إذا كان "مريتونجاي" لا يزال صديقه. لا بدَّ أنه تغيَّر تمامًا، بعد أن عرف طعم السُلطة والقوَّة.
نظر إليه والده، طويلًا، ثم قال بتفهم:
- لا عليك. إذا كنت غير مرتاح للفكرة، لا تذهب للقاء "مريتونجاي".
- سأذهب للقائه يا بابا.

قرَّر "عارف" أن يضع مصلحة أسرته فوق إحساسه بذاته وكرامته.
غادر "عارف" التوكتوك الذي ركبه، قريبًا من مركز "شري كريشنا" للعلوم، وسار باتجاه "بيسكومون تاور"، أعلى مبنى في "باتنا". من هناك، اتجه إلى ميدان "غاندي"، ومدرسة "سينت زافيير" الثانوية، التي يقع منزل مأمور المنطقة بجوارها. بيتٌ كبيرٌ، يفصل بينه والبوَّابة ممرٌ طويل. وقف حارسٌ أمام البوَّابة. رجلٌ نحيلٌ، بشاربٍ يتدلَّى طرفاه على جانبيَّ فمه، كشارب الممثل "راجينيكانت". أخبره "عارف" برغبته في لقاء المأمور. قال ذلك بارتباكٍ ولعثمة. أحسَّ بأنه ما كان عليه القدوم من الأساس.
قال الحارس:
- السيد المأمور في مزاجٍ سيئ اليوم. أبلغني بأنه لن يقابل أحدًا مساء اليوم.
- لكنني صديقه.
نظر إليه الحارس بدهشة، وعدم تصديق. قال "عارف" مُصحِّحًا عبارته:
- أعني أنه يعرفني.
قال "عارف" لنفسه معاتبًا: "كيف له أن يصدق أن رجلًا فقيرًا مثلي، بهذه الهيئة الرثة، يمكن أن يكون صديقًا للمأمور؟".
أخرج من جيبه ورقة وقلمًا، وكتب اسمه. قال للحارس:
- هل لك أن تحمل هذه الورقة للسيد المأمور؟
رفض الحارس، وقال بحزم:
- اذهب إلى مقر عمله إذا كنت تريد تقديم طلب.
- من فضلك. إنه يعرفني تمام المعرفة.
لكن الحارس لم يتزحزح من موقفه. اقتربت سيارة "أمباسادور" بيضاء من البيت. ركض الحارس بسرعة ليفتح البوابة. تمنى "عارف" أن يلاحظه "مريتونجاي". قال الحارس بغلظة: - تنحَّ جانبًا، لتتمكن سيارة المأمور من الدخول.
لم يتحرك "عارف". الواقع أنه لم يسمع كلمات الحارس، من الأصل. تعلقت عيناه بالبوابة. رفع الحارس يده ودفعه بعيدًا. فقد "عارف" توازنه وسقط على الأرض المغطاة بحصى صغير. عبرت السيارة البوابة، فرفع الحارس يده بالتحية لصاحبها. توقفت السيارة للحظة. كان "عارف" متأكدًا من أن "مريتونجاي" ميزه وتعرف عليه، ولذلك طلب من سائقه التوقف. "كيف لا، وهو صديقي منذ زمن بعيد؟ أمضينا أعوامًا طويلةً مع بعضنا". تخيل "عارف" صديقه وهو يفتح باب السيارة، ويجري نحوه، ثم يمد كلتا يديه ليعاونه على الوقوف، ويحتضنه بشوق، فيما ينظر إليهما الحارس بعدم تصديق.
وقف "عارف"، ونفض يديه من التراب العالق بهما، محدقًا في السيارة، وقد تعلق الأمل بنظراته.

لكن "مريتونجاي" لم يلاحظه أبدًا. لم ينظر إليه من الأساس. كان في المقعد الخلفي، مستغرقًا في قراءة كتاب. إلى جواره، جلست سيدة جميلة، بشعرٍ قصيرٍ، يلامس كتفيها بالكاد. كانت متجهمة. بدت منزعجة من شيءٍ ما. أراد "عارف" أن ينادي "مريتونجاي"، لكنه حين فتح فمه لم يخرج منه أي صوت.

تزاحمت الأفكار في رأس "عارف". لو أنه انتقل إلى "دلهي"، مثل "مريتونجاي"، وأخذ دروسًا خصوصية، استعدادًا للامتحان، مثله كذلك، لنجح هو أيضًا في الامتحان، وأقام في بيتٍ كبيرٍ كهذا، له حارس على بوابته، يرفع يده له بالتحية عند الدخول والخروج.

ظل "عارف" يتحدث إلى نفسه على هذا النحو، وقد ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيه.

على عكس والد "مريتونجاي"، لم يستطع والده إلحاقه بمعهد تدريب جيد في "دلهي"، يؤهله للامتحان.

طلب منه الحارس، بغطرسةٍ ووقاحةٍ، أن يغادر المكان.

سار "عارف" ببطء إلى ميدان "غاندي". اشترى قرطاسًا من الحمص، بثلاث روبيات، وجلس على مقعد أسمنتي، مستعيدًا كلمات الأغنية الرئيسية لفيلم "أومراو جان": "تسألني الحياة عن ملخَّصٍ لعُمري.. ما الذي سيقوله لها هذا القلب الأحمق؟ إنه يشعر بالخزي من نفسه".

نظر إلى ساعة يده، ووقف متثائبًا، وهو يتمطَّى. غطَّى فمه بيده اليسرى. كرَّر ثلاثًا: "أستغفرك ربِّي وأتوب إليك". ابتسم في حزن، متذكِّرًا جدته، التي علمتهم هذه العادة: "عند التثاؤب، غطوا الفم بيدكم اليسرى، واستغفروا، وتوبوا إلى الله، ثلاث مرات، وإلا تبول الشيطان داخل أفواهكم".

حين وصل موقف التوكتوك، فوجئ بيدٍ تربِّت على كتفه. التفت، فرأى "راميش كومار" يبتسم له. تقدَّم في العُمر قليلًا، وظهرت شُعيراتٌ بِيضٌ في رأسه. حيَّاه "عارف" باحترامٍ وسعادة: - "برانام" يا عمِّي.

- كيف حالك يا "عارف"؟

- بخير يا عمِّي.

- أين تعمل الآن؟

- أدرِّس في معهدٍ للتدريب. وأستعد من جديد لامتحان الخدمة المدنية لولاية "بيهار".

تعمد أن يذكر اسم الامتحان كاملًا، ليضفي على إجابته نوعًا من الفخامة والاحترام.

- ما الذي حدث في الامتحانات السابقة إذن؟

- لم أستطع تجاوز مرحلة المقابلة الشخصية.

- لا عليك. استمر في المحاولة. أظن أن امتحانات التعيين في البنوك أسهل منها، نسبيًا.

- نعم، ولكنني تجاوزتُ الخامسة والثلاثين، ولم يعد بإمكاني تقديم أوراقي للبنوك.
- لقد نسيتُ ذلك. لم نتقابل منذ فترة طويلة. على كل حال، أشعر كما لو أننا التقينا البارحة.
- صحيح يا عمي.
بذل "عارف" جهدًا كبيرًا كي لا يسأل "راميش" عن "سوميترا". قال "راميش":
- سمعتُ عما حدث لأخيك. شيءٌ مُحزِنٌ للغاية.
- نعم. الأمر، ككل شيء، بين يديَّ الله.
فاضت عيناه بدموعٍ حبيسة. لاحظ "راميش" ذلك، فقال محاولًا تغيير الموضوع:
- صرتُ أعمل الآن في "بيجوساراي". أتمنى أن أتمكن من الانتقال والعودة إلى "باتنا" الشهر القادم. لنتقابل عند عودتي.
أخرج محفظته من جيبه، وتناول منها بطاقة، كتب شيئًا على ظهرها. قال:
- هاك. كتبتُ لك رقم تليفوني، ورقم تليفون "سوميترا". اتصل بي بين الحين والآخر، لنتحدَّث معًا. إذا اتصلتَ مساءً، فاطلب رقم "سوميترا"، لأنني أغلق تليفوني بعد ساعات العمل.
شعر "عارف" بنغزةٍ في قلبه عند سماعه اسم "سوميترا". سأل "راميش" عن ابنيه:
- كيف حال "راهول" و"كافيتا"؟
- "كافيتا" في "نيوجيرسي"، أنجبت ولدًا في العام الماضي. "راهول" يدرس هندسة ميكيانيكية في "كارجابور".
- جيد. جيد. أخبارٌ حلوة.
كان يضع بطاقة "راميش" في جيبه، حين لمح رجلًا يقترب منهما. وضع القادم يده على ظهر "راميش"، وقال له: - هيا بنا. لنذهب.
كان الرجل ذاته الذي رآه "عارف" وهو يحتضن "سوميترا". لن ينسى شاربه أبدًا. ترى ما الذي يفعله هنا مع "راميش"؟ هل يدرك "راميش" حقيقة هذا الرجل، أصلًا؟
قدمه "راميش" لـ"عارف"، قائلًا:
- هذا شقيق زوجتي "جايان براكاش". إنه الأخ الأكبر لـ"سوميترا".
لوقتٍ طويلٍ عقب مغادرة "راميش" وشقيق زوجته، ظل "عارف" مستغرقًا في التفكير، محاولًا استعادة تفاصيل الأحداث التي أدَّت إلى انفصاله عن "سوميترا".
"مَن عانقها بمودَّة، ذلك النهار، كان شقيقها، لكن الغيرة دفعتني للشكِّ في سلوكها، والاعتقاد بأنه شخص آخر".

أحسَّ "عارف" بالندم الشديد لإهانته لـ"سوميترا" قبل سنوات. ألحَّت عليه فكرة التحدث معها. هل ستسامحه بعد أن وصفها بالعاهرة؟ هل من الحكمة أن يحاول الاتصال بها؟ هل يواصل علاقته بها من جديد؟ هل هناك أيُّ جدوى من هذه العلاقة، أساسًا؟

في الأسبوع التالي، ذهب إلى السنترال ثلاث مرات. لكنه في كل مرة يرفع فيها سماعة التليفون، ليتصل بها، يعيدها مكانها من جديد، على الفور. ظل يقول لنفسه، مرارًا: "لا تقترب من "سوميترا" مرة أخرى. لا تعقد حياتك، يكفيك ما بها من مشكلات".

في اليوم الثامن، تجرأ أخيرًا على إتمام الاتصال. سمع صوتها الناعس، لكنه ما إن قال: "أنا عارف"، حتى قطعت الخط. حاول الاتصال بها، ثانيةً، لكنها أغلقت تليفونها.

اتصل بها بعد يومين. بادرته "سوميترا" بالسؤال:

- ما الذي تريده منِّي؟

دون أن يعتذر، أخبرها بكل شيء. عن النميمة التي سمعها على لسان الأولاد وهو يشرب الشاي. عن زيارته لمنزلها، ورؤيته لشقيقها وهو يحتضنها.

اختتم حديثه بالاعتذار. قال لها:

- أنا آسف حقًّا.

ثم سألها:

- هل يمكنني رؤيتكِ؟

قال لنفسه، في الوقت ذاته: "أنت تدخل الفخ بقدميك. دع "سوميترا" وشأنها. لا تفسد حياة هذه الأسرة السعيدة. لا تفسد حياتك".

بعد صمتٍ طويلٍ، نطقت أخيرًا، وقالت:

- دعني أفكِّر في الأمر.

عندما اتصل بها، المرة التالية، اعتذر لها مجدَّدًا. أنصتت إليه، عندما تحدَّث إليها، وأجابته بردودٍ مقتضبة: "نعم" و"لا". حينما اتصل بـ"سوميترا" للمرة الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة، تحدَّثت إليه - أخيرًا - بشكلٍ طبيعي. في الحقيقة، تحدَّثت إليه كما لو أن خصامًا بينهما لم يقع. أخبرته بأنها في "كاتيهار"، لدى والديها. أخبرها بأنه سيكون في "كاتيهار"، الأحد التالي، لأداء امتحان وظائف "بيهار".

وافقت على لقائه هناك.

أكد له حدسه بأنه سيؤدي هذا الامتحان على أكمل وجه. بذل جهدًا كبيرًا في الدراسة، خلال الأشهر الستة الماضية. فشل في أن يصبح مأمورًا، لكن لا يزال بإمكانه الالتحاق بجهاز الشُرطة، من خلال الامتحان القادم. ستشكل هذه الخطوة في حياته نوعًا من التطهر، وبدء مرحلة جديدة.

تقرر عقد الامتحان يوم الأحد، الموافق ٢٢ مايو ٢٠٠٥، داخل كُلية "دي إس"، في "كاتيهار".

سوف يلتقي "سوميترا"، عقب سنوات طويلة. أغمض عينيه، متخيلًا صورة حبيبته. جميلة وأنيقة، ولها صوتٌ حلوٌ كالعسل.

مساء السبت، نظر في محفظته. وجد بداخلها ٣٣٠ روبية. سيكفيه المبلغ للذهاب إلى "كاتيهار" والعودة منها، في الدرجة الثالثة من القطار. على كل حال، كان ينوي الركوب دون تذكرة. لا يجرؤ أي مفتش قطار على دخول عربات هذه الدرجة، الممتلئة بالطلبة. يجلس الطلبة أينما شاؤوا، لدرجة أن الركَّاب العاديين، الذين سبق لهم حجز مقاعد، يضطرون للوقوف لحين الوصول إلى وجهتهم؛ أمَّا المسافرون الذين يعرفون مواعيد هذه الامتحانات، فإنهم يؤجِّلون سفرهم لحين انتهائها، تجنّبًا للفوضى التي يحدثها الطلاب داخل القطارات. في الماضي، كان "عارف" يصر على شراء تذكرة قطار، لكنه تخلص من تلك المثالية، بمرور الأيام، وأصبح شخصًا عمليًا، يدرك أن كل روبيةً يدخرها تفيد أسرته.

وصل "عارف" المحطة داخل توكتوك ينفث دخانًا مهولًا من محركه. ازدحم رصيف المحطة، كما لو كان ساحة احتفالات شعبية. وقف معظم الركاب الذين سبق لهم الحجز في طابور أمام شبَّاك التذاكر لإعادتها أو استبدالها، فيما وقف بقيتهم على حافة الرصيف، وقد علت الحيرة وجوههم، متسائلين ما إذا كان بإمكانهم ركوب القطار القادم قبل مغادرته للمحطة.

بعد ساعة كاملة. تهادى القطار داخل المحطة. تدافع الناس، بسرعة، لركوبه. بعد معاناة، استقله "عارف"، وعثر على مكانٍ للجلوس فوق سريرٍ علوي، بجوار طالبين آخرين.

حاول فتيةٌ آخرون الصعود إلى جوار "عارف"، لكن الشاب الملتحي الذي يجلس بجانبه وجه إليهم نظرات غاضبة، لا تخلو من التهديد، فسارعوا بالابتعاد، عدا واحد منهم، وقف ليجادل قائلًا إن الأَسِرَّة الأخرى في العربة يجلس عليها أربعة أشخاص. أجابه الشاب الملتحي بسبابٍ فاحشٍ باللغة الماجاهية، فهرع للبحث عن مكانٍ آخر.

ارتقى العديد من سُكَّان "بيهار" من العامَّة إلى صفوة الطبقات العُليا، يعتمدون السباب الفاحش والتهديد في تعاملاتهم اليومية؛ وهي المهارة التي فشل "عارف" في اكتسابها بشكل تام.

في الأسفل، تشاجر شابَّان على أحقية كل واحد منهما في الجلوس. في ذلك المساء الحار من شهر مايو، أحسَّ "عارف" بجفافٍ شديدٍ في حلقه. أخرج من حقيبته زجاجة ماء بارد، كان قد ملأها من "كولدير" محطة "باتنا". شرب منها قليلًا، وشعر بالارتياح.

سأله الشاب الملتحي الجالس بجانبه:

- هل لي برشفة ماء يا أخي؟

- نعم، بالطبع.

ناوله "عارف" الزجاجة. تناول رشفات صغيرة، في البداية، ثم شربها كاملة. قال معتذرًا:

- سوف أملأها لك في المحطة القادمة.

أجابه "عارف"، باسمًا:

- لا عليك.

قال الشاب إن اسمه "عُنَيب خان". ذكر "عارف" اسمه، وصافحه بمودةٍ وحرارة. تبادلا حديثًا عن الأسئلة المتوقعة في الامتحان. للصدفة، كان الشاب قد اختار الإدارة العامة، كمادةٍ اختيارية، مثل "عارف". سرعان ما غطَّ الشاب في نومٍ عميق، فيما استسلم "عارف" لإغفاءاتٍ قصيرةٍ متوالية، ينام ويستيقظ منها، تباعًا. أصدرت المراوح الموزعة في سقف القطار أزيزًا متواصلًا، ووزَّعت الهواء الساخن في كل مكان. التصق قميصه بظهره، بفعل العرق الغزير. فكَّر في لقائه القريب بـ"سوميترا"، ما أشعره بالبهجة، رغم أن الحيرة لم تفارقه. هل لقاؤه بها مسألة صائبة، أساسًا؟

استسلم لإغفاءةٍ أخرى، استيقظ منها على صخبٍ وضجيج. كان نقاشًا حادًّا بين مجموعة من الشبَّان. الساعة الخامسة صباحًا. خفَّف نسيم الفجر من حرارة العربة. أوشكوا على وصول "كاتيهار".

توقف القطار في محطة "كاتيهار"، مصدرًا صفيرًا طويلًا. غادر القطار المئات من الشُبَّان. فتح معظمهم بنطالاتهم، وبدؤوا في التبول. سالت خيوطٌ كثيرةٌ من البول، بجوار قضبان السكَّة الحديد. ترك "عارف" مكانه، في السرير العلوي، بعد أن شعر بضغطٍ شديدٍ على مثانته. على أرضية القطار، ينام شاب ممتلئ، وقد فرش صفحات جريدة أسفله. فتش "عارف" عن فردتيَّ صندله. عثر على إحداهما. كانت الأخرى أسفل حقيبة سفر كبيرة. زحزح الحقيبة الثقيلة بصعوبة، وأخرج الصندل من تحتها. تحرَّك القطار، فسارع الشبَّان الذين ذهبوا للتبول، بالصعود داخل العربة. ملأوا الممر المؤدِّي إلى الحمَّام. لم يستطع "عارف" الوصول إليه.

داخل المحطة، قرَّر "عارف" و"عُنَيب" النوم لبضع ساعات، قبل التوجُّه للامتحان. أخرج كل واحد منهما ملاءة، فرشها على الرصيف، واستلقى عليها. توسَّدا حقيبتيهما.

استيقظا في الثامنة. وجدا طابورًا طويلًا من الرجال أمام الحمَّام العمومي خارج محطة "كاتيهار". على عكس بقية ولايات الهند، تمتلئ ولاية "بيهار" بالحمَّامات العامَّة في كل مدينة.

فكَّر "عارف"، وهو ينتظر دوره: "في هذه الولاية، لا يملك الناس كميات وفيرة من الطعام ليأكلوها، لكنهم يملكون الكثير من المراحيض العامَّة كي يتبرزوا فيها، مقابل روبية واحدة!".

كان الامتحان جيدًا. خرج "عارف" منه مبتسمًا. لمح تليفون في مقهى قريب، فاتصل منه بـ"سوميترا". بعد رنَّتين، أجابه رجل. خمَّن "عارف" أنه

والدها، فأنهى الاتصال مباشرةً.
عاود الاتصال بها بعد ساعة. ردَّت عليه بنفسها هذه المرَّة.
- "سومي".. هذا أنا، "عارف".
سألته بلهفة:
- كيف كان الامتحان؟
- جيِّدٌ جدًّا.
- عظيم.
- متى أراكِ؟
- غدًا. سأسافر بمفردي إلى "بيجوساراي"، في قطار "كاتيهار باتنا إكسبريس"، الثانية والنصف بعد الظهر. سيرافقني أبي إلى المحطَّة. اسمع، اشترِ تذكرة للدرجة الثالثة، ثم تعالَ إليَّ في العربة المكيَّفة رقم ٢. مقعدي هو ٣٥. سأحوِّل تذكرتك إلى الدرجة المكيَّفة. هناك دائمًا مقاعد خالية، في هذا القطار.
- حسنًا.
أومأ "عارف" برأسه، وكأنها تقف أمامه. سألته:
- أين تقيم؟
أجابها كاذبًا:
- في فندقٍ قريبٍ من المحطة.
لو أنه صارحها بأنه لا يملك مالًا كافيًا لاستئجار غرفة في فندق، ستشعر بحزنٍ عميق.
وضع السمَّاعة، شاعرًا بسعادةٍ غامرة.
على الرصيف المقابل للسنترال، وقف بائع أطعمة يقلي خبز الـ"بوري" فوق عربته. عامت حبَّات الـ"بوري" المنتفخة فوق سطح الزيت الذهبي العميق. في سلطانيةٍ كبيرة، تجاورت قطع البطاطس داخل صلصة حمراء، تغطيها أوراق الكزبرة المفرومة. طلب "عارف" طبقًا منها. بعد أن أحسَّ بالشبع، ركب توكتوك إلى محطَّة قطارات "كاتيهار". امتلأت صالة انتظار ركَّاب الدرجة الثانية بالمسافرين. على رصيف المحطَّة، وقف عدد كبير من الطلبة، العائدين إلى بلداتهم، عقب أدائهم الامتحان. كان قطار التاسعة والنصف مساءً، المتجه إلى "باتنا"، مزدحمًا بالركَّاب. تدافع الطلبة لركوبه، ودخل بعضهم العربات المكيفة، ثم تمَّ استدعاء الشُرطة لإخراجهم بالقوَّة. تعامل رجال الشُرطة بعنف مع الشُبَّان. راقب "عارف" الموقف من بعيد. استعدَّ للهروب، في حال اقترابهم منه. بعد ثلاث ساعات، خلا الرصيف من معظم المتواجدين عليه.
استقرَّ "عارف" إلى جوار مكتبة مغلقة، في المحطة، وقرَّر النوم بجانبها. أخرج الملاءة من حقيبته، ففوجئ أنها رطبة جدًّا. تذكَّر أنه وضع فوطته بجوار الملاءة، بعد استحمامه. أعاد طيَّ الملاءة، ووضعها مع الفوطة في

الجيب الجانبي الكبير لحقيبته. كان قد لفَّ قمصانه المكويَّة وبنطاله داخل صفحات جريدة قديمة. أزالها عن ثيابه، وفرشها ليتمدَّد عليها.

على الصفحة الأولى، لفت أحد الأخبار نظره:

نيودلهي: في ضربةٍ موجعةٍ لرئيس وزراء "جوجرات"، "ناريندرا مودي"، الولايات المتحدة الأمريكية ترفض منحه تأشيرة دخول لأراضيها.

اتخذت القنصلية الأمريكية، يوم الجمعة، موقفًا صارمًا ضد "مودي"، العضو البارز في حزب "بهاراتيا جاناتا"، وأحد رموز حركة "هندوتفا"، عن طريق رفضها منحه تأشيرة دخول دبلوماسية لأراضيها، إذ تعتبره الولايات المتحدة مسؤولًا عن إثارة أعمال الشغب الطائفية، التي اندلعت في "جوجرات" عام 2002، والتي حصدت ما يزيد على ألفين من الأرواح.

بالإضافة لذلك، تم إلغاء تأشيرة السياحة/ العمل التي كان قد حصل عليها سابقًا، وفق قوانين الهجرة الأمريكية.

صرح متحدث باسم السفارة الأمريكية بالتالي: "تقدم رئيس وزراء "جوجرات" بطلب الحصول على تأشيرة دخول، لكنه لم يُمنَح تأشيرة دبلوماسية، وفقًا للقانون ب 214 من قوانين الهجرة، لأن أسباب دخوله للولايات المتحدة تخلو من أي سبب دبلوماسي".

علَّق "عارف"، متذمِّرًا: "اللعنة عليك يا "چورچ بوش" يا ابن الحرام! يا لك من منافق! تساهم في قتل المسلمين، في كل مكان في العالم، ثم تدعي المثالية وتمنع رئيس الوزراء الجوجراتي من الحصول على تأشيرة سفر!".

فرش صفحات الجريدة، واستلقى فوقها، واضعًا حقيبته تحت رأسه. ظل يفكر في لقائه الوشيك بـ"سوميترا"، إلى أن استغرق في النوم.

صباحًا، كان الوقوف في طابور الحمَّام العمومي أقصر وقتًا، مقارنةً باليوم السابق. تحمَّم سريعًا، ثم خرج يبحث عن صالون حلاقة. لم يرغب في لقاء "سوميترا" بشعيراتٍ نابتةٍ في ذقنه. عثر على صالون حمل لافتة بالإنجليزية كُتِبَ عليها كلمة "Italian".

الحلاق عجوزٌ نحيلٌ، له لحية بيضاء أنيقة، تشبه لحية "أميتاب باتشان". أخبره بأن استخدام كريم الحلاقة سيكلفه خمس روبيات، أما الحلاقة بالصابون فبثلاث روبيات فقط. اختار "عارف" الطريقة الأخيرة. أجلسه الرجل على سِتة قوالب من الطوب. حسنًا، الواقع أن كلمة Italian التي علقها الحلاق على دكانه لا تشير إلى أيِّ شيء إيطالي على الإطلاق، وإنما إلى القوالب التي يستخدمها كمقعد لزبائنه، إذ إن كلمة "إيتا" تعني الطوب!

اتضح أن الحلاقة في هذا الصالون عملية مؤلمة. كلما حرك الحلاق الموسى على ذقنه، أحسَّ "عارف" بألمٍ حارقٍ في بشرته. عندما أعرب عن استيائه، أجابه الحلاق بأن ذلك بسبب خشونة ذقنه. حين انتهى أخيرًا، بلل

قطعة شَبَّة في الماء، ومسحها على ذقن "عارف"، الذي شعر كما لو أن حريقًا يشتعل في وجهه.

قبل أن يدفع للحلاق، نظر إلى نفسه في المرآة. لا بأس به. ابتسم وهو يمشط شعره.

أعطى صندله للإسكافي المجاور للحلاق. انتهى الرجل من إصلاحه، وانهمك في تلميعه. قال له "عارف"، وقد نفد صبره: - أسرِع يا أخي، لا أريد للقطار أن يفوتني.

تحرك الطابور أمام شباك التذاكر ببطءٍ شديد، إذ كان الموظف رجلًا مُسِنًّا يواجه صعوبة بالغة في التعامل مع إصدار التذاكر إلكترونيًا. كان "عارف" لا يزال منشغلًا بالتفكير في "سوميترا"، عندما حان دوره. صاح الموظف المُسِن بعصبية: - أي محطة؟

أجابه "عارف" باضطرابٍ وارتباكٍ شديدين:

- "باتنا". قطار "سوبرفاست".

بعد أن استلم التذكرة، اتجه إلى الرصيف رقم واحد. ركب القطار، وعثر على المقعد رقم ٣٥، داخل العربة المكيفة. تحرك القطار، لكنه لم يرَ "سوميترا". بعد دقائق قليلة، اقترب منه رجل متوسط العُمر، يرتدي سترة سوداء. كان المُحَصِّل المخصَّص لعربات الدرجة الثانية المكيَّفة.

عدَّل المُحَصِّل وضعية نظارته، محدِّقًا في "عارف" بنظراتٍ مُرتابة. قال له:

- أرني تذكرتك، من فضلك.

شعر "عارف" بجفافٍ في حلقه. قال وهو يفتِّش المكان بعينيه، دون أن يرى "سوميترا":

- جئتُ أبحث عن زوجة أخي.

أحسَّ بدهشةٍ بالغةٍ لأنه وصفها بزوجة أخيه، دون تفكير.

قال المُحَصِّل بانزعاج:

- أين تذكرتك؟

أخرج "عارف" تذكرة صغيرة، تجمع بين اللونين الأبيض والبُني.

- حسنًا. هذه تذكرة الدرجة الثالثة، وأنت الآن في الدرجة الثانية المكيفة.

استطرد صائحًا بغيظ:

- ألا تفهم الفرق؟

- نعم، ولكنني..

قاطعه المُحَصِّل بغضب:

- اخرج من هذه العربة. اسمع، قف قريبًا من الباب، وانزل في المحطة التالية لتركب إحدى العربات الخلفية.

غمغم بحنق:

- من أين يأتون بمثل هذه الأشكال؟

استدار "عارف" ليتجه إلى الباب، فرأى "سوميترا" أمامه، تحمل حقائب سفر. كانت ترتدي ساري أسود بنقوشٍ من اللونين الأصفر والأحمر، ومن أسفله بلوزة سوداء بكُمَّين طويلين. لا تزال تحتفظ بسِحرها وفتنتها، رغم التجاعيد الخفيفة التي ظهرت على وجهها. لا بد أنها في أواخر الأربعينيات الآن. سألتْ المُحَصِّل: - ما المشكلة؟

- لا شيء يا سيدتي. هذا الولد ركب هنا، في الدرجة المكيفة، رغم أنه يحمل تذكرة للدرجة الثالثة.

قالت "سوميترا" بنبراتٍ تشي بالقوة والثبات:

- إنه يسافر معي. خذ الفرق وأعطنا تذكرة جديدة. أظن أن المقعد رقم ٣٦ خالي؟

أطاعها المُحَصِّل على الفور. أخرج قائمة بالمقاعد من جيبه، وآلة حاسبة. بعد بضع عمليات حسابية، ابتسم بشيء من الحرج، وقال: - استخراج تذكرة جديدة مسألة مُكلِّفة. يمكنني السماح لشقيق زوجكِ بمرافقتكِ في هذه الدرجة، مقابل ٢٠٠ روبية فقط.

- كلا. أعطنا تذكرة، كما ينبغي عليك. لا نمانع في دفع الفرق، أيًّا كان.

- أنا المسؤول عن هذا القطار، يا سيدتي، حتى محطة "باتنا". أؤكد لكِ بأن عدم إصدار تذكرة جديدة لن يتسبَّب لحضرتك في مشكلة. يمكنكما مواصلة الرحلة على هذا النحو، كالكثير من الركَّاب.

أضاف بابتسامةٍ عريضةٍ، تشي بالطيبة، كابتسامةِ "بوذا":

- فلنجعلها مئة وخمسين روبية فقط.

قالت "سوميترا" بصرامة:

- كلا. من فضلك. تذكرة جديدة.

أجاب المُحَصِّل بضيق:

- لا بأس. ما دمتِ مُصرَّة، سأستخرج لكِ تذكرة جديدة. لكنني أؤكِّد لكِ بأن كلينا خاسرًا. لن أستفيد أنا شيئًا، وستصرفين أنتِ الكثير من المال الذي سيذهب لخزينة الدولة في نهاية الأمر.

- أشكرك على العَرض. لكنني أريد تذكرة رسمية صحيحة. إذا أردتَ أنتَ مبلغًا إضافيًا لنفسك، لتشتري بعض الشاي أو الماء، أخبرني. لا أمانع في إعطائك إيَّاه.

- كلَّا يا سيدتي. لستُ مخادعًا أو محتالًا. إذا كنتِ ستدفعين ثمن التذكرة، فلن أطلب منكِ مالًا إضافيًا.

- أشكرك على كرمك ولطفك.

فتحت حقيبة يدها المصنوعة من قماش أزرق. قال "عارف"، وهو يُخرِج محفظته من جيبه:

- دعيني أدفع.

تذكر أنه لا يحمل معه سوى مئتيَّ روبية، وأن ذلك غير كافٍ لتذكرة الدرجة الثانية. قالت "سوميترا" بحسم: - كلا.

مدَّت يدها بخمسمئة روبية تجاه المُحَصِّل. استسلم "عارف"، شاعرًا بارتياحٍ كبيرٍ. حمد الله لأنه جنَّبه حرج كبير. ابتسم المُحَصِّل، وأخذ النقود. التفتَ إلى عامل العربة، طالبًا منه إحضار غطاء ووسادة لـ"عارف".

كانت العربة شبه فارغة. المقاعد والأسِرَّة القريبة من "سوميترا" خالية. جلسا متجاورين على السرير، لساعةٍ ونصف، أخبرها "عارف" ما مرَّ به خلال السنوات الخمس الماضية. أبدت تعاطفًا كبيرًا حين سمعت بموضوع "ذاكر". قالت له بأنها لم تعرف بوفاة الجدة أبدًا.

مسحت دموعها، وقالت بحزن:

- لم أكن في "باتنا" حينها. كان "راميش" قد انتقل إلى "بيجوساراي". لو كنت أعرف، كنتُ سآتيكم حتمًا. كانت امرأة لطيفة للغاية. تقية ووَدُودة.

بعد أن غادر القطار محطة "تانا بيبور" بحوالي عشر دقائق أو ربع ساعة، توقف القطار فجأة. قال عامل العربة بأن محرِّك القطار يعاني من خللٍ ما، وأن عليهم انتظار قطار آخر، سيأتي من "كاجاريا" أو "كاتيهار". أخبرهما أيضًا بأنه ليس بإمكانه تقديم الطعام، لعدم وجود بوفيه داخل هذا القطار، وإن أقرب محطتين من هذا المكان بعيدتان.

بسبب الجوع، بدأ "عارف" يشعر بصداعٍ خفيفٍ، سرعان ما أصبح شديدًا وغير محتمل.

- "عارف"، ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

- صداعٌ شديد.

دلَّك جبينه بأصابعه.

سحبت "سوميترا" حقيبة السفر من أسفل مقعدها. أخرجت منها عبوة مرهم "زاندو".

قالت له:

- استلقِ. سأدلِّك جبينك بالمرهم.

تمدَّد "عارف" على السرير. جلست "سوميترا" بجانبه، ودلَّكت جبينه بالمرهم الذي يحمل رائحة نعناع نفَّاذة. منذ اختفاء "ذاكر" ورحيل الجدة، تناسى "عارف" رغباته الجسدية. لكن ما إن شعر بلمسات "سوميترا"، حتى عاودته رغباته القديمة.

بعد دقائق، راحا يتبادلان العناق واللمسات. قالت له:

- "عارف"، هل تدرك بأنني كنتُ أعتقد بأن علاقتنا ستستمر للأبد؟ ولكن حين قطعتَ جميع الخيوط التي تربطنا ببعضنا، تحطم قلبي تمامًا. تعلمتُ بعدها أن أعيش دونك، رغم إدماني وجودك في حياتي. ها أنت تعود، وأخشى الآن أن أفقدك مرة أخرى.

تحسس طرف السياري صامتًا. استطردت "سوميترا":

- اسمع! لديَّ خطّة لكلينا. لمَ لا تفتح محلّا للأدوات المكتبية والمدرسية قريبًا من "تشتراكار نَجَر"؟ هناك الكثير من المدارس في تلك المنطقة. سيكون مشروعًا مُربِحًا. إذا كنت لا تمانع، فسوف أساعدك بخمسين ألف روبية. بهذه الطريقة، يمكننا أن نلتقي يوميًا. هذا مجرد اقتراح، بطبيعة الحال. يمكنك اعتباره خيارًا، في حالة عدم نجاحك في امتحان "بيهار".

تناول كفها وتشمم عطرها. قال:

- "سوميترا"، لا أتخيَّل حياتي مع امرأة أخرى غيرك.

صفَّر القطار، وتحرَّك من جديد. سمعا صوت خطوات تقترب من العربة، فابتعدا عن بعضهما بسرعة.

في حوالي الساعة واحدة صباحًا، اقترب القطار من محطَّة "بيجوساراي". ودَّعته "سوميترا" بقبلةٍ رقيقة. أمسكت بيد "عارف"، وقالت له: - سوف يعود "راميش" للعمل في "باتنا" خلال شهرين أو ثلاثة. يمكننا عندها أن نتقابل بانتظام. حتى ذلك الوقت، تحدَّث إليَّ بالتليفون. أرجوك.

عبر زجاج النافذة، رآها "عارف" وهي تسير على رصيف المحطَّة، وتلوِّح لزوجها الذي وقف على بُعد بضعة أمتار. هرع "راميش" نحوها، وحمل عنها حقيبة السفر. راقبهما "عارف"، إلى أن غابا وراء بوَّابة الخروج. أحسَّ بالخواء.

تحرَّك القطار ثانيةً. أغمض "عارف" عينيه، مستندًا إلى النافذة. تساءل ما إذا كان قراره بلقائها غلطة من جانبه. إن الاستمرار في علاقةٍ سِرِّيةٍ معها سيتسبب في مشكلةٍ كبيرةٍ لكل واحدٍ منهما. ماذا لو عرف "راميش" بالمسألة؟

لم يكن متأكدًا من قدرته على الوفاء بالوعد الذي قطعه لها في لحظةٍ عاطفيةٍ مُثيرة. "هل كان عليَّ حقًا وعدها بالإخلاص في حبِّها، وحدها، مدى الحياة؟".

وصل "باتنا" صباح اليوم التالي.

داخل شقة "سامانبورا"، لم يكن هناك أحد سوى أخته "هوما"، التي كانت تبكي. سألها في فزع: - ما الأمر؟

- تعب بابا فجأة. اصطحبته ماما والعم "جميل" إلى المستشفى.

- أي مستشفى؟ وكيف أخذاه إلى هناك؟

- أحضر العم "جميل" توكتوك. ذهبوا إلى "جِتْوِل كلينيك".

قذف بحقيبته على الأرض، وسارع بالذهاب إلى العيادة، في "راجا بازار". هناك، لمح والده جالسًا على مقعدٍ كبيرٍ في المدخل. جلست الأم بجواره، وقد ارتسم القلق على ملامحها. حمل جارهما - وزميل الأب السابق - كوبًا من الماء، وضع فيه قرصًا من كيسٍ صغير. سقط الكيس على الأرض. تناوله "عارف" ليرى ما هو. كان "بيبفيز"، أحد مضادات الحموضة الشهيرة. أشار

له الأب، مطمْئِنًا: - لا تقلق يا ولدي. لا مشكلة. غازات فقط. سيكون كل شيء على ما يرام، بإذن الله.

لكن المسألة لم تكن بسيطة، ولم تكن مجرد غازات فقط، كما ظنوا. بعد ثلاثة أيام، في منتصف الليل، أحس الأب بآلامٍ في صدره. تسارع نبضه، وواجه صعوبةً في التنفس. تقيأ مرتين. لم يدرِ "عارف" كيف يحمله إلى المستشفى. في "باتنا"، يستغرق وصول سيارة الإسعاف زمنًا لانهائيًا. جرب الاتصال بخدمة "فيروز لسيارات الأجرة"، لكن التليفون كان مغلقًا. لا يمتلك أحدًا من أقاربه أو معارفه سيارة. لدى "شبير علي"، صاحب البيت، دراجة نارية؛ أمَّا العم "جميل خان"، فلا يزال يؤمن بأهمية الرياضة البدنية، ولذلك يصر على استخدام دراجة هوائية. هتف "عارف" فجأة: - "بيشامبار"!

"بيشامبار" هو أحد أبناء أعمام "مريتونجاي". يقوم بتدريس مادة الإدارة العامة في جامعة "بيهار ناشونال كوليدج". كان "مريتونجاي" قد اصطحبه معه إلى منزل ابن عمه هذا، كي يشرح لهما طبيعة الأسئلة في امتحانات الخدمة المدنية. بعدها، تردد "عارف" على "بيشامبار" عدة مرات، بمفرده. في كل مرة، استقبله بالترحاب وبمودةٍ بالغة. في زيارته الأخيرة له، أعطاه رقم تليفونه الخاص به. كان ذلك منذ عامين. قال له حينها: "إذا احتجت لأن تراني، وتأتي لزيارتي، اتصل بي قبلها على هذا الرقم". في تلك الفترة، اشترى "بيشامبار" سيَّارة "ماروتي ٨٠٠" بيضاء.

تقيَّأ الأب من جديد. فتَّش "عارف" عن كتاب الإدارة العامَّة، الذي دوَّن على غلافه الخلفي رقم تليفون "بيشامبار". أخرج تليفونه من تحت الوسادة، على سريره، واتصل بالرقم.

أجابه صوت نسائي، ناعس. قال لها:

- الأخ "بيشامبار".

أخبره "عارف" بأنه بحاجة لنقل والده إلى المستشفى.

- أين تسكن؟

- منزل "شبير علي". قريبًا من الجامع القديم، في "سامانبورا". مقابل بقالة تحمل اسم "786 كارينا شوب".

كان "عارف" على وشك أن يشرح له الطريق الذي ينبغي عليه اتباعه للوصول إليهم حين أنهى "بيشامبار" المكالمة، وأغلق الخط. كرَّر "عارف" الاتصال بالرقم ثلاث أو أربع مرَّات، دون أن يجيبه أحد. أدرك "عارف" أن الرجل لا ينوي مساعدته. حارَ في كيفية نقل والده للمستشفى. اضطر أخيرًا للاتصال بالإسعاف.

بعد ١٥ دقيقة، سمع صوت سيَّارة تتوقف أمام المنزل. هرع ليستطلع الأمر، وجد "بيشامبار" يخرج من سيارته، وهو لا يزال بالمنامة.

كان الطريق شبه خاوٍ. لا سيارات في "بيلي رود". قريبًا من "ميوزيَم رود"، حيث الكنيسة المعمدانية في "تشاتشو باج"، شاهدوا خيال رجلين،

يقفان في منتصف الطريق، يلوّحان لسيارتهم. قال "بيشامبار" بالإنجليزية: - يبدو أنهما لصوص.
سأله "عارف" بقلق:
- ماذا نفعل؟
التفت إلى الخلف ليطمئن على أبيه. كان يغمض عينيه، وقد أمسكت به زوجته، وهي تتمتم بآياتٍ من القرآن.
قال "بيشامبار":
- تمالك نفسك.
أبطأ من سُرعة السيارة، وقال مخاطبًا والدة "عارف" بالهندية:
- خالتي، أمسكي بعمِّي جيِّدًا، لأن الطريق أمامنا مليءٌ بالمطبَّات الصعبة.
عندما اقتربوا منهما، اكتشف "بيشامبار" و"عارف" أنهم خمسة رجال، وليس اثنين. كانوا يغطون وجوههم، بكوفياتهم، ويحمل كل واحد منهم مضرب هوكي. قال "بيشامبار": - لا شكَّ أبدًا في أنهم لصوص أو قطّاع طرق.
فجأةً، أسرع "بيشامبار" بشدَّة، حتى طارت بهم السيارة، واصطدمت باثنين من الواقفين. سمع "عارف" صراخًا وسبابًا، من الخارج.
قريبًا من ميدان "غاندي"، سأله "بيشامبار":
- هل يلاحقوننا؟
أجابه "عارف":
- كلا.
حين سمعت الأم الصراخ، سألتهما وقد استبدَّ بها القلق:
- ما هذا؟ ماذا حدث؟
ردَّ "بيشامبار" بسرعة:
- كلبٌ ضال.
راح الأب يسعل، فسألت الأم رفيق ابنها:
- كم بقي من الوقت لنصل إلى المستشفى؟
- عشر دقائق يا خالتي.
داخل قسم الطوارئ في مستشفى "باتنا" الجامعي، لم يكن هناك أي طبيب موجود. أخبرتهم الممرضة القصيرة السمينة بأن الطبيب سيصل خلال دقيقتين. عندما لم يأتِ أحد، بعد مرور ربع ساعة، فقد "بيشامبار" أعصابه، وأخذ يصيح، مؤنِّبًا الممرضة، التي قالت: - واجبي هو إبلاغ الطبيب، وقد قمتُ بذلك بالفعل. مسألةُ أن يأتي أو لا يأتي مسألةٌ تخصَّهُ وحده.
أخرج "بيشامبار" التليفون المحمول، واتصل برقم. تحدَّث بعد لحظات، سائلًا:
- هل معاليك الوزير "دويديفي"؟

سار مبتعدًا عنهم، وهو لا يزال يتحدَّث في التليفون المحمول. نظر "عارف" إلى والده الذي كان مستلقيًا على أحد الأسِرَّة، وهو يسعل ويتجشَّأ. راحت الأم تدعو الله في خشوعٍ وتضرع.

بعد عشر دقائق، دخل العنبر رجل مُسِن. وقفت الممرضة على الفور، وقد تفاجأت بوجوده في هذه الساعة. سألها بغضب: - أين الأطباء المناوبين؟

أجابته بصوتٍ مرتعش:

- سيِّدي، إنهم في حالة إضراب.

- ولكن يجب أن يتواجد أحدهم هنا في الطوارئ.

- الطبيب "سينها" هو المناوب الليلة.

- أين هو؟ أبلغيه أنني هنا.

رفعت الممرضة سماعة التليفون بأصابع مرتجفة. سألها الرجل المُسِن:

- أيهُم السيد "ميشرا"؟

قبل أن تجيبه، تقدَّم "بيشامبار" معلنًا:

- أنا "بيشامبار ميشرا".

- سيد "ميشرا"، أعتذر لك عن التقصير. تلقيتُ للتو مكالمة من وزير الصحة. صُدِمتُ حين أبلغني بعدم وجود أي طبيب في قسم الطوارئ. أنا الدكتور "تاكور"، بالمناسبة. أين المريض؟

بقي "بيشامبار" معهم حتى الصباح، حين أعلن الطبيب إمكانية مغادرة الأب للمستشفى. أخبرهم بأنها حالة تسمم، وأن السبب يعود للماء الملوث على الأرجح؛ كما أنه يعاني من التهابٍ حادٍّ في جدار المعدة، وبحاجةٍ إلى علاجٍ طويل.

اقترح عليهم "بيشامبار" متابعة العلاج مع أفضل طبيب جهاز هضمي في "باتنا"، الدكتور "إ. ك. دوتَّا".

في اليوم التالي، حجز "عارف" موعدًا مع الدكتور "دوتَّا".

كان الطبيب رجلًا في أواخر السبعينيات، نافد الصبر. بمجرَّد أن شرح له الأب ما يعانيه من العرق الغزير وتسارُع النبض، وانقطاع النَفَس، والآلام الشديدة في الصدر والبطن، والرائحة الكريهة جدًّا المصاحبة لعملية الإخراج، شخَّص الدكتور "دوتَّا" الحالة على الفور. قال بغضب: - سيِّد "خان"، لقد أنهكتَ جسمك بشدة خلال عملك في جهاز الشُرطة، والآن حان وقت الاستراحة.

أضاف مؤكِّدًا ما قاله للتو:

- الراحة تعني الراحة التامة.

استطرد الطبيب، محذِّرًا:

- سوف أضع لك نظامًا غذائيًا صارمًا، عليك اتباعه بدقةٍ شديدة، وإلا اضطررنا لتقطيع أمعائك. هل تفهمني؟

التفت إلى الأم قائلًا:

- احرصي على توفير الراحة التامة لزوجك، لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر. ولا تقدمي له أي طعام كتبته في قائمة الممنوعات.

غطت الأم جانبًا من وجهها بطرف الساري، وقالت بخجل:

- حسنًا يا حضرة الدكتور.

صار الأب ضعيفًا وواهنًا بسبب المرض وبقائه المتواصل في المنزل. لعلَّ الميزة في وجوده الدائم هي أنها أتاحت لـ"عارف" الاقتراب منه أكثر.

صباحًا، يغادر "عارف" إلى عمله في معهد التدريب، في ساعةٍ مبكِّرة، ويعود منه بعد العصر. زاد من عدد حصص الدروس الخصوصية التي يعطيها للطلبة، ليتمكن من دفع نفقات علاج والده.

مساءً، يجلس مع والده ليلعبا معًا الـ"كيرَم" أو الشطرنج أو الكوتشينة. كانا يناقشان معًا أمورًا عدَّة. في بعض الأحيان، كان الأب يقصُّ عليه حكايات من طفولته. سنوات الفقر المدقع، ومعاناته كي يستكمل تعليمه، إلى أن وصل الصف الحادي عشر. ذكَّرته طريقة الأب في السرد بجدَّته، وبخاصة حين يستغرق في حكايات عائلته. قال مرة: - في ثلاثينيات القرن العشرين، امتلك والدي تجارة أخشاب، أدارها بنجاح، وكوَّن منها ثروة ضخمة. امتلك بيوتًا كبيرةً في "جمالبورا" و"موتيهاري" و"باتنا". في "جمالبورا"، كان قصر جناب "علي خان"، هو الأشهر على الإطلاق. يحرس جانبيَّ البوَّابة فيلان ضخمان، وهناك عربة يجرها حصانان، لنقل سيدات العائلة في مشاويرهن. امتلأ القصر بعشرات الخدم من الرجال والنساء. تزوج جدتك عقب وفاة زوجته الأولى، أعني والدة عمك. كان أبي هو الأكبر بين إخوته. في عام 1945، توفي أحد أعمامي، فجأة. قبل أن يستفيق والدي من صدمته، تعرض لمحنةٍ أخرى.

استطرد الأب:

- في ذلك الوقت، كان النهر هو الأسرع والأرخص ثمنًا كوسيلة نقل. اعتاد الناس ربط أعمدة خشبية متجاورة، ليصنعوا منها طوفًا. يضعونه على سطح المياه، ويقومون بالتجديف لوجهتهم. لكن الطوف وسيلة خطيرة للانتقال، ففي بعض الأحيان، يثور النهر، دون إنذار، ما يتسبَّب في كوارثٍ ومآسٍ. كان أحد أعمامي مولعًا بالمغامرة، ورغم تحذيرات والدي المتكررة، تسلل إلى النهر ليركب طوفًا خشبيًا، بصحبة واحد من خدمه. غرق الاثنان، ولم يُعثَر على جثتيهما. بعد مرور ثلاثة أشهر على هذا الحادث، مات عمي الأخير دهسًا، من فيلٍ أصيب بحالة هياج، في "جمالبورا".

أضاف:

- لم يتحمَّل أبي فقدان جميع إخوته في وقتٍ قصيرٍ للغاية، فأصيب بالمرض ولازم الفراش، لنحو ثلاث سنوات. في تلك الفترة، شهدت البلاد عملية الانفصال، وتقسيمها إلى الهند والباكستان. حذر العديدون أبي من البقاء، حتى لا يتعرض للنحر على يد الهندوس. لكنه رفض الرحيل، معلنًا أنه

يفضل أن يُدفَن إلى جوار آبائه وأجداده. لكن القدر جعله يُدفَن بعيدًا عن آبائه، على عكس ما تمنى؛ إذ توفي في "ساماستيبور"، التي ذهب إليها لتلقي العلاج على يد طبيب شعبي، علَّه يشفيه من مرضه الغامض. دُفِن أبي هناك. بعد وفاته، لم يعد هناك رجل بالغ يدير ثروة العائلة. حاولت جدَّتك تحمل المسؤولية. لكنها لم يسبق لها التعامل مع أحد، وتجهل طبيعة الحياة خارج منزلها وعالمها المحدود. باعت جزءًا من الأرض التي تملَّكها. غافلها بعض الأقارب البعيدين، وقاموا بالاستيلاء على بقية أراضيها في القرى الأخرى. جاهدتُ كي أواصل تعليمي، في تلك الظروف الصعبة. لم أنسَ أبدًا كلمات والدي إليَّ، ورغبته في أن أعمل مسؤولًا إداريًا في الحكومة. حاولت طويلًا، لكنني عجزت عن استكمال تعليمي، بسبب قلة مواردنا المالية. اضطررتُ في نهاية الأمر للالتحاق بجهاز الشُرطة. الحقيقة أن جدتك كانت امرأة حديدية حقًّا. ربَّتني وأخي بمفردها تمامًا، دون مساعدةٍ من أحد.

كلَّما تحدَّث الأب عن أمه، امتلأت عيناه بدموعٍ حبيسةٍ.

قصَّ الأب على "عارف" حكاية زواجه من الأم:

- كنت في الثامنة عشرة. عدتُ من كلية الشُرطة في إجازة. استقبلتني جدتك بخبرٍ مفاده أنها تلقَّت عرضًا لزواجي، من طبيبٍ شعبيٍ شهيرٍ في "عنايت نَجَر"، يرغب في تزويجي من ابنته. في ذلك الوقت، كان خالك السيد "حكيم" طالبًا في الكلية الطبية في جامعة "آليجراه الإسلامية". يدرس ليصبح طبيبًا شعبيًا مثل والده. كان حفل الزفاف فخمًا للغاية. حين وصلت أمك، "حميدة"، إلى بيت العائلة، ورأت كم هو متهالك، أحست بخيبة أمل. لكنها تجاوزتها سريعًا، وأقلمت نفسها على العيش فيه، بإمكانياته المحدودة. وُلِد طفلنا الأول ميتًا. أمَّا طفلنا الثاني، فمات عقب ولادته بستَّة أشهر. الولادة الثالثة كانت بنتًا، ماتت في عُمر الشهرين. جُنَّت "حميدة". بين الحين والآخر، كانت تهرب من غرفتنا، وتذهب لزيارة القبر الذي دُفِنَت فيه صغيرتنا. كم كانت محاولات إعادة "حميدة" لشخصيتها القديمة صعبة. الحقيقة أن ولادتك أصلحت الكثير من مشكلات حياتنا. تشاغلتْ برعايتك، والعناية بك، وتدريجيًا، تناستْ أحزانها، وعاودتها الابتسامة. أحسستُ بالارتياح. في تلك الفترة، ترقَّيتُ إلى منصب مساعد مفتِّش.

صمت الأب، ناظرًا إلى الأم التي كانت تعد الطعام في المطبخ القريب. شعر "عارف" بالحب الكبير الذي يحمله والده لها. قال الأب بعد قليل: - لطالما عاملتني الحياة بقسوة. فقدتُ والدي وأنا طفل صغير. كان حلمي أن أراك مأمورًا. لكن ذلك سيبقى مجرد حلم. إنه خطئي. أنا الذي لم أرسلك إلى مدرسةٍ جيدة. وبعدها، لم أمنحك المال الكافي للالتحاق بمعهدٍ متخصصٍ يؤهلك للنجاح في الامتحان. كان راتبي يكفي إطعامكم، بالكاد.

- كلا. لا تقل ذلك يا بابا. إنه خطئي أنا. كان عليَّ أن أبذل جهدًا أكبر.

قال الأب بصوتٍ متهدج، وقد غلبته عاطفته:

- أنت ولدٌ طيِّبَ. لا تلوم والدك أبدًا، على عكس أبناء أصدقائي، الذين يتذمَّرون من آبائهم ويشعرونهم بالتقصير.
خلال هذه الجلسات، تأتي سيرة "ذاكر"، بشكلٍ أو بآخر. في كل مرَّة، يتقلَّص وجه الأب ألمًا، وتسيل الدموع من عينيه. يمسح "عارف" دموع والده، فيما يحاول مغالبة رغبته في البكاء.
في أحد الأيَّام، وبعد حصولها على البكالوريوس بتفوُّق، أعلنت "هوما" لوالدها عن رغبتها في الحصول على شهادة الماجستير، رغم أن الأب كان قد أخبرها سابقًا بعجزه عن مواصلة دفع مصروفات دراستها.
لم يكن بإمكان "عارف" مساعدتها. كلّ روبيةٍ يدخرها كانت من أجل تزويجها. لقد بلغت السادسة والعشرين، وبدأ الأقارب يسألون أمه عن تأخرها في ترتيب زواج ابنتها.
انتشر خبر مرض الأب بين الأهل والمعارف، وتوافد الزوار على بيتهم لزيارته. صارت الأم تطبخ أوانٍ كبيرةٍ من الأرز والعدس والخضروات للضيوف والزوار.
قال الأب بارتياح:
- الحمد لله أن "حميدة" صار لديها موقد بالغاز أخيرًا، بدلًا من الطهو على موقد الفحم.
جاء الخال ليزورهم في أحد الأيَّام، مصطحبًا معه زوجته وابنته "فارزانة". أعلن قبيل مغادرته: - ستبقى "فارزانة" هنا لتساعد عمَّتها "حميدة" في شئون المنزل، إلى أن يُشفى السيَّد "رشيد" تمامًا.
مساء يوم أحد، كان "عارف" يقرأ الصحيفة داخل حجرته، حين لفتَ حديث أبويه اهتمامه. كانا في الشرفة. كعادتها، لم تخاطبه باسمه مجرَّدًا، اتباعًا للتقاليد القديمة. قالت له: - "أبو عارف"، اتصل أخي "حكيم" وزوجته مرة أخرى. يقولان بأنه عليك أن تتحدث إلى "عارف" بشأن الزواج. لم يعد بإمكانهما الانتظار أكثر..
قطع حديثهما دخول "فارزانة" إلى الشرفة، بكوبٍ من الماء، وبعض الأدوية التي كتبها الدكتور "دوتَّا".
لاحظ "عارف" أن "فارزانة" لم تكتفِ بمساعدة الأم في المطبخ، بل حرصت على تنظيف الغرف وغسل الملابس. افتقد البيت هذا البريق والنظافة الفائقة، منذ رحيل "رابية" و"نَزنين" عنه. كبرت الأم، ولم تعد في كامل صحتها ولياقتها، أما "هوما" فكانت تفضل القراءة على الأعمال المنزلية. لم يكن بوسع الأسرة دفع مبلغ خمسمئة روبية شهريًا لخادمة. تذكر "عارف" الليلة التي هرب فيها مع "فارزانة" من أعمال الشغب الطائفية في "جمالبورا". شعر ببعض الإثارة حين استعاد تشبثها المذعور به. بدأ يعجب بها، بعض الشيء. نجحت "فارزانة" في تشجيع "هوما" على مساعدتها في الأعمال المنزلية، مؤخرًا.

أكثر ما أعجبه في "فارزانة" هو رعايتها الفائقة بأبيه، وحرصها على طهو طعام قليل التوابل له، كما أوصى الطبيب. تتذكَّر أيضًا موعد كل دواء، وتجلبه له بنفسها. حين يستعدَّ "عارف" للذهاب إلى عمله صباحًا، كان يجد إفطاره معدًّا. في كل يوم، كانت تحضِّر له إفطارًا مختلفًا. بدأ "عارف" يفكِّر في "فارزانة"، تدريجيًا. ستكون زوجة جيدة. لم يعد ينظر إليها كابنة خاله، شبه الجاهلة، وإنما كشابَّةٍ ناضجةٍ بعينين واسعتين، مكحولتين، وشعر حريري فاحم، وصدر ممتلئ.

قبل أسبوع من زيارته للطبيب، للكشف الأخير، استدعى الأب "عارف" إلى حجرته. طلب منه الجلوس بجواره على السرير. تنحنح، ثم قال: - اسمع يا ولدي. أعرف أنك تحبَّ والدك وتحترمه بشدَّة. إذا طلبتُ منك شيئًا، فلن تخذلني.. أليس كذلك؟

- قل لي من فضلك ما تريدني أن أفعله.

- قبل أعوامٍ طويلةٍ، قطعتُ وعدًا للسيِّد "حكيم" بأن تكون "فارزانة" زوجة ابني.

أضاف بصوتٍ مرتعش:

- قل لي، هل ستساعدني على الوفاء بوعدي، وتقبل الزواج من "فارزانة"؟ كل ما عليك هو إبداء الموافقة، إذا كنتَ ترى أنها الزوجة المناسبة لك.

- اؤمرني يا أبي.

- هل أنت على استعداد حقًّا للزواج من "فارزانة"؟

- نعم يا بابا. سعادتك ورضاؤك أهمَّ ما لديَّ.

- هل أنت متأكِّد؟

- نعم، ولكن.. هناك ما يشغل بالي.

- ما الأمر؟

- راتبي لا يكفي لبدء أسرة، والصرف على احتياجات منزل.

- لا تقلق. حين تزوجتُ أمَّك، لم أكن قد بدأت العمل أصلًا. يدبِّر الله الأمر.

أسعدت موافقة "عارف" الأب، الذي غادر فراشه، ونادى زوجته ليبشِّرها بالخبر. مساءً، اتصل بالخال، ليبلِّغه.

في اليوم التالي، مباشرةً، حضر الخال إلى "باتنا". عندما اقترب منه "عارف" ليصافحه، دسَّ السيِّد "حكيم" في كفِّه ورقة خمسمئة روبية. قبلها "عارف" بتردد. علَّقت الأم، ضاحكة: - ها هو "عارف" يتلقَّى "الحلاوة" الأولى!

مدَّت "هوما" يدها تجاه خالها، وقالت مداعِبةً:

- وأين "حلاوتي" أنا؟

عانق الأب شقيق زوجته، بسعادة، وصاح بفرح:

- أسعد التهاني والتبريكات يا أخي.

شعر "عارف" بفرحٍ حقيقيٍ عند رؤيته ملامح أبيه المستبشِرة.
مساء اليوم التالي، حين دخل "عارف" البيت، استقبله شذى مألوف. رائحة بودرة التلك "كوتيكورا". أدرك أن "سوميترا" تزورهم.
في الداخل، كانت تجلس مع والدته، وفي يدها فنجان من الشاي. تجاهلها، وكأنه لم يلاحظ وجودها، ودخل إلى الشرفة مباشرةً. أمسك بصحيفة "تايمز أوف إنديا"، لكنه لم يستطع التركيز في القراءة. كان ذهنه مشتَّتًا. أدرك أن وجودها لا يزال يثير اضطرابه. بعد دقائق، كانت أمه تتقدَّمها إلى باب الشقة لتودِّعها. نظرت "سوميترا" إلى الشرفة. حيَّاها بطريقةٍ رسميةٍ، وردَّت عليه بابتسامة.
التفتت إلى أمه، وقالت له:
- أختي، أستأذنكِ في التأكد ما إذا كنت تركت التليفون المحمول في الحجرة أم لا؟
ما إن دخلت الأم الحجرة، حتى ألقت "سوميترا" رسالةً أمامه. تناولها مُسرعًا، وخبَّأها في جيبه. عادت الأم بعد لحظات تحمل تليفون "سوميترا".
لاحقًا، فضَّ الرسالة وقرأها.
عزيزي "عارف"
انزعجتُ بشدَّة لعدم اتصالك بي. لكنني قابلتُ والدتك وأختك بالصدفة، يوم أمس الأول، في "راجا بازار". عرفتُ منهما أن والدك مريض. فهمتُ حينها لماذا لم تتصل بي. أنا سعيدة لأنه يتماثل للشفاء.
لقد عدتُ إلى "باتنا"، كما تعلم. أعيش الآن في منزلنا الجديد في "تشيتراكار نَجَر".
أسعدُ بتذكر أوقاتنا معًا، وبخاصة الساعات التي أمضيناها في القطار. لديَّ اعتراف أخير: لم أشعر بالذنب هذه المرَّة، عندما سمحتُ لك بلمس جسدي وتقبيل يديَّ. أريدُ ذلك مرة أخرى. أريدُ أن ننقل علاقتنا إلى مستوى جديد. أرغبُ في التخلص من ادعاء النقاء والطهر والحبِّ البريء.
في تاريخ ٢٤، سأكون بمفردي في المنزل. سيسافر "راميش" لحضور دورة تدريبية في "حيدر آباد".
أعدك بأن نتذكَّر هذه الليلة، مدى الحياة. سأمنحك كل ما يتوقعه الرجل من زوجته، وستعطيني كل ما تنتظره المرأة من زوجها. سوف نحطِّم كل الحواجز التي تفصل بيننا. سيتلاشى أي خوف من الخطيئة. سوف تحدِّد هذه الليلة الدرب الذي سنسير عليه لاحقًا في حياتنا المقبلة. سأنتظرك.
المخلصة.. "سوميترا"
أحسَّ "عارف" بالصدمة. لم يتخيَّل أبدًا أن تكتب "سوميترا" شيئًا مثل هذا. تذكَّر كيف غضبت منه، قبل سنوات، حين انساقا وراء عواطفهما ورغباتهما.

أحسَّ أيضًا بإثارةٍ بالغةٍ، وبسعادةٍ خالصةٍ، وبتشوقٍ شديدٍ للقائها؛ لكنه سرعان ما استعاد عقله، إلى متى سيتمكن من تخبئة هذه العلاقة السِرَّية عن العالَم؟

"أخرِج نفسك من هذه العلاقة، وتزوَّج "فارزانة"، وإلا دمَّرتَ حياة "سوميترا" الزوجية، وحطَّمتَ حياتك تمامًا".

لم يتخيل مواصلة حياته بهذه العلاقة الآثمة. تذكر كلمات جدته: "في يوم القيامة، سيتحمل كل إنسان نتائج أفعاله، خيرًا كانت أم شَرًّا، وهي التي ستحدد ما إذا كان سيُلقى في جهنم، أو سينعم بالجنة".

أثَّرت نشأته في أسرةٍ مسلمةٍ من الطبقة الوسطى الدُنيا على خياراته، دومًا. لطالما ذكَّر نفسه بأن عليه عدم الانصياع إلى وساوس الشيطان، أو الاستسلام لنفسه الأمَّارة بالسوء.

سمع "عارف" أذان العشاء من المسجد القديم لـ"سامانبورا"، تبعه أذانٌ آخر من مسجد مساكن مركز الأبحاث الطبية. قرَّر أن يصلي في الأخير. كان يشعر بارتباكٍ واضطراب وحيرة. مزق رسالة "سوميترا"، وألقى بالقصاصات في مصرف المجاري القريب. حملتها المياه القذرة معها، لكن الكلمات ظلت محفورةً داخل رأسه.

استيقظ "عارف" فجر اليوم التالي، وتوجه للصلاة في المسجد القديم. في طريق عودته للمنزل، بدأ في وضع خطة لحياته المستقبلية. على "سوميترا" أن تغادر حياته، للأبد. "فارزانة" هي قدره ونصيبه الآن. سينتظر نتيجة الامتحان، كما نصحه أبوه. اتفق معه أنه إذا فشل هذه المرة أيضًا، فسوف يقوم بافتتاح معهد تدريب خاص به في "عنايت نَجَر".

سيكون الفراق عن "سوميترا" أليمًا، لكنه كان على استعداد تام لتحمل ذلك الألم.

21

هذه المرَّة أيضًا، لم ينجح "عارف" في الامتحان.

كان يجلس في الشرفة، ممسكًا بالصحيفة. أعاد قراءة أرقام جلوس الناجحين مرَّات عديدة، لكن رقمه لم يكن بينها. وضع الصحيفة بجواره، ومدَّ ساقيه أمامه، مغمضًا عينيه. تلاشى كل التفاؤل الذي لازمه خلال الأشهر الستَّة الماضية، في لحظة، كأنه قطرة ندى تحت أشعة شمس صيفية. ومن جديد، أحس بخواءٍ في قلبه. كان وحيدًا وحزينًا.

نادته "هوما". فتح عينيه وابتسم لها بأسى. كانت تحمل له فنجانًا من الشاي. أخذه منها، وتناول رشفات قليلة. تناول الجريدة مرَّة أخرى، وتصفَّحها دون اهتمام. شاهد في الصفحة الأخيرة نتائج امتحانٍ آخر.

نتيجة امتحان مترجمي اللغة الأُردية، لولاية "بيهار"

(تُنشَر النتيجة بموافقة المحكمة العُليا الموقَّرة) أسفل هذا العنوان، كُتِبَت أسماء وأرقام جلوس الناجحين. تسارع نبضه وهو يمرر سبَّابته على قوائم الأسماء. "عائشة بروين"، "عبد الحميد"، "عبد الحق أنصاري"، "عادل صِدِّيقي"، "عارف خان".. ها هو اسمه! في القائمة الخامسة من الناجحين. انفرجت شفتاه عن ابتسامة. حاول أن يتكلم، لكنه أخذ يسعل بشدَّة. كانت "هوما" بجانبه، تجمع الثياب عن حبل الغسيل. نظرت إليه بدهشة، ثم هرعت لتحضر له كوبًا من الماء.

قبل خمس سنوات، وفي عشية الانتخابات تحديدًا، أُعلِن عن وظيفةٍ جديدةٍ هي مترجمي اللغة الأُردية. كان ذلك جزءًا من خطة رئيس الوزراء لاستقطاب المسلمين في صف الحكومة، أو ما عُرِف بالـMY، اختصارًا، في إشارةٍ للمسلمين المنتمين لفئة الـ"ياداف"، الذين تعود أصولهم إلى المزارعين والرعاة.

بعد الانفصال، أصبحت الأُردية هي لغة مسلمي شمال الهند. لذلك، تنافس الكثير من الشُبَّان المسلمين، من خرِّيجي الجامعات، العاطلين عن العمل، على التقدم لهذه الوظيفة.

كان "عارف" قد أدَّى هذا الامتحان، منذ فترة طويلة، تحت ضغطٍ من أبيه. لكن الحكومة امتنعت عن إعلان النتيجة، واضطر بعض المتقدمين لرفع قضية في المحكمة العُليا لـ"باتنا"، مطالبين بمعرفة نتائجهم. وأخيرًا، وبعد مرور عدَّة أعوام، قرَّرت المحكمة العُليا للهند إعلانها.

قبل فترة، لم يكن "عارف" سيرضى بوظيفةٍ أقل من مأمور، لكن الظروف تغيَّرت. حتى هذه الوظيفة البسيطة باتت نعمة وهِبة. كم تتغيَّر الأحلام بمرور الزمن وتبدل الظروف!

تذكر “عارف” قصيدةً نظمها قبل سنوات:
حلم قابل للتحقق
أبحرتُ في مركب الذكريات
في مياه محيط الخيال
بحثًا عن أحلامي
التي غرقت قبل سنوات
**
غيوم الشَكِّ السوداء
رياحُ اليأس المخيفة
أمواجُ الخوف العاتية
منعتني جميعها من التقدم
**
يوشك مجداف الشجاعة
على الإفلات من يدي
لكنني ألمح
منارة الأمل
**
إنه شاطئ جزيرة
جزيرةُ الأماني والرغبات
هناك غابة
بأشجارٍ كثيفةٍ هي الخيال
**
على هذه الجزيرة الغريبة
قد لا أستعيد أحلامي
لكنني سأجد حلمًا آخر حتمًا
حلمٌ صغيرٌ قابلٌ للتحقق
عثر “عارف” أخيرًا على حلمٍ ضئيلٍ قابلٍ للتحقق. شارك أفراد أسرته الخبر السعيد.
احتضنه الأب، فيما توجهت الأم من فورها لتصلي صلاة الشُكر. الغريب هو ضحكات “هوما” السعيدة، التي لم يسمعها أحد منذ سنوات. انتقل الخبر إلى “عنايت نَجَر”، فاتصل السيد “حكيم” وزوجته للتهنئة. طبخت “فارزانة” ألذ برياني دجاج على الإطلاق. هنَّأتْ “عارف”، الذي لاحظ برودها وانعدام حماسها.
قالت الأم وهي تضع المزيد من أرز البرياني في طبقها: - لـ”فارزانة” يدان ساحرتان ماهرتان؛ وهي تميمة الحظ لـ”عارف”، فبعد أسبوعين فقط من خطبتهما، تعيَّن في وظيفةٍ حكومية.

علّق الأب مبتسمًا:
- الله كريم.
تمنَّى "عارف" أن يتشارك الخبر السعيد مع "سوميترا"، لكنه تخلَّص من هذا الخاطر، وأجبر نفسه على التفكير في "فارزانة" وحدها.
قرَّر أن يكتب خطابًا إلى "سوميترا"، صباح اليوم التالي، وأن يأخذه بنفسه إلى عنوانها.
عزيزتي "سوميترا"
سوف تتعجبين لاستلام هذا الخطاب. صدِّقيني، أنا نفسي متعجِّب من كتابتي له. لقد جلبت لي هذه العلاقة الكثير من الأسى. وسوف تدمَّر أسرتكِ إذا ما استمرَّتْ. فكِّري فيما سيحدث، إذا عرف ابنكِ وابنتكِ بها. ماذا سيكون ردُّ فعلهما؟ ماذا عن زوجكِ؟ سوف يموت من الصدمة، لا قدَّر الله. أعلم أنه يحبِّكِ جدًّا.
قررتُ ألَّا أقابلكِ يوم ٢٤. أعرف أن فكرة زواجي من "فارزانة"، ابنة خالي، ستزعجكِ. لم نحدِّد التاريخ بعد. سأتزوجها كي أسعد والديَّ.
أودُّ إبلاغكِ بخبرٍ سيسعدكِ، وهو حصولي على وظيفة مترجم للغة الأردية، في حكومة "بيهار". سوف أسافر إلى "باجالبور" خلال بضعة أيَّام. بعدها، قد لا نلتقي ثانيةً، أبدًا. افتراقنا في مصلحتنا.
سوف تنتقل الأسرة بأكملها إلى "جمالبورا".
اشتريتُ لكِ هديتين صغيرتين. أرجو أن تنالا إعجابكِ. خلخال، لن يتاح لي سماع رنينه، للأسف الشديد؛ وحلق لأنفكِ. سيناسبكِ الأخير تمامًا.
أعتذر لكِ بشدَّة إن كان خطابي هذا قد أزعجكِ. أنا مدينٌ لكِ بالكثير. لا أظن أن بوسعي ردَّ هذا الدين، أبدًا.
سوف أشتاق إليكِ.
المخلص.. "عارف"
ذهب "عارف" إلى مركز الشرطة العسكرية لولاية "بيهار"، حاملًا شهاداته المختلفة، ليحصل على تصديقٍ عليها من أحد ضبَّاط المركز. عليه أن يأخذها معه، عند استلام وظيفته في "باجالبور". عند عودته، كانت "فارزانة" في المنزل، بمفردها. أخبرته أن والده ذهب للطبيب، بصحبة عمتها و"هوما". كان ذلك هو الكشف الأخير، قبل رحيله إلى "جمالبورا" بعد أيام قليلة.
في الأسبوع الماضي، تساءل الأب عن سبب بقائهم داخل هذا المسكن الضيِّق، الأقرب لجحر الفئران، بينما يمتلكون منزلًا فسيحًا من طابقين، في "جمالبورا"؟ قال بأن انتقالهم إليه سيوفِّر عليهم الألفين روبية، التي يدفعونها شهريًا كإيجارٍ هنا. اتفقت الأسرة على تزويج "هوما". قرر الأب بيع جزء من أرضه الزراعية، ليتمكن من دفع مهر ابنته الصغرى، التي سيبحث عن عريسٍ مناسبٍ لها، فور استقرارهم في "جمالبورا". حتى ذلك الوقت، سيكون "عارف" قد تمكَّن من ادِّخار مبلغ معقول يساعدهم به.

وقف "عارف" في الشرفة. سوف يرحل عن "باتنا" قريبًا، المدينة التي أمضى بها آخر 18 عامًا من حياته. أحسَّ "عارف" بالألم لافتراقه عن مدينته. اعتصره الألم لاضطراره للابتعاد عن "سوميترا". فكَّر في جدته وفي "ذاكر"، فتعاظم حزنه. حاول الابتعاد بأفكاره عن ذكريات الماضي، والتركيز على زواجه و"فارزانة".

جلست "فارزانة" في الحجرة، تقرأ عددًا قديمًا من مجلة "جريه شوبها". انزلق وشاحها، كاشفًا عن جانبٍ من نهديها الممتلئين، من فتحة ثوبها. لأول مرة في حياته، أحسَّ باشتهاءٍ تجاهها. حين رفعت رأسها، اضطرب "عارف"، وشعر بالارتباك، محوِّلًا نظراته بعيدًا عنها.

تذكَّر أن عليه شراء بنطال وقميص جديدين. قال لها: - سأذهب إلى السوق. هل تحتاجين شيئًا للمطبخ؟

أجابته، دون أن تنظر إليه:

- لا. شكرًا يا أخي.

قال لنفسه: "هذه البنت البلهاء لا تزال تخاطبني بأخي!".

سار في الشارع الخلفي، وصولًا إلى "مدرسة رود"، ومن هناك مشى إلى مساكن "ماجاد فيكرامشيلا"، حيث اكتشف فجأة غياب محفظة نقوده. قال لنفسه بأنه نسيها في البيت، دون شك. عاد أدراجه. كان باب الشقة مفتوحًا. لم يرَ أحدًا في الشرفة. دخل الحجرة، فلمح المحفظة فوق السرير.

سمع صوت بكاء في الحجرة الثانية، متبوعًا بحديثٍ هامس. كانت "فارزانة" تتحدَّث إلى أحد على التليفون المحمول. قالت: - أنتِ لا تفهمين الوضع. الجميع في منتهى السعادة. أعجز عن مصارحتهم بعدم رغبتي في الزواج من "عارف". إنه ليس أكثر من أخ، بالنسبة لي. كيف أخبرهم ذلك؟

صمتت "فارزانة" وأنصتت للإنسانة التي تحادثها، ثم قالت: - حين أخبرته بذلك، قال بأنه يحترم "عارف" كثيرًا، ولن يستطيع الوقوف في طريق سعادته.

انخرطت "فارزانة" في البكاء، ثم استطردت:

- سأتزوج "عارف". ليس لديَّ خيار آخر. سأعيش بقية حياتي في تعاسة.

أحسَّ "عارف" بأن صاعقة مفاجئة ضربته بقوَّة. دخل الشرفة، وقد غمره الاضطراب. جلس واضعًا رأسه بين يديه، ثم نظر إلى السماء، متسائلًا: "لماذا يحدث هذا لي؟ كلَّما حاولتُ إضفاء الهدوء والسلام على حياتي، واجهتُ المصاعب والمشكلات والعقبات".

لطالما اعتقد "عارف" بأن "فارزانة" تكن له حبًّا عظيمًا، في السِر. ظنَّ أنه يصنع بها معروفًا، بزواجه منها. تساءل في حيرة عمَّن يكون هذا الحبيب الذي تبكي من أجله.

بدأ الظلام يغطِّي السماء. انتشر البعوض حوله، مصدرًا أزيزه المزعج. غادر "عارف" المنزل. سار لساعاتٍ طويلةٍ، دون هدف. وجد نفسه أخيرًا

أمام شجرة "البيبال". شجرة التين المقدَّسة، التي شهدت أحلامه، ووقوعه في غرام "سوميترا". الشجرة التي شهدت فشله في حياته. قبل نحو ألفين وخمسمائة عام، وتحت شجرة تين مقدَّسة، تلقَّى "سِدهارته جوتاما" النور. تُرى هل سيجد "عارف" الحلول التي يبحث عنها لمشكلات حياته المتراكمة، تحت ظلال هذه الشجرة؟ ابتسم في أسى، شاعرًا بالخواء.

عند عودته للمنزل، أحسَّ "عارف" بالارتياح حين علم أن الطبيب قال للأب بأنه شُفيَ تمامًا من مرضه.

ليس هناك قطار بين "باتنا" و"عنايت نَجَر"، أمَّا الرحلة بالحافلة فمرهِقة للغاية. صباح اليوم التالي، ركبت العائلة في توكتوك إلى مدينة "هاجيبور" المجاورة، حيث ستستقل القطار إلى "عنايت نَجَر". كانت متعلقات الأسرة قد سبقتهم في شاحنةٍ صغيرة. داخل التوكتوك، جلس الأب بجوار السائق في المقدمة، فيما تجاورت الأم و"هوما" و"فارزانة"، في الخلف. من عينيَّ "فارزانة" المنتفختين، أدرك "عارف" أنها كانت تبكي.

بدا الأب راضيًا. ناول التليفون المحمول إلى "عارف"، الذي قال معترضًا:

- أظن يا بابا أن وجود التليفون في البيت أفضل من وجوده معي. أنا لا أحتاجه. يمكنكم الاتصال بي على تليفون المكتب.

أجابه الأب مبتسمًا:

- لكن ليس هناك شبكة اتصالات في "جمالبورا". ما جدوى وجوده معنا؟ ثم إنها المرة الأولى التي تبتعد فيها عنَّا. انتبه لنفسك جيدًا. اتصل بنا فور وصولك "باجالبور". اتصل على رقم خالك "حكيم". سنكون في "عنايت نَجَر" خلال الأربعة أو الخمسة أيَّام القادمة.

- حسنًا.

قالت الأم:

- صنعتُ لك بعض الحلويات والأطعمة الخفيفة.

وقف صاحب البيت "شبير علي"، مهندس الريِّ المتقاعد، ليودِّعهم، بلطفه المعهود. جاءهم أيضًا "جميل خان"، الزميل السابق للأب، ليسلِّم عليهم قبل رحيلهم.

قال "شبير علي"، وهو يصافح الأب:

- أرجو أن تسامحني يا أخي على أيِّ تقصير أو إزعاج بدا منِّي نحوكم، خلال إقامتكم.

- يا حضرة المهندس، لطالما كنتَ لطيفًا ووَدودًا معنا، وسوف نتذكَّر على الدوام الأوقات الطيبة التي أمضيناها في بيتكم.

- أشكرك، شكرًا جزيلًا.

- سوف يغادر ابني "عارف" مساء الغد لمقر وظيفته الجديدة في "باجالبور". سيعيد إليك مفاتيح الشقة قبل رحيله.

- لا بأس يا أخي.

نظر الأب إلى ساعته، معلنًا:
- علينا المغادرة الآن، إذ ينطلق القطار تمام الحادية عشرة، وأنتم تعرفون الزحام فوق جسر "غاندي سيتو".
تصافح "شبير علي" و"جميل خان" مرة أخرى. ردَّد الرجلان: - في أمان الله. حفظكم الله.
انطلق التوكتوك، مبتعدًا بركابه. وقف "عارف" في الطريق، متابعًا اختفاء التوكتوك في نهاية الشارع. كان كمن يبحث عن شيءٍ فُقِد منه. هل كان يفتش عن سعادته الضائعة؟ لطمته موجة من الغَم الشديد.
عاد إلى غرفته، التي غلفها هدوء شديد. بدأ يضع متعلقاته في حقيبة سفر. أمسك بدفتر مذكِّرات قديم. سقطت من بين صفحاته صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود، تجمعه بشقيقه، وهما في العاشرة والتاسعة. التقطها لهما العم "نازو"، في العاشر من شهر محرَّم. يتذكَّر تفاصيل ذلك اليوم، ويتذكَّر أنه كان يرتدي طقمًا من قميصٍ طويلٍ وسروال، باللون الأحمر، فيما ارتدى "ذاكر" طقمًا مماثلًا من اللون الأخضر.
في ذلك اليوم، أمسك "عارف" يد شقيقه، وتوجها معًا إلى ما يُعرَف بـ"كربلاء"، وهي أرض رحبة على أطراف القرية، تقام فيها مجالس التعزية أو "الحسينيات". يجتمع فيها سُكَّان القرى الأربعة، لإحياء ذكرى استشهاد "الحسين". في ذلك النهار، كذب على أمِّه وأخبرها بأنه و"ذاكر" سيذهبان لبيت عمِّهما. كانا يعلمان أنها لن تسمح لهما بالذهاب إلى "كربلاء" بمفردهما. عندما وصلا، كان المكان مزدحمًا. أمسك "عارف" بيد أخيه، ووقفا بعيدًا بعض الشيء. شاهدا بعض الأشخاص الذين يحملون فؤوسًا وحِرابًا وسيوفًا. ترنَّم الناس بمرثيةٍ لـ"الحسين"، فيما راح البعض يقاطعهم بين الحين والآخر: "الله أكبر"، "يا حسين.. يا حسين".
اندلعت أعمالُ شغب بين سُكَّان "جمالبورا" وسُكَّان قرية "شامشاد نَجَر" المجاورة. اندفع الطرفان في رجم بعضهما بالحجارة وقوالب الطوب. عمَّت الفوضى، وتراكض الناس في جميع الاتجاهات. لجأ "عارف" إلى بستان مانجو قريب، وعقب وصوله أدرك أن "ذاكر" ليس معه. راح ينادي اسمه في فزع، بصوتٍ مرتفع. لم يتلقَّ إجابة من أخيه. فتَّش عنه، لكنه لم يعثر عليه.
بعد ساعة، وصلت الشُرطة، وقام رجالها بإبعاد المشاركين في الشغب. وقف "عارف" في أحد أركان "كربلاء"، يبكي بحرقة، ويفتِّش بعينيه عن شقيقه. وبَّخه شرطي، وأمره بالعودة إلى المنزل. استدار مبتعدًا، وهو لا يزال يبكي، ويردِّد بعض الآيات القرآنية. عاهد نفسه أن يصلي صلاة شُكر إذا عاد شقيقه. في أقل من دقيقة، لمح "ذاكر" وهو يخرج من بين أعواد الخيزران في البستان. أمسك بذراعه، وهو يبكي بصوتٍ مرتفع، ويحمد الله.

تذكّر "عارف" تلك اللحظة، التي عانق فيها شقيقه بلهفة، وهو مستمر في البكاء، دون أن يقول له شيئًا. سأله "ذاكر" بدهشةٍ وحيرة: - ما الأمر؟ ماذا حدث؟

دعا "عارف" الله أن يعيد إليه شقيقه، كما فعل في ذلك النهار البعيد. تمنَّى أن يعانقه، ثانيةً، وأن يبكي بين ذراعيه طويلًا.

مساء اليوم التالي، قبيل توجه "عارف" إلى "باجالبور"، ضربت "باتنا" ريحٌ قوية. ارتفع التراب من الأرصفة غير الممهدة، في المدينة، وعلق في الجو. ثم هطل المطر، لوقتٍ قصير، فبدت السماء نظيفة. حين خرج "عارف" من المنزل، للذهاب إلى محطة القطار، كان الجو لطيفًا، والنسمات باردة. لكن ذلك لم يبهجه. لازمَ الحزن ملامحه.

فكر "عارف" في شقيقه مرة أخرى. ذلك الوجه المستدير، بعظام الفكين القوية، البارزة. الخصلات الملتفة التي تمس الكتفين العريضتين. تنهَّد "عارف" في أسى، وانسابت دموعه بغزارة. مسح دموعه بمنديلٍ أبيض، ثم ذهب إلى صاحب البيت ليعيد له مفاتيح الشقَّة.

كان الرجل في المسجد، يؤدِّي صلاة العشاء. ناول "عارف" المفاتيح لابنه الأصغر، الذي كان يقف مع عددٍ من الفتية، على ناصية الطريق. أخذ منه المفاتيح، ووضعها في جيبه، وهو يواصل الحديث مع رفاقه، متجاهلًا "عارف".

في طريقه لـ"راجا بازار"، لركوب توكتوك إلى المحطة، توقف "عارف" قريبًا من مجمَّع "ماجاد فيكرامشيلا" السكني، حيث نُصِبَت خيمة احتفالية. لمع مصباحان كبيران في طرفيَّ الخيمة من الداخل. احتل حضورٌ من الجنسين أكثر من مائة مقعد بلاستيكي، أمام مسرحٍ متنقِّل، غطِّيت أرضيته بسجَّادٍ أخضر. وقف فوق خشبته الدكتور "عبد الحي"، أحد أشهر جرَّاحي "باتنا"، حاملًا ميكروفون في يده. قال: - اجتمعنا اليوم لتكريم "شهلا خان" التي منحتنا جميعًا شعورًا بالفخر..

يعلم "عارف" أن الحفل من تنظيم مسلمي "سامانبورا" و"راجا بازار"، لتكريم "شهلا خان" ابنة الحي، التي حققت مركزًا متقدمًا بين الناجحين في امتحان الخدمة المدنية. فتاةٌ مسلمةٌ من المتفوقين دراسيًا. كانت "شهلا" تجلس على المسرح بملابس زرقاء فيروزية، ووجهها يشع بالثقة بالنفس، والإحساس بأنها أدَّت إنجازًا عظيمًا. فكَّر "عارف" في فشله المتكرر، وشعر بألمٍ يخترق قلبه. ماذا لو كنتُ مكانها؟ عجز عن البقاء في المكان أكثر من ذلك. أحسَّ بأن كل كلمة انطلقت في الميكروفون والسمَّاعات الكبيرة كانت تسخر منه، ومن فشله.

22

نظر "عارف" إلى انعكاس صورته على مرآة حمَّام محطَّة قطار "باتنا". رأى شخصًا غريبًا، لا يعرفه، يحدِّق إليه بعينين منتفختين، من أثر البكاء. رجلٌ بدأ يفقد كثافة شعره، وبدا أكبر عُمرًا ممَّا هو عليه حقًّا. تمعَّن في ملابسه وأدرك تفاهتها. بنطال چينز قديم، وقميص أزرق، بكُمَّين طويلين.

واصل التحديق في صورته، على سطح المرآة، بوجهٍ يخلو من أيِّ تعبير.

عاد إلى الرصيف رقم ١. وضع حقيبته على الأرض، وجلس بجانبها على مقعد معدني، يعلوه بعض الغبار. أسند ظهره إلى المقعد، مغمضًا عينيه. رأى نفسه صبيًا في الثالثة عشرة، في بيت العائلة، في "جمالبورا". كان يجلس قريبًا من الحافة المقوسة للشرفة، ناظرًا إلى جدته التي تجلس على مقعدٍ خشبيٍ، وتتأهب لقَصِّ إحدى حكاياتها الممتعة عليه وشقيقه "ذاكر"، الذي وقف متحمسًا لسماع الأحداث.

فجأة، سمع صوتًا مرتفعًا، أثار الفزع في نفسه.

انطفأت جميع أضواء المحطة. تحسس حقيبته في الظلام الدامس. في هذه المدينة، لا يمكنك توقُّع متى سيخطف اللصوص متعلقاتك.

كان لا يزال يشعر باضطرابٍ بالغٍ، جرَّاء أحداث اليومين الماضيين.

حديثُ "فارزانة" على التليفون أثار حيرته الشديدة. دعوة "سوميترا" له لا تزال تثيره وتجذبه. آمال والده جعلته يرضى بأيِّ وظيفة في طريقه.

أحسَّ "عارف" بأن عقله بات في خفة الريشة.

حطَّت حشرة مضيئة على حقيبته. ثم طارت نحو كتفه، وكأنها تمنحه مواساتها وتعاطفها. أحسَّ بتحسُّنٍ للحظة، رغم سخرية الحياة ومجرياتها منه. عادت الكهرباء، وأضيئت أنوار المحطَّة من جديد. فقدت الحشرة ضوؤها، وطارت مبتعدة عنه.

استلقى على المقعد الكبير، فاردًا ساقيه. وضع حقيبته أسفل رأسه. استسلم لنعاسٍ خفيفٍ، تحت تأثير النسمات الباردة.

كانت "سوميترا" عارية تمامًا، إلا من سلسلة الزواج الذهبية، حول عنقها، والكحل في عينيها، واللون الأحمر القاني فوق شفتيها، وخيطٍ أسود سميك، يحيط بخصرها. سارت في حقول أرز، تغمرها مياه وفيرة، مخلِّفة آثار قدميها في الطين الليِّن للحقل.

ظهر رجل عاري الصدر، يلف نصفه الأسفل بقطعة قماش حمراء، ويضع قناعًا على وجهه. أمسك يد "سوميترا"، وجرَّها نحوه بقوَّة. مدَّت يدها الأخرى، وهي تستغيث بـ"عارف". ركض "عارف" خلفهما، محاولًا إيقاف

الرجل المقنَّع، لكن الأخير كان بالغ القوَّة. دفع "عارف" وأسقطه أرضًا. أحسَّ "عارف" بآلامٍ مبرحةٍ في رأسه.

فتح عينيه، ووجد نفسه على الأرض الإسمنتية للمحطَّة، شاعرًا بالدوار. أمسك رأسه، وجلس على حافَّة المقعد، متسائلًا عن نوعية هذا الحلم.

هل هو من الأحلام المقدَّسة أو "الرحمانية"؟

هل هو من الأحلام الشيطانية؟

هل هو من الأحلام الذهنية والنفسية؟

أيًّا ما كان نوع هذا الحلم، فإن نتيجته الوحيدة هي اشتهاءٌ عاصفٌ لـ"سوميترا". أراد معانقتها بقوَّة، وتمزيق ملابسها عن جسدها، وإلقائها فوق الفراش، وممارسة الحب معها إلى أن يشعر كلاهما بالإنهاك.

هل أعود إلى "سوميترا"؟ تذكَّر بيتًا شِعريًا لـ"غالب"، عن صراع رجل بين الرذيلة والفضيلة.

الإيمان يكبح جماحي

الإغواءات تجذبني

الكعبة المقدَّسة ورائي

والأوثان أمامي

"هل أخبر أبي بعدم رغبتي في الزواج؟ أم هل أصارحه بأنني لا أريد الزواج من "فارزانة" لأنها لا تريد الاقتران بي؟ أم هل أتزوجها متظاهرًا بأنني لا أعرف شيئًا؟".

الخيارات الثلاثة صعبة جدًا، لكن عليه تنفيذ أحدها. لا يملك رفاهية اختيار "لا شيء ممَّا سبق"، كما يُكتَب في أوراق الامتحانات.

تنازعته حيرة بالغة. ضغط على مفاصل أصابعه. وقف، فجأة، حاملًا حقيبته، وغادر المحطَّة. كان الهواء في الخارج باردًا. المدينة مظلمة، عدا بعض الضوء المنبعث من أعمدة الإنارة.

نظر إلى شاشة التليفون المحمول. أشارت الساعة إلى الثانية عشرة إلا ربع. شعر برغبةٍ في الاتصال بـ"سوميترا"، لكنه لم يفعل. تجاوز نموذج القطار القديم، الذي يقع أمام المحطة، ثم سار بجوار معبد "هانومان". عَبَر الطريق للوصول إلى موقف التوكتوك. عثر على ثلاثة متجاورين، أسفل لافتة ضخمة تحمل صورة رئيس الوزراء المنتخب الجديد لـ"بيهار"، "نيتيش كومار". ركب أول توكتوك.

قال السائق:

- تسعون روبية.

وافق "عارف"، رغم علمه أن الأجرة مبالغ فيها. لم يكن في مزاجٍ للفصال وإضاعة الوقت.

بغتةً، خطرت "فارزانة" بباله. أحسَّ بغضبٍ عارمٍ يشتعل داخله. فكَّر في "سوميترا"، بدلًا منها. تذكَّر صورتها حين رآها للمرَّة الأولى. تذكَّر الليلة التي

أمضياها معًا داخل القطار. سرعان ما وجد نفسه داخل دوَّامة عنيفة من الحبِّ والشهوة والأشواق. أغمض عينيه، فرأى "سوميترا" في ملابس سوداء، ومجوهرات أنيقة، وهي تلقي عليه قصائد شاعرها المفضَّل "غالب".

همس لنفسه باسمها، ثم طلب من السائق أن يُسرِع.

توقف السائق أخيرًا في أحد شوارع "تشيتراكار نَجَر". رأى "عارف" أن الطريق المؤدِّي إلى منزل "سوميترا" تغطِّيه مياه كثيرة. دفع الأجرة للسائق، وأخرج بطارية إضاءة صغيرة من جيبه، وسار بحذر على الحجارة الكبيرة التي وضعها الناس للمرور عليها، وتجنَّب المياه.

حين وصل منزل "سوميترا"، دفع "عارف" البوَّابة الحديدية الخارجية، بهدوء. وقف لدقائق، دون حركة، ثم تأمَّل المنزل المبني حديثًا.

انساب ضوءٌ خفيفٌ من النافذة نصف المفتوحة في إحدى الحجرات. سار نحوها، ونظر داخلها، متلصصًا. هناك، رقد "راميش" على السرير، وقد أحاطت بإحدى ساقيه جبيرة كبيرة من الجبس. غطت رأسه ضمادات من الشاش الأبيض، ببقعٍ بنِّية من المطهرات. جلست "سوميترا" بجواره، ممسكةً بيديه، وهي تبكي. قالت له:

- أنت كل شيء بالنسبة لي يا "راميش".

قال "راميش" بصوتٍ واهنٍ:

- لا تبكي، أرجوكِ يا "سوميترا".

وضعتْ رأسها على صدره.

"ها أنا أفقد "سوميترا" أيضًا". لقد استعاد "راميش" مشاعرها، كما يحقُّ له. أحسَّ "عارف" بموجةٍ جديدةٍ من الحزن تعصف به. استدار، استعدادًا للرحيل.

بدأ المطر في الهطول. خرج من بوَّابة المنزل، حاملًا حقيبة السفر الثقيلة. أراد العودة للمحطَّة، لكن الشارع الهادئ كان يخلو من الدرَّاجات وعربات التوكتوك. قرر التوجه إلى "مستعمرة البنك"، ومن هناك إلى "نايا مور"، حيث يمكنه ركوب توكتوك. سار ببطءٍ وحذر، متجنبًا الحُفَر وبرك المياه الصغيرة، معتمدًا على النور الضئيل المنبعث من بطارية الإضاءة الصغيرة.

لمح شجرة "البيبال"، وقد سقطت على جانب الطريق، وارتفعت جذورها في الهواء. وجَّه إليها نور بطَّاريته، وتأمَّلها في حزنٍ وأسى. ماتت الشجرة. أحسَّ بأنه فقد صديقًا عزيزًا. لقد شهدتْ على حبِّه لـ"سوميترا". وها هي ترحل، مع رحيل كل شيء آخر في حياته.

رنَّ التليفون المحمول. لاحظ توقف المطر. كان المتصل والده.

- نعم يا با..

قاطعه والده، صائحًا:

- "ذاكر" على قيد الحياة!

كان "صدقات"، رفيق "عارف" القديم، قد أخبرهم بأنه لمح "ذاكر" في محطة قطار "كرلا"، في "مومباي". رآه يركب قطار "كرلا - باتنا إكسبريس"، مرتديًا قميصًا طويلًا أبيض، وبنطال من الچينز.

- إذًا الخطاب الذي تلقيناه منذ سنوات كان صحيحًا وصادقًا؟

- نعم يا بُني، نعم. أين أنت الآن؟

- على أبواب محطَّة "باتنا".

- سارع بالدخول، وانظر إذا كان القطار الذي يركبه قد وصل. اتصل بي، مباشرةً.

- حسنًا.

علَّق "عارف" حقيبته الكبيرة على كتفه، وانطلق راكضًا.

أحسَّ بأنه يطير.

جلس "عارف" على أحد المقاعد الباردة، ناظرًا إلى الساعة الإلكترونية السوداء، المعلَّقة من السقف الحديدي. أشارت أرقامها الحمراء إلى ٢:٤٣. غادر مكانه إلى كشك الاستعلامات. طرق زجاج شبَّاكه. كان الموظف نائمًا، وقد أسند رأسه إلى الطاولة أمامه، فاغرًا فمه. طرق الزجاج مرَّة أخرى، فاستيقظ الرجل فَزِعًا. فرك عينيه براحة يده، وتناول زجاجة ماء بيده الأخرى. شرب رشفات قليلة، مسدِّدًا نظرات غاضبة لـ"عارف". قال له:

- ألم أخبرك يا سيدي بأننا سنعلن عن موعد وصول القطار، فور تلقِّي معلومات عنه؟

عاد "عارف" إلى مقعده، دون كلمة، وقد أثقل القلق خطواته. تابع بعينيه عاملين من المحطَّة يدفعان أمامهما عربة كبيرة مليئة بالطرود.

تزايد القلق داخله. دعا ربَّه بتضرُّع: "أعِد إليَّ أخي يا الله، ولن أطلب منك شيئًا آخر يا رب".

تمطَّى وتمدَّد على المقعد ثانيةً، متوسدًا حقيبته. أغمض عينيه، مستسلمًا للنعاس. رأى كابوسًا أزعجه: جثمان شقيقه ملقى على أرضية القطار، وقد اخترقته رصاصات كثيرة. قفز عن المقعد، في خوف، مناديًا اسم شقيقه. أدرك أين هو. عاد للجلوس، ممسكًا رأسه بين يديه.

في الرابعة إلا ربع فجرًا، أعلن صوتٌ في مكبِّرات المحطَّة أن خَطَّ "موجالساراي"، قد عاد للعمل، وأن قطار "باتنا - كرلا إكسبريس" سيكون أول الواصلين للمحطة. وقف "عارف" على حافَّة الرصيف، محاولًا السيطرة على دموعه. نظر باتجاه الغرب، جهة دخول القطارات للمحطَّة. لمح تحوَّل ضوء الإشارة إلى الأخضر، من بعيد. كانت السماء كئيبة، دون نجمة واحدة. راح يتلو سورة "الإخلاص".

تتابعت مشاعر الأمل واليأس بداخله. هل "ذاكر" في القطار القادم؟ أحسَّ "عارف" بمزيجٍ من الترقُّب والفرح والخوف. شاهد "عارف" أنوار

مقدِّمة القطار، وسمع صفيره. تسارعت دقّات قلبه، وتسارع معها إيقاع تلاوته المتكررة لآيات "الإخلاص".

تباطأ القطار، عند دخوله المحطَّة، ثم توقَّف أخيرًا. غادره خليطٌ متنافرٌ من الركَّاب. تأمَّل "عارف" كل وجه أمامه. لم يكن أيًّا منهم وجه "ذاكر". سرعان ما خفَّت الحركة على الرصيف، ولم يبقَ عليه أحد. عاد كما كان قبل وصول القطار.

ربَّما غادر "ذاكر" الرصيف من البوَّابة الثانية. ربَّما كان الآن يستعد لركوب توكتوك إلى "سامانبورا". سارع "عارف" بالتوجه إلى الموقف.

عاد إلى المحطة، عقب ساعة، شاعرًا بالإحباط. لكنه، في الوقت ذاته، لم يستطع التخلص من إحساسه بالأمل بالكامل. يشعر بأن شقيقه في مكانٍ قريبٍ. جالَ في المحطة، باحثًا عنه.

ربما لم يميزه "صدقات". رأى شخصًا آخر، وظن أنه "ذاكر". أحس بضعفٍ في ساقيه. وضع حقيبته على الأرض، وجلس فوقها. لاح الفجر في السماء.

فتش المحطة بعينيه، من جديد. أمسك بالتليفون المحمول ليتصل بأبيه، حين لمح شخصًا ملتحيًا يغسل وجهه بالماء، من صنبور شُرب قريب. بدا شبيهًا بأخيه.

هل يمكن أن يكون "ذاكر"؟ تصارع الأمل واليأس بداخله، ثانيةً. أحسَّ بنشاطٍ مفاجئ. سار نحو الشخص الملتحي بخطواتٍ سريعة. كاد أن يتعثَّر في أجساد المتسولين النائمين على الرصيف.

وقف أمامه، وقد حالت الدموع الغزيرة دون رؤيته بوضوح. تمكَّن - مع ذلك - من رؤية ثيابه. قميص أبيض طويل، وبنطال چينز كالح. هناك ندبة في جبينه، وشعيرات بيضاء في خصلاته الشعثاء. إنه "ذاكر" حقًّا. لم يقل الرجل شيئًا. حدَّق في "عارف" متسائلًا، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة. تلك الابتسامة يتذكَّرها "عارف" جيدًا. سار الرجل باتجاهه.

مسح "عارف" أنفه وعينيه، وقد استبدَّ به شعورٌ من الحماس والإثارة. سعل عدَّة مرَّات، ممسكًا ببطنه، ثم جلس على كعبيه، غير مصدِّق. هل هذا أيضًا حلم؟ هل هو هلوسة؟ أراد الوقوف، لكنه أحسَّ بضعفٍ شديدٍ في ساقيه، وبدوارٍ في رأسه. فرك عينيه بقوَّة.

واصل الرجل ابتسامه، وهو يقترب من "عارف".

إنه "ذاكر" حقًّا. كيف ينسى وجه شقيقه؟ ربَّت "عارف" على خديه، ليتأكَّد من أنه ليس في حلم، ثم صفع نفسه عدَّة مرَّات متتالية. كان كَمَن فقد عقله.

هرع "ذاكر" نحوه، ملقيًا بحقيبته الصغيرة جانبًا، وهو يصيح:

- هذا أنا يا أخي.. "ذاكر"!

انتحب "عارف" وهو يردِّد:

- أخي! "ذاكر"!
ثم ضمَّه بين ذراعيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت بحمد الله وتوفيقه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

..

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

الإهداء..
حُـلْـم
1
2
3
4
5
رَغْـبَـة
6
7
8
9
10
11
12
13
حزنٌ عميق
14
15

16
17
18
19
قَـدَر
20
21
22